الطغيان والانتحار القومي

ما لم يقله هيكل في (حرب الخليج)

بقلم

عبد الرحمن شاكر

مركز البحوث والدراسات الكويتية

الكويت ١٩٩٢

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم د./عدلى على أبو طاحون

الإسكندرية

الطغيان والانتحار القومي

ما لم يقله هيكل في (حرب الخليج)

مركز البحوث والدراسات الكويتية
ص.ب : ٦٥١٣١ المنصورية
الرمز البريدي : 35652
تليفون : ٢٥٧٤٠٨١/٣
فاكس : ٢٤٠٣٨٦٢

الطغيان والانتحار القومي

ما لم يقله هيكل في (حرب الخليج)

بقلم

عبد الرحمن شاكر

مركز البحوث والدراسات الكويتية

بسم الله الرحمن الرحيم

تصديـــــر

التاريخ أمانة فى أعناق المعاصرين، ويوجب ذلك ضرورة رصد ما يُنشر عن الأحداث الجارية، وتحرى صدق الكُتاب المعاصرين وفلسفاتهم فى التحليل، بما يخدم الحقيقة التاريخية، ويقدم لأجيالنا القادمة صورة نقية خالية من الشوائب بعيدة عن الهوى.

ومن هذا المنطلق اهتم مركز البحوث والدراسات الكويتية بدراسة وتحليل كثير من الكتب والدراسات التى كُتبت عن الغزو العراقى الأثيم على الكويت فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠م. ولعل من أهم تلك الكتب التى لاقت رواجاً إعلامياً كبيراً هو كتاب "حرب الخليج" لمحمد حسنين هيكل، وقد كان مبعث ذلك الرواج هو سُمعة الكاتب والهالات التى أحاطت به طوال حقبة الستينات والسبعينات من هذا القرن.

وهو ما قد يوحى للكثيرين بأن كل ما يمكن أن يصدر عنه يمثل حقيقة يعتد بها، غير أننا فوجئنا كما فوجىء العديد من الباحثين بما جاء فى كتاب "حرب الخليج" من مغالطات للحقائق المؤكدة والموثقة، ومحاولة واضحة لتبرير العدوان الذى أدانته دول العالم وانحياز مكشوف للطغيان الذى يمثله النظام العراقى الغادر.

وقد حرص الأستاذ عبد الرحمن شاكر على تناول الكتاب المذكور بالنقد والتحليل فى موضوعية تتضح لكل من يقرأ الكتابين، وقد كان لإمكاناته السياسية والثقافية أثرها فى إيضاح مكنونات كتاب هيكل، وكشف كثير من جوانب القصور والخلل فى رؤية هيكل واجتهاداته، وأهم من ذلك بيان المسائل التى تخطاها هيكل عمداً أو تقصيراً، ليؤدى كل ذلك إلى تعرية البناء الذى قام عليه كتابه. وقد اعتمد الأستاذ عبد الرحمن شاكر فى كل ذلك على الحقائق التى أجمعت عليها المصادر الموثوقة، والقراءة الدقيقة بعين الناقد البصير والسياسى الخبير.

والمركز إذ يتقدم بالشكر إلى الأستاذ عبد الرحمن شاكر على ما بذله من جهد فى هذا العمل العلمى، يرجو أن يكون هذا الإصدار مضافاً إلى ما سبقه من إصدارات علمية توثيقية، اسهاماً فى تقديم صورة صحيحة لجانب من أهم وأخطر جوانب الحياة العربية والاسلامية المعاصرة، التى زلزل أركانها نظام بغداد بجريمة غزو الكويت، التى انتهت بالتحرير، عن طريق ما عُرف بحرب الخليج. وعند الله نحتسب كل ما نعمل، إنه هو البَرّ الرحيم.

ربيع الأول ١٤١٣هـ
سبتمبر ١٩٩٢ م

أ.د عبدالله يوسف الغنيم
رئيس مركز البحوث والدراسات الكويتية

مقدمة

لم يشهد العالم العربي منذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، وهزيمة يونيو عام ١٩٦٧، كارثة أكبر من الغزو العراقي لدولة الكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠، وما تلا ذلك من حرب مدمرة شنها التحالف الدولي على العراق، وانتهت بانسحاب القوات العراقية من الكويت في فبراير ١٩٩١.

وقد ألف الأستاذ محمد حسنين هيكل كتاباً عن ذلك الموضوع سمَّاه «حرب الخليج، أوهام القوة والنصر»، وقد شرعت جريدة الأهرام القاهرية في نشر فصول منه، ثم توقفت بعد أربع حلقات تقريباً، على غير عادتها مع كتابات الأستاذ هيكل، ويبدو أنها قد فعلت ذلك لشعورها بأنها سوف تقع في حرج شديد، سواء مع الحكومة المصرية أو القارىء العربي، لما ينطوي عليه كتاب الأستاذ هيكل الضخم، من مغالطات، بل وأكاذيب تصدى لها بعض الدول من خارج العالم العربي بالتكذيب والاحتجاج لدى السلطات المصرية، كما سوف يطالع القارىء في بعض فصول كتابنا هذا.

وقد تناول كثير من الكُتاب، سواء في مصر أو العالم العربي، كتاب الأستاذ هيكل بالتعليق، وحينما أتيح لي أن أطلع عليه، رأيت مؤلفه يحاول ـ رغم ادعائه بغير ذلك ـ أن يلتمس الأعذار لنظام الحكم العراقي فيما أقدم عليه، فأنشأت هذه الفصول في التعليق على كتاب الأستاذ هيكل المذكور، واخترت أن أركز على زاوية محددة منه، تاركاً الزوايا الأخرى لغيري من الكتاب، ومنهم بالتأكيد من هم أقدر مني على مناقشتها، بما في ذلك، ما أوقعه النظام العراقي في عدوانه على الكويت، من مظالم فادحة، وأعمال همجية، فاقت كل تصور، ولم يكن ليدور في بال أحد، أن يوقعها عربي بشقيقه العربي.

الزاوية التي اخترت التركيز عليها في هذه الفصول، هي الطبيعة الانتحارية للطغيان الذي يتسم به نظام الحكم االعراقي، وكما ذكرت في الفصل الأول من هذا الكتاب، فإن الأستاذ هيكل لم ترد هذه الكلمة في كتابه لا هي ولا إحدى مشتقاتها، وذلك وحده دليل على الهوى الذي تملك الأستاذ هيكل في تأليف كتابه، وإذا كان قد زعم في مقدمته أنه في كتابه لا يصدر أحكاماً وأن موقفه مستقل لا محايد. . إلخ، فالواقع أن تصويره للوقائع واختياره لبعضها، وكثير منها مشكوك فيه، إنما كان يصدر أحكاما ملففة في إطار من ادعاء الموضوعية، ولم يكن صمته المتعمد عن التعليق على بعض ما يورده من وقائع، بأقل دلالة على انحيازه وسعيه لاختلاق المعاذير لما أقدم عليه حكام العراق من عمل إجرامي.

لذلك ألحقت باسم الكتاب، عنوانا آخر، هو «ما لم يقله هيكل في حرب الخليج»، إشارة إلى ذلك الصمت المتعمد، رغم الثرثرة الهائلة التي تملأ الكتاب، وبما يستحق الذكر وما لا يستحق.

حاولت في فصول الكتاب أن أتتبع النزعة الانتحارية للحزب الحاكم في العراق، ولا أعني بذلك نزعة حكام العراق إلى أن ينتحروا بذواتهم، إلا من الناحية الأدبية فحسب، بل تحقيق «الانتحار القومي» للشعب العراقي المبتلي بحكمهم، وللأمة العربية، التي تعرضت إحدى دولها، وهي الكويت، لعدوانهم الإجرامي المباشر، وتمزيق الروابط والقيم العربية على نحو شنيع، والهبوط بالمستويات الأخلاقية والمشاعر الإنسانية في مجموع الأمة العربية إلى درك سحيق.

وقد جاءت فصول كتابي هذا في معظمها متساوقة مع الترتيب الذي اختاره الأستاذ هيكل لعرض موضوعه أو تصوره، وهي مرتبطة بالضرورة مع تصاعد أزمة الخليج ومضاعفاتها.

وقد ركزت في الفصل الأول من هذا الكتاب، على مناقشة دعوى الأستاذ هيكل أن كل ما حدث، وكل ما حاق بالعراق من دمار، بسبب جريمة حكام العراق في غزوهم للكويت، كان مجرد خطأ في الحسابات! ولم يكن إجراماً فاضحاً في حق الجارة الشقيقة والأمة العربية والشعب العراقي على سواء.

أما في الفصل الثاني فقد ناقشت ظاهرة الطبقة الجديدة التي تحكم العراق، وسواها من الأنظمة القائمة على الاستبداد والطغيان، على أساس من ادعاء التقدمية والاشتراكية وما إليها، والتي سقطت نماذجها الرئيسية في شرق أوروبا وفي الاتحاد السوفيتي السابق، بينما بقيت مسوخ مشوهة لها من نوع حزب البعث العراقي تقود شعبها وأمتها العربية إلى الانتحار.

وفي الفصل الثالث ناقشت الحملة الظالمة التي شنها الأستاذ هيكل على المجالس الإقليمية التي قامت في العالم العربي بدءا من مجلس التعاون الخليجي مروراً بمجلس التعاون العربي الذي ضم مصر والعراق والأردن واليمن، وحاول الطغاة في بغداد تسخيره لأغراضهم العدوانية التي تجلت في غزوهم الكويت، بدلاً من الاستفادة منه في تحقيق تعاون اقتصادي فعال مع الدول الثلاث الأخرى المشاركة في عضويته، وخاصة مصر، أو في دعم الدفاعات العربية ضد إسرائيل وإحياء ما كان يسمى بالجبهة الشرقية في مواجهتها.

وفي الفصل الرابع ناقشت موقف النظام العراقي من الانتفاضة الفلسطينية ومدى الإساءة التي ألحقها بها بإقدامه على غزو الكويت، كما تطرقت إلى موضوع «يهود الخزر الأشكنازيم» الذين يشكلون المادة البشرية للحركة الصهيونية، وذلك لما لمسته للأسف الشديد، من نقص فاضح في معلومات الأستاذ هيكل عن هذا الموضوع، وانسياقه إلى ترديد المزاعم الصهيونية بأن يهود العالم شعب واحد مشتت في أرجاء الأرض!!

وفي الفصل الخامس تناولت مسألة الحرب العراقية الإيرانية وكيف أنها كانت أولى حلقات الانتحار القومي التي أقدم عليها حزب البعث الحاكم في العراق، وكيف أن غزوه للكويت كان محاولة يائسة لتعويض الخسارة الفادحة التي لحقت به في تلك الحرب.

كذلك ناقشت الصورة الهزلية التي عمد إليها الأستاذ هيكل في كتابه عن طريق عقد المقارنة بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية والعراق، وأن كلا منهما قد خرجت منتصرة في حربها: الأولى في الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي والثانية في الحرب ضد إيران، وليؤسس عليها نظرية مضحكة عن أن الصدام كان محتوماً ما بين أمريكا والعراق، ولم يسع إليه حكام هذه الأخيرة بإقدامهم على غزو الكويت!

أما في الفصل السادس فقد ناقشت التصريحات الجوفاء التي كان يطلقها النظام العراقي ضد إسرائيل مهدداً بحرق نصفها، وذلك استدرارا منه لتعاطف الرأي العام العربي معه حينما يقدم على غزو الكويت، بينما لم يكن منذ البداية يضمر أي مواجهة مع إسرائيل.

وفي الفصل السابع حاولت تذكير الأستاذ هيكل من نصوص كتابه بأن جمال عبدالناصر قد حذر العراقيين منذ ما يقرب من ثلاثين سنة من محاولة التعرض لاستقلال الكويت، مما قد يضعهم في مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومصالحها في المنطقة، وذلك دحضاً للتصور الهزلي الذي حاول الأستاذ هيكل أن «يبيعه» لقارىء كتابه، وهو أن تصدي الولايات المتحدة الأمريكية للعدوان العراقي على الكويت، كان بسبب أنها قد أصبحت بحاجة إلى عدو تحاربه، بعد أن اختفى من الخارطة السياسية عدوها السابق في الحرب الباردة وهو الاتحاد السوفيتي!

وفي الفصل الثامن ناقشت بداية الاستفزازات العراقية للكويت كمقدمة لغزوها، بما في ذلك التجسس على اتصالات الخارجية الكويتية بسفيرها في طهران

بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانيـة، ثم في الفصل التـاسع ادعـاءات حكام العـراق تعرضه لمؤامرة أمريكية تمهد بها للإقدام على غـزو الكويت، وكيف أن الأستـاذ هيكل كان أميل إلى تصديق تلك الادعاءات!

أما في الفصل العاشر فقد ناقشت الأكذوبة الكبرى التي فضحها الرئيس مبارك حينما وعده صدام حسين قبيل الغزو مباشرة بأنـه لن يستخدم القـوة في حل مشكلتـه مع الكويت، ومحاولات الأستاذ هيكل التشكيك في صدق رواية الرئيس المصري.

ثم تناولت في باقي الفصول المراوغات التي لجأ إليهـا النظام العـراقي للتملص من كل القرارات والنداءات التي وجهت إليه لـلانسحاب من الكـويت بعد أن أقـدم على غزوهـا، غير مبـال بجميع التحـذيرات بمـا ينتظر العـراق من دمار إذا مـا نشبت الحرب، وهو ما حدث بالفعل مؤكدا حقيقة أن هذا النظام القائم على الطغيان المطلق إنما كان يقود شعبه وأمته إلى الانتحار.

وعسى أن يكون كتابي هذا إسهاماً متواضعاً في فضح الطبيعة الإجرامية لـذلك النظام الفاجر، والمحاولات اليائسة في الاعتذار عنه أو تجميل صورته!

القاهرة في ١٠ أغسطس ١٩٩٢

عبدالرحمن شاكر

(١)

ولا كلمة عن الطغيان

أثار كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن «حرب الخليج» ضجة كبرى في صفوف القراء، وتناولته عدة أقلام بالتعليق، ليس لأهمية الكتاب من حيث هو، ربما لأهمية كاتبه، باعتباره واحدًا من أبرز الصحفيين العرب، إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق، وأهم من ذلك لأهمية القضية التي يتناولها في كتابه، فهي تمس جميع العرب في حاضرهم ومستقبلهم، وإلى حد ما تمس ماضيهم وأسلوب النظر فيه والحكم عليه.

ومسألة الحكم هذه في غاية من الحيوية، لذلك تساءل الأستاذ أحمد بهجت في تعليق على كتاب الأستاذ هيكل، قائلاً إن الأستاذ لم يقل لنا لماذا فعل صدام حسين ما فعل، حينما أقدم على غزو الكويت في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠م؟

كتاب بهذا الحجم (٦٣٥ صفحة) ولا يجيب عن هذا التساؤل أمر غريب! نعم، لقد أصدر الأستاذ هيكل هذا الكتاب أولاً باللغة الانجليزية بناء على طلب من ناشر صديق له كما يقول في مقدمته، ومن حقه أن يتوجه إلى القارىء البريطاني أو الأمريكي بما يشاء مما سماه وجهة نظر عربية في حرب الخليج، حيث أن عنوان الطبعة الإنجليزية هو «أوهام النصر ـ وجهة نظر عربية في حرب الخليج» وساق فيه ما ساق من معلومات، وتحليلات لتلك الحرب، لينتهي إلى نتيجة خاصة به، مؤداها أن أمريكا أو التحالف الغربي لم يكسب تلك الحرب تمامًا! بدليل بقاء صدام حسين حيًا واستمراره في السلطة، وبقاء جزء كبير من الجيش العراقي لم يتم تدميره، وبقاء دولة

العراق ذاتهاموحدة لم تقسم إلى ثلاثة أجزاء! وأن «أوهام النصر» لدى الغرب، هي في أن قواته كسبت الحرب وأجبر العراق على الانسحاب من الكويت، ولكن النصر لم يكن كاملًا للأسباب المذكورة آنفًا!

من حق الأستاذ هيكل أن يطلع لسانه للغرب على هذا النحو! لكي يغيظ القارىء الأوروبي، أو يثير إعجابه بهذا الاكتشاف: أن الغرب لم ينتصر حقًا في تلك الحرب، وإنما توهم أنه انتصر!! ولكن ليس من حقه فيما أعتقد، وقد ترجم الكتاب إلى العربية، ودلنا بعض من علقوا على الكتاب، على اختلافات أخرى، أقول ليس من حق الأستاذ هيكل، أن يغيظ القارىء العربي أيضًا، ويسكت ـ وهو من هو ـ عن تساؤل من نوع ما أشرنا إليه في أول هذا الكلام!

إن الأمة العربية، بحاجة إلى رأي واضح قاطع محدد، في بيان ما حدث ولماذا حدث، لقد راحت السكرة وجاءة الفكرة، وعلى حد قول الشاعر العربي:

تبين أعقاب الأمور إذا مضت ... وتقبل أشباها عليك صدورها

نعم لقد وقع انقسام في الرأي العام العربي، كما يقرر الأستاذ هيكل في بداية الأزمة، وأثناء احتدامها، إلى أن شن التحالف الدولي هجومه على العراق، لإجبار القوات العراقية على الانسحاب من الكويت، وقد تم ذلك بالفعل، ولحق بالعراق ما لحقه من دمار، فضلا عما أصاب الكويت ذاتها بعد الغزو، وفي أثناء الحرب، أصبح السؤال على لسان كل عربي: لماذا كل هذا الذي حدث!

كان موضوع الانقسام هو: هل هناك حل عربي، أم لا مفر من الحل الدولي؟ علمًا بأن الإجماع كما يقرر الأستاذ هيكل ـ كان على ضرورة انسحاب العراق من الكويت، كان من عناصر هذا الانقسام أي الشرين ينبغي أن نرضى به؟ العدوان العراقي على الكويت، أم الحرب بكل شرورها وويلاتها وخاصة إذا تولى الجانب الأكبر فيها القوات الأجنبية وعلى رأسها القوات الأمريكية؟

أما وقد قضي الأمر وتم تحرير الكويت على أيدي قوات التحالف الدولي، وأصبحت هناك صيحات تنادي بتضميد الجراح، ورأب الصدع في صفوف الأمة العربية، فإن ذلك لن يتم ـ فيما أعتقد ـ إلا من خلال الحكم الصحيح الواضح القاطع، على ما حدث ابتداء من إقدام الحكم العراقي على اجتياح الكويت في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠م ثم باقي التداعيات المعروفة للموقف.

يقول الأستاذ هيكل في الصفحة السابعة من الطبعة الإنجليزية من كتابه ـ في المقدمة: «في صيف عام ١٩٩٠م وجدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها بحاجة إلى تحد للمرة الأولى منذ ظهورها كقوة عظمى. فمع سقوط الامبراطورية السوفيتية في أوروبا الشرقية وضح أن هذه المهمة قد تم إنجازها. وبدت هناك حاجة إلى هدف جديد أو تهديد أو غرض له مغزاه وقد تحقق هذا المطلب في الرئيس صدام حسين وإن كان قد حدث عن خطأ في الحسابات أكثر منه عن قصد مستهدف».

بداية أقول: إن العبارة الأخيرة بالذات من هذه الفقرة، لم أجد لها نظيراً في الطبعة العربية من الكتاب، وهي التي تعنيني وتعني القارىء العربي، وأسأل الأستاذ هيكل: من الذي يلبي حاجة الآخرين على هذا النحو، وبهذا الثمن الذي دفعه العراق ودفعته الأمة العربية؟ وهل يكون كل ذلك مجرد خطأ في الحساب؟!

ويقول في فقرة تالية مباشرة: «كثير من الرؤساء يمكن أن يتطلعوا إلى العظمة في نظر الأجيال المقبلة، بدون إثبات جدارتهم بالقيادة في حرب عادلة، لقد كانت عدالة حرب الخليج واضحة وضوحًا ذاتيًا لدى معظم البريطانيين والأمريكيين، ولكن أقل من ذلك لدى العرب، بما في ذلك في بلاد أيدت التحالف، لقد خرج الرئيس بوش (من تلك الحرب) وقد تعاظمت صورته، ولكن معظم العرب وجدوا من الصعب عليهم أن يشاركوا الغرب شعوره بالزهو والرضا عن النفس. والآن وبعد مضي عام

على الحرب، فمن الممكن مناقشة هذه الاختلافات، دون الظهور بمظهر من يرضى أو يتسامح مع تصرفات العراق».

العبارة الأخيرة أيضًا، لم أجد مثيلها في الترجمة العربية للكتاب ولكن تبقى تساؤلات:

* هل لو كان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية شخص آخر كانت له حربه العادلة مثل دوايت ايزنهاور مثلاً، بطل الحرب العالمية الثانية هل كان سيحجم عن فعل ما فعله الرئيس الحالي بوش، دفاعًا عن المصالح الأمريكية على الأقل؟!

* أخشى أن يكون الأستاذ هيكل قد تواضع كثيرًا في تصويره لشعور العرب واختلافه عن الشعور الأوروبي بالزهو، بل أعتقد أن الشعور العربي كان مزيجًا من الشعور بالمرارة والألم، وربما السخط على الذات، لأن فيهم من أمثال صدام حسين من يسبب كارثة بهذا الحجم ويعجزون عن دفعها في أوانها!

* أخيرًا فإن العبارة الأخيرة في الفقرة المذكورة وهي لم ترد في النص العربي كما قدمت، تخالف واقع الكتاب في نصه العربي على الأقل، فقد بدا الأستاذ هيكل في معظم فصول كتابه، وكأنه يلتمس العذر «لتصرف العراق» أو نظام الحكم فيه على الأصح، ويكفي أن كل ما حدث من جانبه وبسببه هو في نظر الأستاذ هيكل - مجرد خطأ في الحسابات؟!

قل لي بربك ماذا وكيف يكون الإجرام، في حق الشعب العراقي والأشقاء العرب، والأمة العربية بأسرها؟!

أخشى أن يكون الأستاذ هيكل في تأليف كتابه عن «حرب الخليج» قد وقع تحت تأثير كبير، للعبارة التي نقلها عن «زبجينيو بريجنسكي» مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي الأسبق «جيمي كارتر» وهي العبارة التي نقلها عنه في الصفحة

السادسة من كـلا كتابيـه العربي والإنجليـزي (!) تقول: «إن أزمـة الخليج أصبحت عاطفية بأكثر من اللازم، وشخصية بأكثر من اللازم، وعسكرية بأكثر من اللازم». .

وفي ظل أسر هذه العبـارة التي أعجبته نسي الأستـاذ أنه يؤلف كتـابًا سيـاسيًا، وتوهم ربما أنه يؤلف مسرحية، أو يكتب سيناريـو لفيلم سينمائي عن حـرب الخليج، باعتبارها صراعًا «دراميًا» بين جورج بوش وصدام حسين، انتصر الأول منهما وانهزم الآخر، لخطأ في الحسابات كما يقول، وحشد ما حشد من معلومات وبعضها تفاصيل صغيرة جدًا في كتابه، من أجل «التكثيف الدرامي» كما يقال، وتصوير الـدوافع لـدى كل من «البطلين» لخـوض تلك الحرب، التي كـانت أشبه بـالمأسـاة الإغريقيـة! إذا ما أردنا الاستطراد في التشبيه المسرحي الذي فرضه علينا الأستاذ هيكل في كتابـه، ولكن المادة الغزيرة التي حشدهـا فيه ـ هي وسـواها ممـا لم يتعرض لـذكره ـ كـافية لبيـان أن التاريخ ـ وخاصة المعاصر ـ لا يكتب هكذا، وأن الصـورة المستخرجـة منه خـلاف ما ذهب إليه بالمرة.

كلمـة واحـدة عن «الـطغيـان» أو مشتقـاتهـا في وصف نـظام الحكم العـراقي وأفعاله، لم يقع عليها بصري في كتاب الأستاذ هيكل، رغم كونها الأصـل في كل مـا حدث، ولكن كلمة ثانية وردت في الصفحة ٥٠٦ من الطبعة العربية للكتاب، وهي التي جاءت على لسان المبعوث السوفيتي هي ـ إلى جانب كلمـة الطغيـان ـ التي تكمل الصورة الحقيقية لتلك الحرب، من أول ما بدأت باحتلال القوات العـراقية للكـويت في ٢ أغســطس ١٩٩٠م إلى انتهاء الحـرب في فـبرايـر من العـام الـذي يليـه، يقـول المؤلف: «وقد لاحظ المبعوث السوفيتي «يفجيني بريماكوف» هذا الشعور بـالقدريـة في بغداد، ووصفه بأنه كان أشبه بعقدة «الماسادا» وهي إتيان الانتحار الجماعي بـدلا من الاستسلام».

هـذه الكلمة هي «الانتحـار الجماعي» وأسميـه أنـا «الانتحـار القـومي»، لأن

«الجماعة» أي صدام حسين وجماعته من حزب البعث الحاكم في العراق، لم ينتحروا بذواتهم إلا أدبيًا فحسب! أما الذي قادوه إلى الانتحار، فهو وطنهم العراقي وشعبهم المغلوب بحكمهم، وأمتهم العربية التي عانت على أيديهم وبسببهم ما عانت وما تزال تعاني.

الصورة عندي إذن، التي أحاول بيانها في هذه الفصول، مستندًا في أجزاء منها إلى كتاب الأستاذ هيكل ذاته الذي أتناوله بالتعليق، هي التي تدور حول «الطغيان والانتحار القومي».

وهذا هو العنوان الذي أختاره لهذه الفصول.

في ص ٢٥ من الطبعة العربية وما بعدها يقول الأستاذ هيكل في كتابه «حرب الخليج»: «كما فوجىء الكل بالغزو العراقي للكويت، فوجىء الكل بالطريقة التي بدأ بها الاتحاد السوفيتي يتعاون مع الولايات المتحدة منذ الساعات الأولى للأزمة».

ثم يمضي في وصف الاجتماع الذي عقد بين وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر، ووزير الخارجية السوفيتي في ذلك الحين إدوارد شيفرنادزه، يوم ٢ أغسطس، اليوم الذي وقع فيه الغزو العراقي، حيث كان العالم يتصور ـ على حد قول الأستاذ هيكل ـ «أن العراق بلد تربطه علاقة خاصة مع موسكو في منطقة يعتبرها الاتحاد السوفيتي حساسة بالنسبة له لأنها واقعة وراء ظهره تمامًا، وبحكم العلاقات الوثيقة بين موسكو وواشنطون توقع العالم اقترابًا في المواقف، ولكن مع وجود مسافة فاصلة تفرضها محاذير وضرورات». ثم يمضي المؤلف قائلا:

«وكان ما تحقق هذه المرة متجاوزًا لكل التوقعات، ففي اللحظات الأولى من الاجتماع كان شيفر نادزه ـ وهو يومها المساعد الأول للرئيس «ميخائيل جورباتشوف» في مجال السياسة الخارجية ـ قد أقر بنقطتين أساسيتين:

«* أن غزو العراق للكويت يعطي الرئيس «صدام حسين» فرصة للسيطرة

على نصف إنتاج العالم من البترول اليومي، وثلثي احتياطياته المحققة غدًا».

«* وأن هذا الوضع يمثل تهديدًا حقيقيًا للمصالح الحيوية للولايات المتحدة».

«وترتب على الإقرار بهاتين النقطتين منذ اللحظة الأولى أن الموقف السوفيتي من الأزمة لم يعد يختلف في صميمه عن الموقف الأمريكي» إلى أن يقول: «كان الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف قاطعًا مع من قابلهم من العرب وقتها. وكان قوله لأحدهم: إن غزو الكويت مخالف لكل الأعراف والمواثيق. وكان هذا مفهومًا ومقبولاً ـ لكن جورباتشوف كان يضيف: «إن الأمريكيين قالوا لنا إن لهم مصالح حيوية في بترول الشرق الأوسط. وسوف يحاربون حماية له مهما حدث، ونحن نفهم وجهة نظرهم».

ونسأل الأستاذ هيكل: هل إذا كان صدام حسين، وأعوانه من الطغمة الحاكمة في العراق من حزب البعث، جهلة بملابسات السياسة الدولية، إلى الحد الذي لا يدركون فيه طبيعة الموقف الذي خلقوه بغزوهم للكويت، ألم يوجد من العرب الذين التقى بهم جورباتشوف ـ كما ذكر المؤلف آنفًا ـ من ينقل إليه هذه الصورة الواضحة عما ينتظرهم من قتال أمريكي حماية «على الأقل» للمصالح الحيوية للولايات المتحدة؟

لاشك أن واحدًا على الأقل من العرب قد نقل هذه الصورة إلى صدام حسين وأعوانه، فماذا يوصف الإصرار والمعاندة من جانب هؤلاء على عدم الانسحاب من الكويت، متحدين بذلك ليس إرادة الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، ولا الاتحاد السوفيتي، الدولة العظمى الأخرى في العالم آنذاك، بل العالم كله تقريبًا، ونقول تقريبًا لأن الأستاذ هيكل، كان حريصًا في كتابه على إبراز أن هناك من العرب من عارضوا ما توجه إليه العالم إزاء العدوان العراقي على الكويت!

هل يمكن أن يوصف الموقف العراقي بعد ذلك طوال الأزمة الذي انتهى

بالاضطرار إلى الانسحاب بعد دمار العراق، بأنه مجرد خطأ في الحسابات، من جانب صدام حسين وجماعته، كما يذهب الأستاذ هيكل في كتابه؟

هل إذا وقف أحد بسيارته على شريط قطار لابد وأن يتحرك، وقد استعمل الأستاذ هيكل تعبير «القطار» هذا في وصف التحرك الأمريكي في أحد فصول كتابه ـ وانتظر حتى يدهسه القطار، هل هذا مجرد خطأ في الحسابات، أم إصرار على تدمير السيارة، وربما تدمير الذات؟ والسيارة التي كان «يركبها» صدام حسين آنذاك، وما يزال (!!)، هي القطر العراقي بأكمله، الذى ابتلى بحكمه وحكم عصابته من حزب «البعث »العراقى، ولا أعتقد أن لفظة «البعث»، قد أصبحت تلائم هذا الحزب الآن، أو تصلح لوصفه، وقد أثبت أنه كان وما يزال حزب «الهلاك»!

* * *

يقول الأستاذ هيكل في ص ٣٧:

«كان الغزو العراقي للكويت مرفوضًا، وكان التدخل الأمريكي العسكري في الأزمة مرفوضًا بنفس المقدار »قال هيكل ذلك وهو يتحدث عن الأمة العربية .

ويؤسفني أن أقول للكاتب: إن هذا الكلام غير صحيح بالمرة، فالغزو العراقي للكويت كان مرفوضًا بالإجماع أو ما يشبه الإجماع، أما التدخل الأمريكي، فقد كان أو أصبح مقبولاً بعد الإصرار العراقي على عدم الانسحاب، بدليل اشتراك جيوش عربية إلى جانب «التدخل الأمريكي» كما يسميه، في الحرب التي شنت لتحرير الكويت! ليس «بنفس المقدار» يا أستاذ هيكل!

ويضيف الكاتب بعد ذلك قوله:

«وإزاء الرفض المزدوج تبدى عجز الأمة حتى عن التفكير فضلاً عن الفعل، وعمت العالم العربي حالة من الفوضى الشاملة».

ونسأل الأستاذ هيكل: لو صح كلامه، وأصبحت الأمة عـاجزة عن التفكـير، فهل أصاب هذا العجز صدام حسين وأعوانه في حكم العراق، وهو الذي راح يحشد الحشـود، ويشحن الأسلحة إلى الكـويت المحتلة انتظارًا ليـوم «الهلاك»، الـذي سماه «أم المعارك»؟!

بماذا يوصف من يقود الأمة ـ أو جزءًا منها عـلى الأقل ـ إلى الانتحـار على هـذا النحو؟

لقد عرف العالم طغاة كثيرين، ولكن ليس بهذا القدر من الغباء والغفلة والعناد السخيف، فضلًا عن الإجرام.

يشبهون صدام حسين بهتلر، ولكن هذا ظلم كبير لهذا الأخير: لقد فتـح هتلر غرب أوروبا كله، وكـان له حليفـان من الكبار، همـا ايطاليـا واليابـان، ودوخ العالم خمس سنوات قبل أن يهزم، وكان خطأه في الحسابات أنه هاجم الاتحاد السـوفيتي ولم يتصور صمودًا من جانبه على هذا النحو، ولا تدخل الولايـات المتحدة الأمـريكية إلى جانب الحلفاء. . إلخ قصة الحرب العالمية الثانية التي لن أرويها هنا بالتفصيل، ولكن أكتفي بالقول بأن ألمانيا الهتلرية كانت على الأقل تصنع سلاحها بأكمله، وقد استعان الحلفاء في نهاية الحرب ببعض ما حصلوا عليه من أسرار الصناعة العسكرية الألمانية، فماذا كان عند عراق صدام حسين بخلاف ما استورده من سلاح أجنبي جاهز، وعلى الأكـثر بعض وسائـل صنع السـلاح، بما فيـه أسلحة الـدمار الشـامل التي لم يكتمـل بعضهـا، ولم يجرؤ عـلى استخدام مـا يمكن منها إزاء التهـديد بـأن الرد سـوف يكـون ساحقًا؟!

هتلر يمكن أن يوصف بأنه أخطأ في الحسـابات، أمـا صدام وجمـاعته فيبـدو أن حساباتهم كانت تصب في اتجاه محدد هو: تدمير هذه الأمة قبل أن تفيق وتصبح شيئًـا مذكورًا.

يقول الأستاذ هيكل في نهاية الصفحة ذاتها وما بعدها:

«إن الجيش العراقي واجه الحرب وهو جيش بلا أسرار، ولقد انفتحت أسرار الجيش العراقي، وكأنها صفحات ملف متداول. فالاتحاد السوفيتي أعطى للأمريكيين بعض ما كانوا يحتاجونه عن مفاتيح تشغيل صواريخ «سكود»، وكان هو الذي باعها أصلاً للعراق، ولم يكن في الطائرات الفرنسية التي اشتراها العراق سر على الولايات المتحدة، سواء في مواصفاتها أو في تسليحها».

«ولم يكن هناك سر أيضًا في صفقات السلاح أو لوازمه التي حصل عليها العراق من بريطانيا وسويسرا وألمانيا الغربية، ذلك أن السلاح وما له صلة به يخضع لرقابة تتابع، وقد تغمض عينيها في بعض الأوقات لأسباب سياسية أو اقتصادية ـ لكنه التجاهل، وليس الغفلة».

لافض فوك يا أستاذ هيكل! فالغفلة من نصيب بعض ساسة وحكام الأمة العربية فقط، ولكنك للأسف الشديد، قد تزيد من هذه الغفلة لدى الأمة بأسرها، لو صدقت ما ذهبت إليه، من أن جريمة صدام حسين وأعوانه من طغاة البعث، كانت مجرد خطأ في الحسابات!

أما مبالغة المحللين العسكريين في واشنطون، كما قلت في ذات الموضوع من كتابك عنهم، وأنهم كانوا «يرسمون صورة مخيفة ومبالغًا فيها لقوات الحرس الجمهوري العراقي» فذلك أمر مفهوم، إن هذه المبالغة فيما أتصور كانت جزءًا من الحملة النفسية لتهيئة أذهان الرأي العام العالمي للقتال الذي هم مقبلون عليه، بدلاً من أن يتطوع أحد بتصوير الوضع، كما لو أن قوة دولية هائلة تفترس بلا رحمة قوة هزيلة، من قوى العالم الثالث، كما ذكرت!

ولكن هل هذا يعطي عذرًا لصدام حسين وحزبه لكي يصدق تلك المبالغات،

ويتصـور أنه قـادر بما لـديه من قـوات على تحـدي القوة الهـائلة التي احتشدت لصـد عدوانه وطرده من الكويت؟

أم أنـه الطغيـان الأعمى الذي يقـود الشعب المبتلى بحكمـه، والأمة التي هـو محسوب عليها، إلى الدمار؟!

يقول الأستاذ هيكل في ص ٤٠ من كتابه: «ووصلت حالـة الفوضى في الفكـر إلى تقديرات غـريبة في المـواقف. من ذلك أن العقيـد معمر القـذافي راودته في بعض الساعات نظرة مؤداها أن الأزمة كلها مؤامرة متفق عليها بين واشنطون وبغـداد». الى أن يقول: «المؤامرة هى أن يقوم العراق باحتلال الكـويت ويسارع عـرب الخليج الى دعوة الأمريكان الذي يدخلون المنطقة مطلوبين بدلاً من أن يكونوا طالبين»
ثم يضيف «وظلت هـذه الفكـرة تـروح وتجئ عـلى بـال القـذافى حتى بـــدأت الصواريخ الأمريكية على بغداد.»

قد لا يكون الأمريكان هم الذين تواطؤوا مع «بغداد» على النحو الذي تصوره القذافي ثم عدل عنه حينما بـدأ الهجوم الأمـريكي أساسًـا على العـراق، ولكن مؤامرة مـا، دبرهـا حزب البعث العـراقي مع خصـوم ما لـلأمة العـربية لكي تقـع في هـذه المحنة، أو الكارثة بما فيها تدمير العراق، ومحاولة تخريب الكويت ونهبها وإحراق آبـار نفطها، وتقطيع الروابط العربية على النحو الفظيع الذي حدث، ولا أدعي أني أملك بيانًا أو دليلاً على نوع خصوم الأمة العربيـة المشار إليهم ولكن هـذه الأمة لهـا خصوم بـالتأكيـد، وسواء تـواطأ معهم حكـام العراق أم لم يفعلوا، فقـد وضعـوا أنفسهم في طرقهم لخدمة أغراضهم بالتأكيد..

ولا أحسب ذلك كان مجرد تطوع من جانب هؤلاء الحكام.

(٢)

وماذا عن الطبقة الجديدة؟

أتوقف عند حادثة تفصيلية حرص الأستاذ محمد حسنين هيكل على أن «يحشرها» في كتابه عن حرب الخليج . وهي قوله في ص ٤٤ وما بعدها : «في مونت كارلو ليلة انفجار الأزمة كان الشيخ حسن عناني وهو أحد أثرياء السعودية ، والصديق المقرب من دوائر الأسرة الحاكمة ـ يخسر ١٢ مليون دولار على مائدة القمار ، وكانت المفارقة أن الخبر نشر في الصحف جنبًا إلى جنب مع أنباء غزو الكويت . كذلك كانت الصحف ، وبينها جريدة «التيمس» تنشر أن طائرة خاصة لا تزال تحمل كل يوم من جزيرة «أوركن» في اسكتلندا إلى السعودية خمسمائة كيلوجرام من المحارات البحرية التي تشتهر بها هذه الجزيرة» ، ويعلق بعد ذلك الأستاذ هيكل بقوله مباشرة : «وهكذا برغم الأزمة ، فإن بعض المترفين لم يكونوا على استعداد لتغيير نمط حياتهم» .

ماذا يريد الأستاذ هيكل أن يقول؟ هل يريد أن يشير ولو من طرف خفي ، إلى أن الكويت كانت (تستحق) الغزو الذى وقع عليها، والسعودية بدورها كانت تستحق التهديد الذي واجهته بهذا الغزو، لأن بعض المترفين هنا أو هناك لم يكونوا على استعداد لتغيير نمط حياتهم على حد قوله؟!

بادىء ذي بدء ، فكلنا نعلم أن المترفين من جميع المجتمعات لهم «تجاوزاتهم» من نوع لعب القمار واحتمال خسارة مبالغ طائلة فيه ، ويأكلون «المحار» أو غيره من

الأطعمة المستوردة، من كافة أنحاء العالم، وأن ذلك ليس قاصرًا على المترفين من أبناء الخليج وحدهم.

ولكن المشكلة، هي أن بعض من يعيب سلوك هؤلاء المترفين على هذا النحو، من داخل الأنظمة التي تدعي أنها ثورية، أو تقدمية، أو اشتراكية.. إلخ في العالم العربي يسلكون هذا السلوك ذاته، إذا أتيحت لهم الفرصة وأصابوا ثراء من أوضاعهم المرتبطة «بالسلطة» على نحو خاص! وأذكر أن الأستاذ هيكل ذاته قد روى في بعض كتاباته، عن لقاءاته مع بعض «الثوريين» من خارج العالم العربي، لعلهم من الصين، وكيف أنهم لاحظوا ـ أنه ـ أي الأستاذ هيكل ـ يدخن السيجار الفاخر، وعلق على ذلك في مرح، بأنه من طبيعة وضعه «البرجوازي».

أما عن القمار وخسائره، فلعل الأستاذ هيكل، يعرف الواقعة التي اشتهرت في مصر، وهي أن أحد الشبان اللامعين، الذي كان زوجاً لابنة «زعيم» مصري هو موضع التقدير الكبير من الأستاذ هيكل، قد خسر على مائدة القمار في لندن مبلغًا كبيرًا، مليون أو نصف مليون، وأن ذلك كان بحضورإبن أحد الأثرياء السابقين على عهد الثورة في مصر، وأن هذا الأخير عاتب الشاب اللامع على ما فعل، فكان رده عليه: «وانت مالك؟ هل هو مال أبيك؟» ورد عليه ابن «الباشا» الاقطاعي السابق بقوله: «نعم، هو مال أبي الذي سلبتموه» وانهال عليه ضربًا.. إلخ القصة!

أما أن الطعام المستورد من «مكسيم» في باريس وسواه من المطاعم الفاخرة، كان كثيرًا ما يحضر على مائدة زعماء مصر «الثوريين»، فذلك أمر معروف. وأظن أن المرحوم المشير عبدالحكيم عامر، قد كتبت عنه الصحف المصرية عند بدء سقوطه بعد نكسة عام ١٩٦٧، أن مصروفاته الشخصية ومصروفات مكتبه ومحاسيبه، كانت تمثل نزيفًا لرصيد مصر من العملات الحرة! ولا أعتقد أن أيًا من دول الخليج قد تعرضت لمثل هذا النزيف، إلا بعد العدوان العراقي على الكويت، للإنفاق على الحرب التي انتهت برد هذا العدوان وتحرير الكويت!

إن «الطغيان» المتلبس بشعارات «الثورية» غير عفيف اليد ولا اللسان في كل مكان! بل إن هذا الشعارات كانت مجرد أداة في يد الطبقة الجديدة، التي نشأت داخل المجتمعات التي توصف بأنها تقدمية واشتراكية، لحيازة الثروة لأنفسهم مهما بلغت درجة معاناة شعوبهم، وبالنسبة لطاغية بغداد، وحزبه الثوري، التقدمي، الاشتراكي، المدعو حزب البعث، فإن الكثير قد تناثر عن إسرافهم، وعن الأموال الطائلة التي تولوا تهريبها للخارج، بل إن كتاب الأستاذ هيكل ذاته عن حرب الخليج يتضمن دليلاً صارخًا على ذلك.

في ص ٤٨٤ وما بعدها يذكر الأستاذ هيكل لقاء إدوارد هيث رئيس الوزراء البريطاني الأسبق مع صدام حسين ليطالبه بالافراج عن الرهائن البريطانيين، وأن هيث قال في هذا الصدد:

«إنني قضيت ثلاث ساعات مع صدام حسين، ولم يستغرق موضوع الرهائن في الحديث بيننا أكثر من فترة وجيزة. كنت قد قسمت البريطانيين إلى مجموعات متشابهة في ظروفها، ورحت أضع أمامه كل مجموعة، وكان رده في كل مرة «نعم هؤلاء يجب أن يطلق سراحهم ويعودوا إلى وطنهم في رفقة المستر هيث». وكانت آخر مجموعة تتكون من ٥٩ من عمال البناء يشاركون في بناء القصر الجمهوري، وقد قاطعني عندما قلت ذلك، وقال لي «ليس عندي قصر جمهوري» ثم التفت إلى السيد «طارق عزيز» الذي كان يجلس معنا، وسأله: «إلى ماذا يشير رئيس الوزراء هيث وهو يتحدث عن القصر الجمهوري؟» - ثم التفت إليّ ثانية وقال: لدينا بيت ضيافة في مجمع رئاسة الجمهورية حيث يوجد مكتبي. وإذا كان العمال الذين يشتغلون فيه هم الذين تقصدهم فسلامتهم مسئوليتي شخصيًا، ولابد أن يعودوا إلى بلادهم سالمين فور فراغهم من عملهم»..

ولا أدري لماذا لم يعلق الأستاذ هيكل على هذه الواقعة، كما علق على حكاية

«القمار» و«المحار» المشار إليها في أول هـذه الحلقة؟ ألم يكن العـراق بدوره في «أزمـة» بعد غزوه الكويت، حينما بـدأت جيوش العـالم، وأولها وأقـواها الجيش الأمـريكي، تحتشد لضربه، ومع ذلك فـالرئيس العـراقي مشغول بـأن يفرغ العـمال البريـطانيون التسعـة والخمسون» من عملهم في «بيت الضيـافة بمجمـع رئاسـة الجمهـوريـة» كـما يسميه، وبالطبع هذه التسمية والتمثيلية التي أجراهـا مع معـاونه طـارق عزيـز أمام رئيس الوزراء البريـطاني السابق لا تنـطلي على أحـد سذاجتهـا ولا سخافتهـا، «بيت الضيافة في مجمع رئاسـة الجمهوريـة» هو جـزء من القصر الجمهوري، حتى ولـو كان مبنى مستقلا داخل هذا المجمع»، وهل يحرص النـاس، كل النـاس، على الـوجاهـة والفخامة، في مكان أكثر من الذي يستقبلون فيه ضيوفهم؟ .

ألم يخطر ببال الأستاذ هيكل أن تلك الواقعة دليـل بذخ وتـرف لا تخطئـه العين يمارسه حاكم بغداد هـو والطبقـة الجديـدة المحيطة بـه؟ ولماذا يستـورد ـ ليس المحار ـ ولكن العمال من بريطانيا، بهذا الرقم الكبير نسبيًا! ألم يكن في العراق، أو غيرهـا من البلدان العـربيـة، مصر مثـلاً، من يصلح للقيـام بـالعمـل الـذي قـام بـه هؤلاء الـبريطانيـون، أم كان لابـد من استئجار هؤلاء ـ «بـالشيء الفلاني» كـما يقال ـ لكي يقدموا الأبهة والفخامة اللائقة بعظمة امبراطور العصر والأوان صدام حسين!

«اللي اختشوا ماتوا» . . كـما يقال في مصر، ولكن هؤلاء لا يختشـون ولذلـك لم يموتوا حتى الآن!

* * *

إن الذي صاغ تعبير «الطبقـة الجديـدة» هو ميلوفـان دجيلاس النـائب السابق لرئيس الدولة اليوغسلافية، في كتابه المعـروف بهذا الاسم، والـذي صدرت الـطبعة الأولى الإنجليـزيـة لـه في عـام ١٩٥٧، يصف فيهـا الأوضـاع التي سـادت الـدول الشيوعية بما فيها الـدولة التي كـان يشغل فيهـا منصبه البـارز، ومؤدى كتابـه أن هذه

النظم لم تؤد إلى قيام مجتمع غير طبقي، كما كانت تدعو النظرية الشيوعية، ولكن واقع الأمر أن الأحزاب الشيوعية، المحتكرة للسلطة والتي تمارسها بطريقة استبدادية، قد تحولت بالفعل إلى طبقة جديدة تحتكر مختلف الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية، على حساب مستوى معيشة شعوبها، وأنها سخرت الملكية العامة لوسائل الإنتاج من أجل أغراضها الذاتية في المقام الأول.

وقد توافق صدور هذا الكتاب، الذي قضى صاحبه تسع سنوات في السجن، عقابًا له على إصداره (!)، مع عقد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في عام ١٩٥٦. وهو المؤتمر الذي ألقى فيه السكرتير العام لهذا الحزب في ذلك الحين، نيكيتا خروشوف تقريره المشهور الذي أدان فيه سياسة تقديس الفرد التي كانت متبعة في عهد ستالين، وكشف في تقرير سري آخر - أذيع بعد ذلك في أنحاء العالم - الكثير من الممارسات الوحشية التي تمت في ذلك العهد، في ظل الحكم البوليسي المتسم بالطغيان والاستبداد المطلق.

ولقد نشأت النظم المسماة «بالثورية» في المنطقة العربية متأثرة بأوضاع الدول الشيوعية، وجنح حكامها إلى الاستبداد والطغيان بدعوى الحرص على تحقيق مصالح الشعوب، بينما احتكروا لأنفسهم كافة الامتيازات «الطبقية» على غرار الأحزاب الشيوعية التي أشار إليها دجيلاس، وإذا كان هناك فرق بين هذه الأنظمة والنظم الشيوعية، فهو أن هذه الأخيرة قد نجحت في تحقيق قدر من التقدم العلمي والصناعي في بلادها، وخاصة في كل من الاتحاد السوفيتي والصين، لم تصل إلى مستواه أنظمة العالم الثالث المتأثرة بأوضاع ما كان يسمى بالمعسكر الاشتراكي.

وإذا كان الأستاذ هيكل في كتابه عن حرب الخليج، قد أشار في أكثر من موضع إلى سقوط الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية، والاتحاد السوفيتي الذي تفكك بدوره إلى جمهوريات مستقلة يجمع معظمها «كومنولث جديد»، باعتباره واحداً

من أهم التغيرات العالمية إن لم يكن أهمها على الإطلاق، فقد كان أولى بـه أن يلاحظ أن سقوط الأصل قد نتج عنه بالضرورة افتضاح أمر انعكاساته خارج ذلك المعسكر، وأن طغـاة من نـوع صـدام حسـين وحـزب البعث المحتكـر للسلطة في العـراق، لا يختلفـون في شيء عن أمثال شـاوشيسكـو، وجيفكـوف، وهـونيكـر، وأضرابهم التي أطاحت بها الثورة ضد «الطبقة الجديدة» في شرق أوروبا في عام ١٩٨٩، بعـد أن بدأ جورباتشـوف سياسـة البريسـترويكا والجـلاسنوست في عـام ١٩٨٥، وانكشف فيها الكثـير من الفساد واستغـلال النفوذ، والبـذخ الجنوني الـذي كـان يعيش فيـه هؤلاء الـطغاة وأعـوانهم، على حسـاب شعوبهم التي تعـاني الفاقـة، وطفقت تمد أيـديها إلى أعدائها السابقين طلبًا للعون، وعلى حد تعبير الأستاذ هيكل في ص ٥٤:

«كان جورباتشوف حالمًا في عز النهار عنـدما تصـور أن الغرب يـرضى أن يقدم مساعدات لنظام وقف يتحداه ويخاصمه أربع حقب متواليـة، وفات عليـه أن الغرب الرأسمالي، وقد لاح فجر انتصاره، لن يقبل بأقل من تعرية التجربة الشيـوعية تعـرية كاملة تصل بها بعد حد الهزيمة إلى حد الفضيحة وقد كان».

ويدهشني أن يفوت على الأستاذ هيكل أن يلاحظ أن تعرية التجـربة الشيـوعية وفضيحتها كما قال، كان من طبيعة الأمور أن تلقي بظلالها الكثيفـة على كـافة النـظم الاستبـدادية التي قـامت على أسس من الشعـارات المشابهـة في التقـدم والاشـتراكيـة والعدالة الاجتماعية.. إلخ ومن بينها نظام حزب البعث في العراق.

بـل إنني أتساءل عـما إذا كان من دوافـع صـدام حسـين لغـزو الكـويت، هـو التملص من الزخم الديمقراطي الذي شرعت عدواه تنتقل من ثـورة أوروبا الشرقيـة عـلى النظم الاستبـدادية الأخـرى، حتى اضطر حـزب البعث إلى إعلان أنـه سـوف يسمـح بقيـام التعـدد الحـزبي هنـاك، وخـاصـة بعـد تقـدم تلك التجـربـة في مصر واستقرارها إلى حـد واضح، وخـاصة في عهـد الرئيس مبـارك، وكان غـزو الكويت وسيلة لتملص طاغية بغداد وحزبه من حرج عدم الوفاء بهذا الوعد بالتعدد الحزبي.

وأغرب من ذلك أن يمضي الأستاذ هيكل في التفرقة ما بين نـوعين من الأنـظمة العـربية، ولكنـه بدلاً من أن يلجـأ إلى التقسيم القديم، إلى نـظم تقليديـة، وأخرى «ثورية»، راح يقسم هذه المجتمعات في أكثر من موضع في كتابـه، إلى قبائـل ومدن، الأولى تملك البترول والثانية معظمهـا لا تملكه، وإن كـان لم يستطع إنكـار أن العراق بـالذات، كـان لديـه المدن والبـترول أيضًا عـلى نحو وفـيرا ولم يكن بحاجـة إلى غزو جيرانه لكي تجد مدنه ما تقتات به!

إن لجوء كثير من الطغاة إلى المغامرات العسكرية الخـارجية لكي يسـوغوا أمـام شعـوبهم استمرار حكمهم الاستبـدادي، هو أمـر معـروف في التـاريـخ. ومن هـذا المنطلق، شن صدام حسين وحزبه «حرب الخليج» الأولى، كما سماها الأستـاذ هيكل في كتابه، وهي الحرب العراقية الإيرانية التي دامت ثماني سنوات، وانتهت بانسحـاب القـوات العراقيـة من كافـة الأراضي الإيرانيـة، وذلك بعـد إقدام العـراق على غـزو الكويت حتى لا يضطر إلى الحرب في جبهتين، واعـترف صدام حسـين في خطاب إلى هاشمي رافسانجاني رئيس إيران بأن هذه الحرب، كانت بسبب «القوى التي لها يد في الفتنة التي وقعت بين العراق وإيران» على حد ما روى الأستاذ هيكل في ص ١٢٤ من كتـابـه، ومـع ذلـك فـإن الأستـاذ هيكـل يعـود فيبحث عن أعـذار لتلك الحـرب في ص ١٢٦، بـالحديث عن «النـداء الإيراني» الـذي «كـان مـوجهًـا بـالـدرجـة الأولى للشيعة»، ليقول: «ثم تجيء حقيقة أن ٥٥٪ من العراقيين ينتمون إلى الشيعة مذهبًا، وبـالتالي فـالأرض مهيأة، ونـداء الثورة الإيـرانية قـد يصبح مسمـوعًا، فـإذا وصلت الاستجابة إلى مداها تفككت أوصال الدولة القومية في العراق».

صدام حسين يعـترف بأنها فتنـة، وهيكل يـراها ضرورة لصـد خطر استجـابة الشيعة العراقيين للنداء الإيراني!!

لقـد كانت تلك الحـرب «العبثية»، التي راح فيهـا مئات الألـوف من الشبـاب

العراقي وعشرات المليارات من ثـروة العراق هبـاء، هي المرحلة الأولى من الانتحـار القومي، الذي قاد إليه صـدام حسين وحـزب البعث شعب العراق، ومن أسف أنـه تلقى في تلك الحـرب «القوميـة» المزعـومة العـون المـالي من دول الخليـج، بمن فيهم الكويت، التي جوزيت على ذلك من جانبه جزاء سنمار، كما تلقى العون العسكري، بالسلاح والرجال من مصر، بدعوى أنـه يحرس «البـوابة الشرقيـة» للوطن العربي من التهديد الفارسي!

كان المستفيد الوحيد من تلك الحرب هي شركات السـلاح الغربيـة والروسيـة التي باعت له بأموال الخليج كميات هائلة منه، كما باعته لإيران، وظلت حريصة على استمرار التوازن في تلك الحـرب، بحيث لا ينتصر أحد الفـريقين انتصـارًا كامـلًا أو يهزم هزيمة كاملة، لكي يستمرا في الحرب وتستمـر هي في جني الأرباح، من الحـرب التي تحصد الأرواح!.

أمـا ما تبقى من سـلاح في أيدي العـراق بعد ذلـك، فقد تـولت الدول ذاتهـا مصدرة السلاح تدميره، بعـد أن أعطاهـا صدام الفـرصة لـذلك بـإقدامـه على غـزو الكويت، متحديًا بذلك الشرعية الدولية في عـالم ما بعـد الحرب البـاردة حيث انتهى المعسكر الذي كان هناك احتمال ـ ولو ضئيل ـ أن يقف إلى جانبه فيها.

فبانتهاء هذا المعسكر، انتهى كل احتمال لقتنمة الحرب، كـما كان يقـدر صدام حسين، أو يدعي أنه يقدر في «حساباته الخاطئة» على حد التعبير المفضل لدى الأستـاذ هيكـل، وهو التعبـير الذي لا نـرتضيه، لأن جـريمة غـزو الكويت، تجـاوزت حـدود الحسـابات الخـاطئة، لتصبـح المرحلة الثـانية والنهـائيـة من الانتحـار القـومي لشعب العراق، الذي قاده إليه صدام حسين وحزب البعث العراقي، حيث لم يدمر السـلاح العراقي فحسب، وما يزال تدمـيره مستمرًا تنفيـذًا لقرارات مجلس الأمن، بـل دمرت البنية الأساسية للحياة المدنية العراقية، بحيث أعيد هذا الشعب الغني بموارده الطبيعية

والبشرية، إلى العصر الحجري، على حد التعبير الذي أورده الأستاذ هيكل أيضًا في كتابه، وما يزال هذا الشعب يعاني من الحصار الاقتصادي مادام صدام حسين وحزبه يسيطرون على مقاليد الأمور في العراق.

إن الخلاف على حصص إنتاج البترول، والالتزام أو عدم الالتزام بقرارات منظمة الأوبك في هذا الشأن، كان ينبغي أن يتم حله بالتفاوض بين الدولتين، الكويت والعراق، ولم يكن الغزو أو العمل العسكري هو طريق حل مثل هذا الخلاف الاقتصادي.

أما دعوى صدام حسين، أن الكويت كانت جزءًا من العراق في العصر العثماني، فقد أثبت المؤرخون أن علاقة الكويت بالدولة العثمانية كانت علاقة احترام للدولة الإسلامية ولم يثبت في يوم من الأيام وجود حامية عثمانية في داخل الكويت، ولم يثبت أيضًا تدخل الدولة العثمانية في نمط الحكم أو في علاقة الكويت بغيرها من دول المنطقة، وبافتراض وجود علاقة ما مع الدولة العثمانية، فقد انتهى كل أساس للدعوى بعد اعتراف العراق بالكويت دولة مستقلة عضو في الجامعة العربية والأمم المتحدة، بعد عام ١٩٦٣ وتبادله العلاقات الدبلوماسية معها.

أما أن يعود صدام حسين وحزب البعث بعد إقدامهم على غزو الكويت، إلى إعلان أنها جزء من العراق، قد عاد إليه، فذلك بالإضافة إلى مناقضته لكل من المواثيق والأعراف الدولية فإنه خيانة عظمى لقضية القومية العربية التي يدعي صدام حسين والنظام الحاكم في العراق أنهم يرفعون لواءها.

إنها ذروة الادعاء والعنجهية الإقليمية، أن تقدم دولة عربية على ضم دولة عربية أخرى بالقوة المسلحة، فإذا كانت الكويت جزءًا من شيء فهي جزء من الوطن العربي، مثلها في ذلك مثل العراق والسعودية ومصر وسوريا.. إلخ الدول التي تكوّن هذا الوطن.

والمبدأ القومي الصحيح، في ظل الظروف الدولية والسياسية الراهنة، يجعل أي وحدة «قومية» رهنًا بإرادة الشعوب المعنية فحسب ولا جدوى ولا شرعية في محاولة فرضها أو حتى فرض استمرارها بالقوة، وذلك هو المعنى الذي أدركه جمال عبدالناصر، حينما رفض أن يدافع عن استمرار الوحدة المصرية السورية بالقوة، بعد أن اختار الشعب السوري الانفصال عن الوحدة التي سبق له قبل عامين قبولها في استفتاء عام.

لقد أصبح الأمل الوحيد في تقريب الأمة العربية من الوحدة، هو التنسيق والتقارب المستطاع، والتعاون ما بين دولها على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية والعمرانية في إطار جامعة الدول العربية، وأذكر في هذاالصدد أن الوطن العربي كان يموج بأبحاث مستفيضة، واقتراحات عدة، تصدر من مختلف الدوائر الفكرية والسياسية العربية، تدور كلها حول الحاجة الى تعديل ميثاق جامعة الدول العربية، ليصبح أكثر فعالية في تحقيق وحدة التحرك العربي في عالم تسوده الكتل الدولية الكبرى، وخاصة بعد انتهاء الشرخ العميق الذي أحدثه في تلك الجامعة تعليق عضوية مصر بسبب توقيعها معاهدة الصلح مع اسرائيل.

لم تكد مصر تسترد عضويتها ومكانتها في الجامعة العربية، ويجري البحث في تطوير تلك الجامعة كما تقدم ذكره، حتى فوجىء الوطن العربي، بالخونة من طغاة العراق يوجهون إلى كل تلك الأحلام لطمة قاسية، بإقدامهم على غزو دولة عربية مجاورة مستغلين كونها صغيرة الحجم محدودة القوة العسكرية . .

. . وياللنذالة والجبن والخيانة!

(٣)

التجريح بأفكار محنطة

أنشـأ الأستاذ محمـد حسنين هيكـل في كتابـه «حرب الخليـج»، فصلاً بعنـوان «التجديد بأفكار معلبة» خصصه لتجريح فكرة إنشاء مجـالس للتعاون الإقليمي، مـا بين مجموعات من الدول العربية، يقول في ص ١٦٥ :

«إن فكرة إنشاء مجالس للتعاون الإقليمي بين أجزاء الـوطن العربي المتـلاصقة جغرافيًا، أو بالمصالح الذاتية لم تكن ـ أولاً جديدة».

«ثم إن هذه الفكرة لم تكن ـ ثانيًا ـ خطوة إلى الأمام، بل خطوة إلى الخلف من حيث أنها استغنت عن الإطـار الواحـد الذي كـان مفروضًـا أن يجمع العـالم العـربي الواحد في مظلة واحدة، وعلى احترام ميثاق واحد ـ ثم استبـدلت ذلك بتقسيم الأمـة إلى ثلاث مجموعات ضمت بعض دولها (صحة العبارة لغـويًا هي «استبـدلت بذلـك تقسيم الأمة. . إلخ . . ولكن هكذا كتبها هيكل!)، ثم يمضي قائـلا: «ثم بقيت بقية الأمة في العراء أو في التيه.

«إن هذه الفكرة ظهرت في الواقـع من قبل إنشـاء الجامعـة العربيـة، ثـم جرى الترويج لهـا في بعض الأحيان كبـديل لهـا، وفي وقت من الأوقات اعتمـدتها هيئـات المعونة والتنمية الدولية، والغربية بالذات، كأساس لنشاطها في المنطقة.

«كانت الفكرة تقول إنه ليس هنالك عالم عربي واحد، ولكن أربعة عـوالم لكل منها خصوصيته وقاعدته وشبكة علاقاته الطبيعية :

«شبه الجزيرة العربية عالم وحده له خصوصيته، والرياض هي المفتاح والهلال الخصيب عالم ثان وحده وله خصوصيته، ودمشق هي المفتاح، والمغرب العربي عالم ثالث وحده له خصوصيته، والرباط هي المفتاح، ووادي النيل (مصر والسودان) عالم رابع له خصوصيته، والقاهرة فيه هي المفتاح.

«وقد عادت هذه الفكرة تتردد أثناء أزمات جامعة الدول العربية المتكررة، ونوقشت مرة في مجلس الوزراء المصري سنة ١٩٦٢، وكان رأي جمال عبدالناصر، فيها «أنها محاولة لتقسيم الأمة، ولعزل مصر على وجه التحديد وإبطال دورها، فشبه الجزيرة العربية سوف يبتعد والهلال الخصيب أيضًا ـ والمغرب العربي سوف يلحقهما ـ والسودان سوف يجد نفسه بمشاكل الجنوب مشدودًا إلى شرق افريقيا ـ وهكذا فإن مصر حتى في المجموعة التي يراد تصنيفها فيها سوف تجد نفسها وسط عالم عربي تفرقت بينه السبل، وهي وحدها في قلبه وعليها بمفردها مواجهة اسرائيل!

«وبعد سنوات طويلة ـ إذا الفكرة تعود تطرح نفسها(يقصد إذا بالفكرة)، ثم يجري تقديمها للأمة العربية، وكأنها الاستجابة المطلوبة لدواعي التغيير المنشود، وكان الأمر في جوهره مختلفًا، فالعالم العربي الجائع إلى تفكير جديد لم يجد أمامه غير فكرة معلبة انتهت مدة صلاحيتها من سنين طويلة ـ وراح يمضغ ويبلع!».

ووجه العجب في هذا الكلام أنه يتناقض مع قوله بعد ذلك مباشرة: «ولقد ساعد على عودة الفكرة وفتح الطريق إلى تنفيذها حقيقة أن القاهرة كانت في ذلك الوقت غائبة عن مجال العمل العربي بمعناه الواسع» وقبل ذلك قوله في ص ١٦١: «فالقاهرة مثلاً كانت لا تزال بعيدة عن الجامعة العربية بعد اتفاقية كامب ديفيد!! ثم قوله في ص ١٦٦: «كانت مصر بعيدة بينما هي في العادة أهم محركات العمل العربي، إن لم تكن محركه الوحيد».

ينسى الأستاذ هيكل أو يتناسى أن خروج مصر من الجامعة العربية، ونقـل مقر الجامعة من القاهرة، لم يكن مجرد «أزمة» مرت بها جامعة الدول العربيـة، وأنها كانت أكبر مأزق تعـرضت له قبـل غزو العـراق للكويت، وأي تجمـع عربي، عـلى مستوى إقليمي أو غـير إقليمي كان أفضـل من «اللاشيء» الذي آلت إليه الجامعة العـربيـة بخـروج مصر، ولا وجه للمقـارنة بـين هذه الحـالة، وبـين تلك التي استشهـد فيهـا المؤلف بكلام عبدالناصر عن التجمعات الإقليمية، لقد كان عبدالنـاصر طبقًا للنص الـذي أورده عنه، يخشى أن تبقى مصر وحـدها في مـواجهة اسرائيـل! ولكن خـروج مصر من الجامعة العربية كان بسبب كونها الدولة العربية الـوحيدة التي تصـالحت مع اسرائيل! وشتان ما بين الحالين اللذين همـا على طـرفي نقيض، ولن أفيض في وصف النعرات الإقليمية التي اقترنت بتلك الحالة، من شك وتشكيك في عروبة مصر، حتى داخل مصر ذاتها!

ويمضي هيكـل في كلامـه المتناقض إلى حـد القول في ص ١٦٦ : «ولقـد بدأت سلسلة المجـالس الإقليمية بمجلس التعـاون الخليجي. ولم تكن في ذلـك غـرابـة ولا عجب، فـدول الخليـج كلهـا يضمهـا ربـاط واحـد أقـوى من أي ربـاط آخـر وهـو البترول». فإذا كان الأمر كذلك لديه ولم يكن فيه غرابة ولا عجب، وفي ظل ظـروف خروج مصر من الجامعة، فكيف يصف قيام هذه المجالس بأنه «عودة إلى فكرة معلبة انتهت مدة صلاحيتها»؟! إلا إذا كان هـو ـ أي هيكل ـ يحكم عـلى الموضـوع بأفكـار «محنـطة» وليست معلبة فحسب، محنـطة من أيام الستينـات الأولى، أيام كـانت مصر تقود النضال العربي ضد إسرائيل، وكان جمال عبدالنـاصر الذي يستشهـد بأقـواله في غير موضعها، يملأ الدنيا بصفته بطل العروبة، وصاحب فكرة التحـرر والوحـدة من الخليـج إلى المحيط، وشعار بـترول العرب للعـرب. . إلخ، أين ذلـك من أيام كـان خليفته السادات بعد توقيـع معاهـدة صلحه مـع اسرائيل، وقيـام الخلاف بينـه وبين سائر الدول العربية حول هذا الموضوع، واستعار المهاترات بين الطرفين، من العرب

من يتهمه ويتهم مصر معه بخيانة العروبة، وهو يرد على مهاجميه بوصفهم بأنهم أقزام؟! ألم يكن من حق هؤلاء «الأقزام» أن يبحثوا عن روابط تجمعهم، بعد هذا الزلزال العظيم الذي أصاب كيان الأمة في مجموعها، ومنها جامعتها المسماة جامعة الدول العربية؟!

ثم لننظر في تفاصيل المجالس التي قامت، لنرى أنه كانت هناك اختلافات واضحة بينها وبين مشاريع التجمع الإقليمي السابقة في الستينات والتي أفاض هيكل في وصفها، وسوف نجد التالي:

* مجلس التعاون الخليجي، لم يكن نظيراً لفكرة وحدة شبه الجزيرة العربية، بدليل أن اليمن لم تلحق به، وأنها وجدت مكانها بعد ذلك فيما سمي مجلس التعاون العربي مع مصر والأردن والعراق.

* لم يقم تجمع الهلال الخصيب المفروض فيه أن يضم العراق مع الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين، بل كانت الخصومة بين العراق وسوريا على أشدها، وحينما تشكلت مجالس التعاون بقيت سوريا وحدها دون تجمع يضمها مع أحد، هي ولبنان، ودعك من فلسطين في ظروف احتلالها بالكامل بعد حرب ١٩٦٧.

* في المشاريع القديمة التي يقيس عليها هيكل ربما كان مجلس الاتحاد المغاربي، هو الوحيد الذي قام على الصورة المتخيلة في الماضي.

* والتجمع الرابع وهو وادي النيل، المفروض أنه يضم مصر والسودان، فلم يقم هذا التجمع إلا في صورة لم يكتب لها الاستمرار باسم التكامل أيام السادات وجعفر نميري. وحينما قام مجلس التعاون العربي الذي يضم مصر، لم تلحق به السودان وإنما بقيت دون مجلس إقليمي مثلها في ذلك مثل سوريا ولبنان.

وعلى كلٍ فلم تكن هذه الفروق هي التي تعنينا، أو لها أهمية عندنا، وكلها لا

تقاس بالفارق الأكبر، وهو خروج مصر من الجامعة العربية بعد صلحها مع اسرائيل، فذلك هو الذي قلب الصورة كلها، وجعل أي تجمع عربي على أي مستوى أفضل من لاشيء، ولا يستحق تجريحًا من جانب الأستاذ هيكل على هذا النحو، فالتجمعات الإقليمية لم تكن تقسيمًا للأمة العربية كما ذكر في أول كلامه الذي أوردناه، فالأمة العربية كانت منقسمة بالفعل أشد الانقسام حينما بدأ تشكيل تلك التجمعات بدءًا من مجلس التعاون الخليجي.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن قيام مجلس التعاون العربي الذي ضم مصر وكلا من العراق والأردن واليمن، في عهد حسني مبارك بعد وفاة السادات، وفي ظل سياسة التهدئة والتقارب العربي التي اتبعها الرئيس المصري الحالي، كان هو المدخل إلى عودة مصر إلى صفوف الجامعة العربية بعد صدعها الطويل بغياب مصر، فكيف تستحق تلك المجالس كل تلك الزراية من جانب هيكل؟ ولعلي أشرت في حلقة سابقة إلى أنه بعد عودة مصر إلى الجامعة العربية، بدأت دراسات وأبحاث ومقترحات هامة تنهال من كل جانب تطالب بتطوير نظام جامعة الدول العربية وتعديل ميثاقها، وكان ذلك تعبيرًا عن صحوة المد القومي من جديد، في ظروف جديدة، لولا أن عصف به الغزو العراقي للكويت!

ومجلس التعاون العربي بالذات، كانت له فضائل أخرى خلاف كونه المدخل إلى عودة مصر إلى صفوف جامعة الدول العربية.

فهو لم يكن مجلسًا إقليميًا بالمعنى المفهوم، لأنه لا رابطة جغرافية بين مختلف مكوناته ولا تجاور إلا بين دولتين منه هما العراق والأردن، فكون هذا المجلس كان يضم إلى جوار هذين، كلا من مصر في افريقيا، واليمن في جنوب شبه الجزيرة العربية، كان يجعل لاسمه وهو «التعاون العربي» رنة صدق غير إقليمية وكان بهذه الصفة مرشحًا لأن يضم إليه دولاً أخرى، مثل سوريا ولبنان والسودان، و يمهد فى

خطوة تالية لمزيد من التعاون العربي الشامل لتوسطه بين مجلس التعاون الخليجي في الشرق، والاتحاد المغاربي في الغرب.

* * *

هذا، وقد أورد الأستاذ هيكل في هذا الفصل نصوصًا مطولة من ورقة العمل التي قام عليها مجلس التعاون العربي والمزايا التي يمكن أن تحصل عليها كل دولة من جرائه، ومن هذه المزايا بالنسبة للعراق البند الوارد في ص ١٧٤ ونصه: «(د) يمكن للعراق من خلال العمالة الزراعية المصرية الفائضة من النهوض بالقطاع الزراعي فيه، بما في ذلك استصلاح مساحات شاسعة من أرضه».

ولو أعمل هذا النص بشكل صحيح لكان له مردود كبير على العراق وعلى مصر وعلى العالم العربي في مجموعه.

ولقد كان من الخطايا الكبرى للنظام الحاكم في العراق إهمال الزراعة، اعتمادًا على ثروة العراق من النفط، إلى الحد الذي جعل العراق يستورد الحبوب من الولايات المتحدة الأمريكية قبل غزو الكويت رغم وفرة الأراضي الزراعية فيه، فالقمح قد أصبح ينظر إليه الآن في العالم باعتباره سلعة استراتيجية وسلاحًا لا يقل أهمية أو خطورة عن الأسلحة النووية، فالذي لا يملك غذاء شعبه لا يمكن أن يكون متمتعا بالاستقلال الكامل، والعكس صحيح، فالذي يملك أسباب إعاشة الآخرين يكون مهيأ للتدخل في شئونهم والتحكم فيهم!

إن استخدام العمالة المصرية في استصلاح أراضي العراق وزراعتها كان من شأنه أن يحل المشكلة الاقتصادية في كل من البلدين من ناحية، ويكفل لهما مزيدًا من الحرية الدولية من ناحية أخرى.

وربما لو نجح هذا المشروع، الذي طوى من بين كل ما طواه الغزو العراقي

للكويت، لكان العـراق في حالـة من اليسر لا تجعله يشكو مما ادعاه من أن الكـويت والإمـارات يتعمدان خنقـه اقتصاديًـا بتجاوز حصتهـا في إنتاج البـترول!!إن هـاتـين الدولتين لا تكادان تملكان موارد غير البترول، أما العراق فيملك الكثير، وفي مقدمته الأراضي الشـاسعة الصـالحة للزراعـة، وما كـان ينبغي له أن يجعـل الخـلاف حـول حصص البترول موضوعًا للنـزاع بينه وبـين جيرانـه من دول الخليج العـربية، وربمـا كانت في حاجة إلى زيادة إنتاجها لتعويض خسائرها المتمثلة في المساعدات التي قدمتها للعـراق في حربـه مع إيـران، فضلا عن أن يجعـل هذا الخـلاف تكأة أو ذريعـة لغزو الكويت!

ولكن النظام العراقي القائم على الطغيان وقع مع مصر وسـواها اتفـاقية مجلس التعاون العربي، وبدلاً من إعمال نصوصها، وفي مقدمتها النص المذكور، فقد راحت تنهال على مصر جثث العمال المصريين الذين يقتلون في العراق لأسباب غير مفهـومة، بعضها يقول أن سببها هو أن العراقيين العائدين من الجبهة بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية، وجدوا أن بعض المصريين قد استولوا على مصـادر رزقهم، وبعضها يقـول إن هؤلاء قد استولوا فيما استولوا عليه على زوجاتهم أيضًا! . . وهلم جرا، فضلاً عن مشكلة التأخر في دفـع رواتب العمال المصريـين العائـدين من العراق، والتي حـاولت الحكومة المصرية أن تحلها بشتى الطرق، وبأكـبر قدر من التسـاهل، وبـإرادة صادقـة لكي لا تعكـر هي ومسألـة الجثث، صفو العـلاقة بـين الدولتـين العضوين في مجلس التعاون العربي!

ولعلي أضيف هنا أن واحداً من أهم أسباب سخط الشعب المصري على الغزو العراقي للكويت، واستنكار الصحف المصرية عدم صدور بيان من الحكومة المصرية بإدانة هذا الغزو بمجرد وقوعه، كان من بين أسبابه، فضلا عن رفض مبدأ العدوان، على غرار ما فعل عبدالناصر عام ١٩٦١، حينما أرسل قواته إلى الكويت للدفـاع عنها ضد ادعاءات عبدالكريم قاسم، أن العمالة المصرية في الكـويت كانت كبـيرة، وكان

المصريـون يخشون أن يصيبهـا ما أصـاب العـمالـة المصريـة في العـراق، لـو أصبحت الكـويت جزءًا من العـراق كما ادعى بعـد ذلك صـدام حسين، وإن كـانت العـمالـة المصريـة في الكـويت لم تسلم من الأذى الـذي أصـاب كـل من سعى إلى الفـرار من جيوش الطاغية التي اجتاحت الكويت، سواء في متاعب الرحلة، وسـوء المعاملة عـبر العراق والأردن معًا (!) وضياع الأموال والممتلكات وفوق ذلك مورد الرزق!

وفي موضع سابق على ما تقدم من كتاب الأستاذ هيكل، يورد المؤلف بنداً آخر من بنود ورقة عمل مجلس التعاون العربي بالمزايا الاستراتيجية لهذا التجمع، ونصه في ص ١٧١ : «(د) سيكون الكيان المشرقي المقـترح قوة ردع هـائلة لإسرائيل»، ويعلق بعده الأستاذ هيكل بقوله: «كان هذا البند يحتوي على قدر كبير من التمني، حيث أن مصر كانت مرتبطة باتفـاقية سـلام مع اسرائيـل، كما أن الجبهـة الشرقية كـانت مختلة التوازن بسبب وجود سوريا خارج التجمع الشرقي المقترح».

هذا بالنسبة للأردن، أما بالنسبـة للمزايـا الاستراتيجيـة للعراق فيـورد المؤلف النص التالي في ص ١٧٤ : «(ز) سيجعل الكيان المقترح من العـراق دولة مـواجهة في الصراع العربي الإسرائيلي مما يعطيه دورًا أكبر في أي تسويات مستقبلية».

من مجموع البندين المذكورين نستنتج أن ورقة العمل المذكـورة كانت تضـع في اعتبارها عنصرين:

الأول منهما: أن تحول العراق إلى دولة مواجهة في الصراع العربي الإسرائيلي سوف يجعل من هذا الكيان قوة ردع هائلة لإسرائيل.

الثاني: أن تشكيل قوة الردع على هذا النحو لا يتناقض مع احتمالات التسـوية السلمية وبالتالي لا يتناقض مع كون مصر كانت مرتبطة باتفاقية سلام مع إسرائيل بل على العكس، فإن قوة الردع الهائلة قد تـدفع إسرائيـل إلى تسويـة مشرفة عـلى الجبهة

الشرقية، يتم بموجبها الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة على هذه الجبهة على غرار انسحابها الكامل من سيناء المصرية بحكم معاهدة السلام المعقودة بينهما.

والواقع أن مصر، حتى أيام كانت منهمكة في التفاوض مع إسرائيل، كانت تدعو إلى دعم الجبهة الشرقية قدر المستطاع لاسترداد الحق العربي الضائع هناك، إن سلمًا، وإن حربًا.

ولعل هيكل هو في مقدمة من يرددون أن الحرب والتفاوض هما وجهان لعملة واحدة تستهدف الوصول للغرض السياسي الواحد.

فلماذا يرى في دعم الجبهة الشرقية بالعراق، أيام كان في ذروة قوته العسكرية، ضربًا من التمني لا غير، ولماذا يرى أن ارتباط مصر بمعاهدة سلام مع إسرائيل يتنافى مع رغبتها في قيام قوة ردع هائلة لإسرائيل على الجبهة الشرقية؟

على العكس من ذلك تمامًا، إن مصر من مصلحتها أن تقوي هذه الجبهة، وكانت على استعداد لأن تقدم كل ما في وسعها من عون لتقوية هذه الجبهة ولو بشكل غير مباشر عن طريق تقديم ما لديها من خبرة في صنع السلاح أو التدريب.. إلخ لدول تلك الجبهة، بما في ذلك العراق، لو ظل على عهده الذي تضمنته إتفاقية التعاون المذكورة، ولم يعصف بكل تلك الأماني بالجريمة التي أقدم عليها حكامه حينما أقدموا على غزو الكويت.

إن تقوية الجبهة الشرقية يرفع عن مصر كثيرًا من الإصر، فهي لم تعقد معاهدة صلح مع إسرائيل إلا لأن ذلك كان هو الطريق الوحيد لاسترداد أرضها المحتلة، وربما كان ضعف الجبهة الشرقية آنذاك واحدًا من العوامل التي جعلت الأمور كذلك. وليس من مصلحة مصر أن تبقى الأراضي العربية محتلة في الجولان السورية، أو الضفة الغربية لنهر الأردن أو قطاع غزة أو جنوب لبنان، وليس من

مصلحتها، ولا مما يسعدها أن تبقى منفردة بالصلح مع إسرائيل، وإنما يريح بالها أن يتم هذا الصلح على جميع الجبهات العربية بشروط لا تقل عما رضيت هي به بالنسبة لأرضها المحتلة، وتفرح أيضًا ـ فيما أعتقد ـ لو تزيد!

أما بالنسبة لسوريا، فلو صدقت النوايا لدى جميع أطراف مجلس التعاون العربي، ولم تعصف به أهواء القيادة العراقية المأفونة في غزوها للكويت، فلقد كان من المحتمل مع وجود مصر أن تتم تسوية الخلافات بينها وبين العراق، على نحو يتيح استعادة توازن الجبهة ـ المفقودة لدى الأستاذ هيكل ـ وخاصة بعد عودة مصر إلى جامعة الدول العربية.

وحتى بدون إنضمام سوريا إلى ذلك التجمع الشرقي، فإن انضمام العراق إلى الأردن وحده على الجبهة الشرقية، كان مكسبًا لاشك فيه لتلك الجبهة، ولعلنا لا نوافق تمامًا على الصيغة التي كتب بها البند الذي أورده الأستاذ هيكل في ص ١٧٣ من ورقة العمل المذكورة ولكنه واضح الدلالة لهذا الخصوص ونصه كالتالي:

«إن امتداد الكيان المقترح من الخليج إلى الخليج (يقصد من الخليج العربي إلى خليج العقبة) يمكن أن يعزل سوريا برًا وجوًا عن باقي الوطن العربي، وعن آسيا وافريقيا إلا عن طريق البحر، مما سوف يفرض عليها التخلي عن سياسة العداء للعراق وربما يغريها بالاقتراب من هذا الكيان الشرقي، إن لم يكن الانضمام إليه».

ولكن شيئًا من كل ما تقدم لم يتحقق، على حد قول الأستاذ هيكل في ص ١٨٠ «ثم تعقدت الأمور عندما اقترح الأردن تكوين فيلق عربي مشترك ليكون للمجلس درع واحد، يحميه، واعتذرت مصر، ومضى العراق والأردن وحدهما إلى نوع من التنسيق العسكري وبالذات في مجال الدفاع الجوي!!

لقد قيل بعد غزو العراق للكويت، إن فكرة تكوين هذا الفيلق العربي، إنما

كانت لاستدراج مصر للاشتراك مع طغاة بغداد في عدوانهم على البلاد العربية الأخرى وخاصة دول الخليج، وقد يكون ذلك صحيحاً، وقد يكون اعتذار مصر سببه هو أن اشتراكها في هذا الفيلق قد تعتبره إسرائيل استفزازاً صريحاً لها ونقضاً لمعاهدة السلام بينها وبين مصر، وعلى كل حال فلم يكن في نية صدام حسين ولا حزب البعث العراقي أن يخوضوا حرباً حقيقية ضد إسرائيل، ودعك من حكاية صواريخ سكود التي لم تنطلق من العراق ضد إسرائيل إلا بعد أن شرعت الطائرات الأمريكية تقصف العراق لإجباره على سحب قواته من الكويت. . ولم تكد تلك الصواريخ تنال من إسرائيل، أو من قوتها العسكرية شيئًا، إن لم تكن قد أفادتها في الاستزادة من المعونات الأمريكية!

كانت نية هؤلاء الطغاة في بغداد متجهة أساسًا إلى الاستيلاء على الكويت، وربما تجاوزها إلى بلدان عربية أخرى، فلم يحصدوا إلا تدمير العراق ذاته، وتدمير قواته العسكرية وأدوات صنعها، مرورًا بكل ما عصفت به جرائم الطغاة من آمال الأمة المبتلاة بحكمهم ووجودهم بين ظهرانيها.

(٤)

وأفكار ساذجة عن اليهود!

ثم يمضي الأستاذ محمد حسنين هيكل، في تناقضه، بأن ينشيء الفصل الثامن من كتابه حرب الخليج، بعنون «وساوس إسرائيلية» ليرد فيه على بعض ما كتبه في الفصل السابق مباشرة بعنوان «التجديد بأفكار معلبة»، وهو الفصل الذي ناقشناه في الفصل السابق وبيّنا فيه أن الأستاذ هيكل قد عمد على غير أساس إلى الزراية على فكرة إنشاء مجالس تعاون إقليمية في الوطن العربي، بما فيها مجلس التعاون العربي الذي قام بين مصر والعراق والأردن واليمن، وانهار بالغزو العراقي للكويت، يقول الأستاذ هيكل في ص ١٨٣: «وعندما طرحت فكرة إنشاء فيلق عربي مشترك لدول مجلس التعاون العربي، أبدت إسرائيل قلقًا حقيقيًا، وعندما اعتذرت مصر عن الاشتراك في هذا الفيلق المقترح لم تسترح إسرائيل لأنها راحت ترصد المعلومات عن مضي العراق والأردن معًا في تنفيذ الفكرة ثنائياً»، ثم يمضي قائلا: «كانت إسرائيل قد رصدت تطور ونمو القوة العسكرية العراقية، كما تابعت قدراتها في المرحلة الأخيرة من العمليات على جبهة الحرب مع إيران، وعندما دخل العراق بالتعاون مع مصر إلى مجالات من التقدم التكنولوجي العسكري استمر حتى بعد تحقيق النصر على إيران اعتبرت إسرائيل من وجهة نظرها أن مجرد اشتراك العراق مع مصر ومع الأردن يمثل نوعًا من المزيج الخطر الذي تكمن فيه ـ ولو حتى بالرمز ـ احتمالات التهديد في يوم من الأيام»، وبعد ذلك بسطور يقول: إن إسرائيل كانت تتصور أنها تعرف الكثير عن العراق، ومع ذلك فقد ظلت لديها شكوك قوية في توجهاته!

١ ـ فالعراق لم يعقد اتفاقية هدنة مع إسرائيل، كما فعلت بقية الدول العربية.

٢ ـ والعراق لم يكن مضطرًا إلى ذلك، لأنه ليس على خطوط تماس مباشرة مع إسرائيل، ومعنى ذلك أن قوة إسرائيل لاتطوله مباشرة (كان من واجب الأستاذ هيكل أن يستثني هنا سلاح الجو الإسرائيلي الذي تمكن من تدمير المفاعل النووي العراقي في عام ١٩٨١م).

٣ ـ وهذا الوضع يعطي العراق حرية في ممارسة سياسة غير مقيدة في الصراع العربي الإسرائيلي، وهذا يسمح له بأن يكون طرفًا عنيفًا وفعالاً أكثر من غيره.

٤ ـ والعراق قوة عسكرية لا بأس بها، وتلك القوة من تقاليده، فهي لازمة للحفاظ على تماسكه، ثم إن الذين قاموا على بنائه في العصر الحديث وفي مقدمتهم نوري السعيد (باشا)، كانوا ضباطًا في الجيش العثماني.

٥ ـ والعراق دولة تملك ثروات هائلة في موارد البترول والمياه، ومعنى هذا أن قوته قوة اقتصادية ـ عسكرية.

٦ ـ والعراق في وضعه الجغرافي يستطيع أن يضغط على الأردن وعلى سوريا لمنعهما من أية تسويات ممكنة مع إسرائيل.

٧ ـ والعراق ـ أخيرًا ـ ولحقبتين متتاليتين ظل تحت حكم حزب البعث العربي الاشتراكي وهو حزب له أفكاره والتزاماته القومية، ومهما اختلفت الآراء حوله فإن الحزب له نواة صلبة، وله قاعدة يسعى إلى توسيعها، وله برنامج يريد تنفيذه ـ وهو في سبيل ذلك كله يواصل عملية تعبئة عقائدية وسياسية وجماهيرية لا يستطيع أحد أن يقدر سلفًا إلى أين تصل وإلى أي النتائج تؤدي؟».

وهذه الفقرة الأخيرة من كلام الأستاذ هيكل تستحق التوقف عندها، وخاصة بعد غزو العراق للكويت، وحرب الخليج التي أدت إلى انسحابه منها وتدمير القوة

العسكرية والبنية الأساسية للعراق، فأفكار حزب البعث العراقي والتزاماته القومية على حد تعبير الكاتب كانت محض هراء، فلم يكن لهذا الحزب هم سوى استمرار التربع على السلطة والرغبة الطائشة في التوسع الإقليمي على حساب جيرانه العرب وغير العرب، أما إلى أين تؤدي عملية «تعبئته» العقائدية والسياسية، فالنتائج واضحة بعد غزو الكويت وحرب الخليج، وهي باختصار: الانتحار القومي، على مستوى القطر العراقي، والأمة العربية على حد سواء!

يقول الأستاذ هيكل بعد ما تقدم في ص ١٨٤: «وإذن، فقد كان دخول العراق مع مصر والأردن واليمن الذي يمسك بالمداخل الجنوبية للبحر الأحمر - هاجسًا، ولم تكن إسرائيل قد نسيت أن بغداد كانت صاحبة الدعوة إلى مؤتمر القمة العربية الذي قاطع مصر بعد اتفاقيات كامب ديفيد (١٩٧٩م) كما أنها كانت مقرًا لهذا المؤتمر».

ويمضي الأستاذ هيكل بعد ذلك ليقرر أن إسرائيل في عام ١٩٨٨ كانت «تحتفل بمرور أربعين سنة على تأسيس الدولة وكان جو الاحتفالات تظلله مسحة قاتمة لم يكن لها في الحقيقة والواقع ما يبررها، فالدولة اليهودية كانت في درجات القوة، وكانت ترسانتها النووية معبأة بأكثر من مائتي قنبلة ذرية» إلى أن يقول: «ومع ذلك كله كان مزاجها حادًا، وأعصابها مستثارة» يضيف بعد ذلك: «كان هناك سبب واضح لهذه الحالة النفسية، وهو الانتفاضة، وهذه الانتفاضة أزعجت اسرائيل بالفعل»، إلى أن يقول: «ولكن الذي أزعجها فيها أكثر هو أن مئات الصحفيين الذين كانوا في المنطقة يغطون الحرب العراقية الإيرانية، ثم عمليات إنشاء مجالس التعاون الإقليمية المختلفة، أو قضايا البترول والمال في الخليج، أو عمليات التفجير والنسف والخطف في بيروت تركوا فجأة شواغلهم السابقة وأقبلوا بأقلامهم وعدساتهم يتابعون مأساة شعب أعزل يواجه قوة نووية بإلقاء الحجارة على قواتها في القدس، ونابلس، والخليل، وبيت لحم، وغزة، وغيرها» ثم يقول الكاتب بعد ذلك: «وبالطبع فإن

الانتفاضة كما شدت اهتمام العالم الخارجي، فعلت نفس الشيء إلى حد ما في العالم العربي، إن معظم دول العالم العربي حاولت إلى حد ما أن تتجاهل الانتفاضة خوفًا من تأثيراتها المحتملة على جماهير تلك الدول(!).

ونسأل الأستاذ هيكل: هل كان العراق أيضًا من بين تلك الدول التي خافت من تأثير الانتفاضة على جماهيرها؟ وأن من أسباب غزو حكام العراق للكويت هو الرغبة في إزالة هذا التأثير، ليس على جماهير العراق فحسب، بل على العالم كله، حيث سرق غزوهم للكويت الكاميرا ـ طبقًا للتعبير الفني ـ من الانتفاضة وغطى عليها تماماً، وجعل الناس ينسونها بالكلية ليرقبوا ما يدور في الخليج بغزو الكويت، وما أعقبه من تداعيات دولية؟!

إن خيانة حزب البعث العراقي لما سماه هيكل «الالتزامات القومية»، قد طالت فيما طالته قضية الشعب الفلسطيني، حيث طمس انتفاضة هذا الشعب بغزوه الإجرامي للكويت، وكان ذلك جزءًا لا يتجزأ من سياسته في الانتحار القومي!

* * *

على أنني لا أستطيع أن أترك هذا الفصل من كتاب الأستاذ هيكل «حرب الخليج» دون أن أعود إلى السطور الأولى من هذا الفصل، حيث يقول الأستاذ هيكل متفلسفاً في ص ١٨١: «فالبلد الذي كان العرب يتوهمون فيه القدرة (يقصد اسرائيل)، كان في داخله مصابًا بالوساوس، وعرضة في كثير من الأوقات لأزمات الشك في الذات، وتلك قضية مركبة، وهي متصلة بجذور التاريخ اليهودي نفسه، فاليهود منذ زمن التوراة يرون أنفسهم قبائل داخلة في صراع حياة أو موت مع قبائل أخرى، وقد استقر في وجدانهم أنهم دائمًا المحاصرون والمطاردون، وحتى عندما ذهبوا إلى التيه، فلقد حملوا معهم عقدهم الدفينة، وعندما وصلوا في ترحالهم إلى أوروبا، لم يكن في مقدور أي مناخ خارجي أن يمنحهم اليقين الذي فقدوه في الداخل،

وهكذا فإنهم حتى في ملاذهم الأوروبي كانوا هم الذين عزلوا أنفسهم بأكثر مما عزلهم الآخرون».

والواقع أنني لم أكن أتصور أن يكتب الأستاذ هيكل عن التاريخ اليهودي بهذا القدر من السذاجة، فهو يعلم على الأقل أن هناك صنفين من اليهود: السفارديم، والأشكنازيم، أما السفارديم فهم اليهود الشرقيون وهم الذين يحتمل أن يكون فيهم من كان أسلافه من بني إسرائيل، من زمن التوراة الذي يشير إليها الأستاذ هيكل وأنهم كانوا قبائل تحارب قبائل أخرى كما ذكر، وهم الذين وقع عليهم الغزو البابلي وتشتتوا في أنحاء الأرض، وإن كان الأمر لا يخلو من أن يكون من بينهم من ينتمون إلى سلالات أخرى غير السلالة الإسرائيلية واعتنق آباؤهم اليهودية.

أما اليهود الأشكنازيم وهم يهود أوروبا الشرقية والوسطى بصفة عامة من أول روسيا إلى ألمانيا، فلهم قصة أخرى، إنهم لم يصلوا بترحال اليهود إلى أوروبا كما ذهب الأستاذ هيكل، ولكنهم من بقايا دولة الخزر التي كانت تقوم على ضفاف الفولجا في منطقة القوقاز الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود (في جنوب روسيا حالياً)، وأحد هذين البحرين أو كلاهما يسمى أحياناً (بحر الخزر)، وكانت عاصمتهم هي مدينة إتل الواقعة عند مصب الفولجا، الذي كان يعرف باسم نهر إتل، في بحر قزوين، وهي المدينة التي حلت محلها الآن مدينة استراخان الروسية.

ولقد كان الخزر وثنيين إلى ما بعد ظهور المسيحية ثم الإسلام، وشرع كثير منهم في التحول إلى هاتين الديانتين، فخشي ملكهم المسمى «الخاقان بولان» أن يضيع ملكه بسبب تحول رعاياه إما إلى ديانة الدولة الإسلامية العباسية، أو بيزنطة المسيحية، وكان معاصرًا لكل من هارون الرشيد وشارلمان، وقرر أن يعطي شعبه ديانة سماوية محترمة ومتميزة في الوقت ذاته، عن عقيدة هاتين الدولتين، وقرر اعتناق اليهودية، ثم خلف من بعده خاقان آخر، تسمى باسم عبراني، وهو عبدية، الذي

يكتب أحيانًا أوبادية، طبقًا للنص الغربي (!)، فقرر ألا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق الديانة اليهودية، فتهود كل البلاط الملكي، وتبعتهم الغالبية العظمى من شعب الخزر في ذلك، طبقًا لقاعدة أن الناس على دين ملوكهم.

ولقد دام ملك الخزز أكثر من ثلاثة قرون، وتوسع حتى وصل إلى أواسط ألمانيا، وكان على علاقة طيبة مع بيزنطة المسيحية، حتى قام بعض أمراء فرغانة وجمعوا حولهم قبيلة كانت تعرف باسم «الرس» تعيش في مدينة كييف، عاصمة أوكرانيا حاليًا، وكانت ولاية أو «خاقانية» من ولايات الخزر، واعتنق هؤلاء المسيحية على المذهب الأرثوذكسي منذ حوالي ألف عام (احتفلت روسيا منذ حوالي عامين بهذه الذكرى!)، وحاربوا ملوك الخرز، وساندتهم بيزنطة في ذلك، حتى تمكنوا من إسقاط حكم الخزر، وهم الذين أعطوا تلك الأصقاع اسم روسيا، وخاصة بعد أن نجح أحد أمرائهم وهو إيفان الرهيب في إسقاط حكم التتر المسلمين في مدينة قازان عند منتصف الفولجا، وتسمى باسم القيصر، وبعد سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين، وزوال دولة بيزنطة، أعلن القياصرة الروس، أن حماية المسيحية الأرثوذكسية قد انتقلت إلى روسيا «المقدسة»، واتخذوا لأنفسهم شعار بيزنطة، وهو النسر ذو الرأسين!

وفي بداية القرن التاسع عشر، وظهور النزعة القومية في أوروبا بعد الحرب النابوليونية، شرع القياصرة الروس وأولهم نيقولا الأول، في تطبيق سياسة «الترويس» أي إجبار الشعوب التي تعيش في الامبراطورية الروسية، وكان نصفهم على الأقل من قوميات ومذاهب دينية مختلفة، على أن يصبحوا «روسًا»، يرتدون الملابس الروسية، ويتكلمون اللغة الروسية، ويدينون بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسي، وكان من ضحايا سياستهم تلك كل من التتر المسلمين، والخزر اليهود، وحتى المسيحيين الكاثوليك في أوكرانيا وبولندا.

ولقد نشأت الحركة الصهيونية أول ما نشأت في روسيا، بسبب اضطهاد القياصرة لأتباعهم من اليهود الخزر، فنشأت جمعيات أحبة صهيون عام ١٨٨١م، وامتدت الحركة لتشمل يهود شرق أوروبا بما فيها النمسا، موطن تيودور هرتزل الزعيم الصهيوني المعروف الذي حولها إلى حركة سياسية، وهي التي نجحت في الاستيلاء على فلسطين.

أما سبب تسمية هؤلاء باسم الإشكنازيم، فهو أن اليهود الشرقيين «السفارديم» في اسبانيا، حينما سمحوا باعتناق الخزر للديانة اليهودية، أطلقوا عليهم هذا الاسم، لأنه في عقيدة اليهود يسمى القوقاز «أرض أشكناز»، نسبة إلى أشكناز ابن جومر بن يافث بن نوح، وهذه التسمية بذاتها كافية لنفي نسبة هؤلاء اليهود إلى بني إسرائيل، الذين هم من سلالة عابر بن سام بن نوح!

ويمثل اليهود الأشكنازيم أكثر من ٩٠٪ من يهود العالم، فلقد كانت «دولتهم» اليهودية «خزريا»، أكبر بكثير من الدول اليهودية التي قامت في فلسطين قبل الغزو البابلي، وامتد عمرها أكثر من هذه بكثير، حتى الجالية اليهودية الضخمة في الولايات المتحدة الأمريكية، جاءت في معظمها من هؤلاء، بالهجرة اليهودية النشطة من روسيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهي التي يطلق عليها المؤرخون اليهود لفظة «الخروج» تشبهًا بخروج بني إسرائيل من مصر في القصة المذكورة المشهورة في التوراة والقرآن الكريم.

ومع أن هذه الحقائق معروفة تمامًا، وتذكرها كتب التاريخ اليهودي، بما في ذلك دائرة المعارف اليهودية، إلا أن الدعاية الصهيونية المعادية تحاول طمسها، وترويج الفكرة الساذجة التي رددها الأستاذ هيكل، والتي تصور اليهود، وكأنهم شعب واحد لحقه الشتات في أنحاء الأرض ولذلك يطالب بحقه في العودة إلى «وطنه فلسطين»، بينما الواقع أن المادة البشرية للحركة الصهيونية، بمن فيها حكام دولة

إسرائيل الحالية، التي هاجرت، وما تزال تهاجر حتى الآن من روسيا، وشرق أوروبا، إنما تترك أوطانها الأصلية، التي عاش فيها أسلافهم واعتنقوا اليهودية، ليغتصبوا أوطان الآخرين!

ومن العجيب عندي أن يكتب الأستاذ هيكل هذا الكلام، وكأن عينه لم تقع على مرجع واحد موثوق عن تاريخ اليهود، أو على القصة التي رويتها فيما تقدم عن اعتناق الخزر لليهودية منشورة في صحيفة أو مجلة عربية أو أوروبية، وهو الذي كان تاريخه الصحفي الطويل العريض، ينطوي بالضرورة على تعرض للقضية الفلسطينية وأصلها وفصلها، وأن جزءًا حيويًا من تلك القضية الطرح الأيديولوجي لها، فمنظمة التحرير الفلسطينية تنص في ميثاقها على أن اليهودية ديانة اعتنقتها شعوب متعددة أو أجزاء من تلك الشعوب، وتلك هي الحقيقة المؤكدة تاريخيًا، بينما تذهب الدعاية الصهيونية إلى ادعاء أن اليهودية قومية، وأن اليهود أمة واحدة مشتتة في أرجاء الأرض.

ماذا أقول بعد ذلك؟ سوى أن أردد كلمة عمر بن الخطاب: «تعلموا العلم قبل أن تسودوا»!

* * *

وإذا كانت تلك هي الحالة العلمية للأستاذ هيكل بالنسبة للتاريخ اليهودي و«جذوره»، على حد تعبيره، فلنا أن نتخيل هذه الحالة عند سواه من «السادة» في مصر، من أمثال المرحوم المشير عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة المصرية إبان حرب ١٩٦٧م، التي مكنت إسرائيل من احتلال سيناء وبقية أرض فلسطين والجولان السورية، وأن تلحق بالعرب أكبر هزيمة في تاريخهم مازلنا نعاني منها حتى الآن، لقد قيل إن من أسباب تلك الهزيمة أن بعض الأسلحة التي دمرتها القوات الإسرائيلية، أو استولت عليها سليمة من على أرض سيناء، والتي كان المشير عامر

يشتريها من مخازن السلاح السوفيتية التي فتحت أمامه، على طريقة «تسوق» السيدات لمشترياتهن من المعارض (!)، هذه الأسلحة بعضها لم يفكر أحد من الذين اشتروها في قراءة «الكتالوجات» الخاصة باستعمالها، فضلا عن التدرب عليها، استعدادًا للمعركة التي اشتريت من أجلها! كأن الأسلحة سوف تحارب بذاتها دون أيد تستخدمها! على أن أسباب هزيمة ١٩٦٧م المتعددة ليس هذا موضع تفصيلها.

ونعود إلى كتاب الأستاذ هيكل عن حرب الخليج، والفصل الذي كتبه بعنوان «وساوس إسرائيلية»، فنفهم منه تزايد القلق والعصبية في إسرائيل، بسبب الانتفاضة الفلسطينية من ناحية وتزايد القوة العسكرية للعراق وتقاربها مع الأردن ومصر واليمن من خلال مجلس التعاون العربي من ناحية أخرى، فضلا عن موضوع الهجرة اليهودية.

فبالنسبة للانتفاضة يقول الأستاذ هيكل في صفحة ١٨٦ : «كانت الانتفاضة الفلسطينية قد طرحت بطريقة ملحة على المجتمع الدولي ضرورة الاقتراب من القضية الفلسطينية»، وقبل ذلك بسطور كتب يقول: «كانت الولايات المتحدة الأمريكية، ترى أن الاتحاد السوفيتي يحزم حقائبه من المنطقة تأهبًا لرحيل كامل عنها، وخطر لها ـ ضمن ما خطر ـ أن الفرصة مهيأة لوضع المنطقة بأسرها، وجملة واحدة، داخل إطار أو أساس سلام أمريكي. وراحت سياسة الولايات المتحدة تتخذ لنفسها خطًا متعرجًا أثار قلق إسرائيل، وفاض القلق فتخطى موضوع الهجرة، وطرح نفسه على قضية التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط بأكملها»!

ونسأل الأستاذ هيكل: هل كانت المنطقة على وشك تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط، عصف بها الغزو العراقي للكويت؟ ونضيف إلى ذلك: إذا كان الأمر كذلك فلحساب من كانت تعمل الطغمة الحاكمة في العراق حينما أقدمت على هذا الغزو الفاجر؟!

ثم نعود إلى نصوص الأستاذ هيكل، وهي كثيرة متداخلة متشعبة، منها إشارته في الفقرة السابقة التي أوردناها، إلى موضوع الهجرة اليهودية، فهو يقرر في ص: ١٨٥، أنه بالرغم من التطورات الجارية في الاتحاد السوفيتي وأوروبا تعطي إسرائيل أملا كبيرًا في انفتاح أبواب الهجرة إليها على مصراعيها، «فإن يهود الاتحاد السوفيتي الذين كانوا يهاجرون منه، راحوا يفضلون الولايات المتحدة الأمريكية حلمًا ذهبيًا وفردوسًا موعودًا، إن إسرائيل نجحت في استصدار قانون من الكونجرس يمنع عمليًا يهود الاتحاد السوفيتي من الهجرة إلى الولايات المتحدة، ويفرض عليهم رغم إرادتهم وضد رغبتهم أن يتوجهوا إلى إسرائيل»، ومع ذلك يقول الأستاذ هيكل: «وكان ذهاب بعضهم فاتحة لنوع جديد من المشاكل تتصل بالتمويل وبفرص العمل والإسكان.. إلخ»، ولم يقل لنا الأستاذ هيكل، وإن كان حقنا أن نفهم من سائر كلامه، أن كلمة أحد الحاخامات القادمين من الاتحاد السوفيتي عن «أن الجنة ليست هنا»، لها علاقة وثيقة بسائر عناصر القلق الإسرائيلي الأخرى، وفي مقدمتها الانتفاضة وتزايد قوة العراق العسكرية بما فيها القوة النووية، يقول الأستاذ هيكل في ص ١٩٢: «كانت إسرائيل قد وجهت ضربة شديدة إلى المفاعل النووي العراقي (أوزيراك) سنة ١٩٨١م، ثم عرفت المخابرات الإسرائيلية أن العراقيين استطاعوا إنقاذ ١٢و٣ كيلوجرام من «اليورانيوم، ٢٣٥» والمخصبة بنسبة ٩٣٪، وفي ذلك الوقت ذكر تقرير للجنة القوات المسلحة في الكونجرس أن هذه الكمية من اليورانيوم المخصبة تكفي لصنع قنبلة ذرية واحدة إذا استطاع العراقيون الحصول على التكنولوجيا اللازمة».

وقبل ذلك يقول الأستاذ هيكل أن الملك حسين «قبل بوجود قواعد للصواريخ العراقية على حدود بلاده، لأن ذلك كان لازمًا لحماية الإمكانية النووية العراقية التي راحت تثير المخاوف الإسرائيلية في ذلك الوقت..».

وبعد ذلك يضيف الأستاذ هيكل إلى عوامل القلق الإسرائيلي عنصرًا آخر، حيث يقول في ص ١٩٤ : «ولقد كان مزعجًا لإسرائيل بعد ذلك كله، أن تكتشف أن حلمها الكبير في السلام مع مصر لم يحقق نتائجه، فالتطبيع يتعثر في العلاقات بين البلدين، والانبهار الذي ساد في المرحلة الأولى من الصلح المنفرد يبهت بريقه في مصر، وأكثر من ذلك فإن صوت الرصاص الموجه إلى الإسرائيليين يسمع في البلد العربي الوحيد الذي عقد معها صلحًا منفردًا، ولا يسمع في أي بلد عربي آخر»، ثم يروح الأستاذ هيكل بعد ذلك يروي بعض الحوادث عن جنود مصريين أطلقوا الرصاص على الإسرائيليين. .

ونسأل بعد ذلك: هل كان المسرح العربي مهيئًا لمواجهة عربية شاملة مع إسرائيل، تعيد الحقوق العربية حربًا أم سلمًا، أم مهيئًا بدلاً من ذلك لعدوان عربي على بلد عربي آخر، على نحو ما فعل صدام حسين وعصابته الحاكمة في بغداد بغزوهم للكويت، ليفسد كل شيء دفعة واحدة على الأمة العربية!!

(٥)

كوميديا تدعو للرثاء!

يبدو أن الأستاذ محمد حسنين هيكل لم يكتف بأن يعالج حرب الخليج معالجة درامية فحسب على طريقة التأليف المسرحي أو كتابة سيناريوهات الأفلام، كما ذكرت في الحلقة الأولى من هذه الفصول، بل قرر أيضاً أن يزيد قارئه استمتاعاً، وذلك عن طريق تجربة قلمه في كتابة «الكوميديا»، ولكنها جاءت مع الأسف الشديد ـ كوميديا تدعو للرثاء أكثر مما تثير الضحك.

وقد استغرقت تلك الكوميديا أقل من صفحة واحدة من الكتاب الضخم الذي ألفه الأستاذ هيكل عن حرب الخليج، ولكنها ـ والحق يقال ـ جاءت على قصرها مليئة بالمعاني والتصورات الهزلية التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ لحياة الأمم والشعوب، وتصوير ما يقوم بين الدول ـ كبيرها وصغيرها ـ من علاقات.

يقول الأستاذ هيكل في ص ٢٢٧ وما بعدها: «كانت الولايات المتحدة الأمريكية والعراق كلاهما ـ وبشكل مثير ـ في وضع قريب الشبه بالآخر في تلك اللحظة.

«كلاهما كانت لديه حرب طويلة: ٤٠ سنة من الحرب الباردة في حالة الولايات المتحدة، وثماني سنوات من الحرب الساخنة في حالة العراق مع إيران».

«وكلاهما كلفته الحرب غاليًا في موارده، فالولايات المتحدة أرادت إرهاق الاتحاد السوفيتي بسباق سلاح لا نهاية له، وقطع الاتحاد السوفيتي أنفاسه في محاولة

اللحاق ولم يلحق، لكن الولايات المتحدة هي الأخرى تحملت بعبء أثقل كاهلها، وراحت تطلب مشاركة فيه من قوى استفادت منه وازدهرت مثل ألمانيا واليابان.

«والعراق نفس الشيء إلى حد كبير، فقد بدأ الحرب مع إيران باحتياطي يصل إلى ٣٦ بليون دولار، وحصل على قروض ومساعدات من السعودية ودول الخليج زادت على عشرين بليون دولار، واستدان فوق هذا كله من الخارج بقرابة أربعين بليون دولار أخرى، لكنه في تقديره كان يحمي البوابة الشرقية للأمة العربية، وكانت كل دول الخليج تقر له بذلك، ولكن هذه الدول منذ بدأت حرب البترول سنة ١٩٧٣م، ثم سنة ١٩٨٠م جنت فوائد لم تخطر لأحد على بال، والعراق خارج من الحرب الطويلة ولديه خطة لتعويض ما فاته أو خسره».

«والولايات المتحدة وجدت عدوها في الحرب الباردة يخرج من الميدان فجأة، والعراق وجد عدوه في الحرب الساخنة يقبل وقف إطلاق النار بكلمة قصيرة حزينة من آية الله الخميني يقول فيها: إنه كان أهون عليه أن يتجرع كأسًا من السم ولا يقبل وقف إطلاق النار، لكنه الآن يقبل».

«والولايات المتحدة تشعر بعد الحرب بفراغ، وكذلك العراق».

«والولايات المتحدة تبحث عن عدو في عالم متغير، والعراق يبحث عن دور في منطقة ملأها الفراغ».

«وفي قاعة قصر المؤتمرات في عمان في شهر فبراير ١٩٩٠م، التقى الطرفان واحتك كل منهما بالآخر في الزحام، ولم يلتفت أحد، فقد بدا الاحتكاك عارضاً، والواقع أنه لم يكن عارضاً إلى هذا الحد».

إلى هنا ينتهي نص المسرحية الهزلية التي كتبها الأستاذ هيكل في كتابه «حرب الخليج»، وموطن الهزل فيه هو عقد مقارنة على هذا النحو ما بين الولايات المتحدة

الأمريكية والعراق، والحرب الباردة والساخنة لكل منهما على الترتيب، كأن هاتين الدولتين ـ على كل التفاوت بينهما في الحجم والظروف والقدرات ـ هما مجرد اثنين من الفتوات الذين يعرفهم أو كان يعرفهم إلى عهد قريب المجتمع القاهري في مصر، والذين أجاد تصويرهم واستخدامهم في كتابته الروائية، الكاتب المصري المشهور نجيب محفوظ، والعلاقة بينهما ـ أي بين أمريكا والعراق، هي من نوع ما ينشأ بين فتوتين من هذا الطراز.

وبخلاف التفاوت في الحجم والقوة ما بين أمريكا والعراق، كيف يمكن تشبيه الحرب الباردة وانتهائها بالحرب العراقية الإيرانية؟

إن التحول الذي حدث في الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي بصفة عامة، وانتهاء الحرب الباردة ترتيبًا على ذلك، هو واحد من أهم وأخطر التحولات الكبرى في تاريخ البشر، لا تقاس به، ولا يجوز أن تقاس حرب من النوع الذي نشبت بين دولتين من دول العالم الثالث، وهما إيران والعراق.

وذلك أمر يحتاج إلى أن نعرج عليه بقدر من التفصيل.

بادىء ذي بدء: كان التحول إلى الديمقراطية في الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي أمرًا متوقعًا بما يشبه التعبير الماركسي المشهور عن «الحتمية التاريخية»، توقع ذلك المفكر البريطاني «هارولد لاسكي» في كتابه «ثورة عصرنا الحاضر»، وذلك مبكراً جدًا في عام ١٩٤٣م، حيث كانت الثورة البلشفية في نظره ثورة من أجل تصنيع روسيا، وأن فترة القهر الستاليني فيها كانت أشبه بالعصر الحديدي الذي مرت به بريطانيا في عصر ثورتها الصناعية، وأنه بعد أن تستكمل روسيا أو الاتحاد السوفياتي مهمة التصنيع الشاقة وينتشر التعليم العام بين صفوف مواطنيها، فسوف تتحول إلى الديمقراطية، مثلها في ذلك مثل سائر الدول المتقدمة صناعيًا.

وقد أشرت إلى ما كتبه لاسكي وسواه عن هـذا الموضـوع في كتاب لي بعنـوان «الثورة الاشتراكية العالمية» صدر من القاهرة في عام ١٩٦١م، وبينت أن هذا التحول قد أصبح لا مفر منه بعد اعتراف خروشوف سكرتير عام الحزب الشيـوعي السوفيـاتي الأسبق، بفظائع عصر ستـالين، وذلـك في المؤتمر العشرين للحـزب المذكـور، الذي انعقد في عام ١٩٥٦م، وأن النظام الاشتراكي في العـالم لم يعد بحـاجة إلى مـا يسمى ديكتاتورية البيروليتاريا أو أي ديكتاتوريـة من أي نوع، بعـد أن قرر أصحـابه وعـلى رأسهم خروشوف في المؤتمر العشرين أنه قد أصبح نظامًا عالميًا لا يمكن قهـره. وبينت كذلك أن مؤدى انتصار الثورة الاشتراكية العالمية ليس معناه بالمرة أن يسود العالم نظام شبيه بالنظام السوفياتي، بل أن يتم الاعتراف على المستوى العالمي بأنه لابد من رعاية حقوق العمال والفلاحين ومختلف الطبقات الكادحة والمحرومة في مختلف المجتمعات، وأن الغرب الرأسمالي المتقدم، قد أصبح بالفعل في مأمن من الثورات الاشـتراكية من النـوع الذي كـان يهدده في القـرن التاسع عشر وبدايـات القرن العشرين، بعـد أن انتصرت فيه التيارات الإصلاحية واستـطاع العمال عن طـريق آليات الـديمقراطيـة، سواء في ذلك النقابات، أو الأحزاب العماليـة والاشتراكيـة الديمقـراطية، التي تصـل أحيانًا إلى الحكم في انتخـابات نيـابية حـرة، أن يحققوا مستـوى متقدمًـا من المعيشة، فضلاً عن التأمينات الصحية والتأمين ضد البطالة، وحق التعليم المجاني. . الخ مما لا يدع مجالاً لـديهم للتفكير في تغيير النظام الاجتماعي بالقـوة. وأن الثورة الاشـتراكية العـالمية بهـذا المعنى قـد انتصرت وانتهت، أي فنيت خـلال انتصـارهـا عـلى النحـو المذكور.

ولكن الذي حدث أن استجابة المجتمع السوفياتي لهذا التـطور الحتمي، كانت بـطيئة جـدًا، بحكم المصالـح التي توحـدت فيه لما يعرف بـاسم «المجمع الصنـاعي العسكري» الذي هو أساس «الطبقة الجديدة» المترابطة من خـلال تشكيلات الحـزب الشيوعي والبيروقراطية الحكومية، والتي كانت تتمتع بـامتيازات واسعـة، فضلاً عـما

تطوله أيديها من خلال الفساد، الذي لابد وأن يستشري في جـو الارهاب المصـاحب للنظم الاستبدادية على مختلف أنواعها.

كانت هذه الطبقة تخشى فقدان امتيازاتها لو سمحت للحريات الديمقراطية بأن تسـود مجتمعها، وظلت تـدافع عن مـواقعها التحكمية بـدعـوى الخـطر الخـارجي، والحاجة إلى توجيه الجهود الاقتصادية نحو صناعة السـلاح، والجهود السيـاسية نحـو اكتساب مزيد من النفوذ الخارجي، في مواجهة المعسكر الآخر الرأسـمالي الساعي إلى تدميرهـا من وجهة نـظرها، خـاصة وأن لهـا سوابق من هـذا النوع فيـما عرف بـاسم حروب التدخـل بعد الثـورة مباشرة، ومحـاولة هتلر القضـاء على الاتحـاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية.

وهكذا استمر انقسام العالم إلى معسكرين يخشى كل منهما الآخر، أحدهما يرفع راية الديمقراطية، والآخر راية الاشـتراكية، وأصبح سباق التسلح بينهـما يبدو وكـأنه ظاهرة عادية، في الوقت الذي كان يمثل فيـه نزيفـاً حادًا لأهم قـوى الإنتاج في العـالم وموارده، وكان من طبيعـة الأمور أن يكسب الغرب الرأسـمالي، وخاصـة الولايـات المتحدة الأمريكيـة هذا السبـاق بحكم الموارد الهـائلة التي يملكها من نـاحية، ودرجـة التقدم الصناعي والعلمي والتكنولوجي الذي تحقق فيه، بل إن فلاسفـة الاشتراكيـة الأوائـل، وعلى رأسهم كـارل ماركس كـانوا يعتـبرون أن وصول التـطور الـرأسـمالي الصنـاعي إلى أقصى غـايـاتـه، «واحتبال جميـع البلدان في شبكـة السـوق العـالمي للرأسمالية» عـلى حد تعبـير ماركس ضرورة أولى لكي يبـدأ التحول إلى الاشـتراكية، وعلى ذلك فقد كانت اشـتراكية لينـين التي بدأت في روسيـا بالثـورة البلشفية في عـام ١٩١٧م، بمثابة جملة اعتراضية لمجرى التطور التاريخي كما تصوره الفكر الاشـتراكي، والماركسي بصفة خـاصة، لأن روسيـا كانت بلدًا متخلفًـا صناعيًـا بالقيـاس إلى دول الغرب المتقدمة، فلم تستطع الاشتراكية فيهـا أن تحقق تقدمًـا يفوق الـرأسماليـة حتى

بالنسبة لمستوى معيشة الطبقات العاملة فيها، فضلاً عن اختفاء الديمقراطية التي هي حق مكتسب للجماهير الشعبية يأتي قبل العدالة الاجتماعية في ترتيب ظهوره التاريخي، ولا يتصور أن تقوم هذه العدالة بشكل صحيح عن طريق العصف به وفرضِ صنوف جديدة من الاستبداد.

حتى كان عهد جورباتشوف الذي بدأ سياسة «البريسترويكا» في عام ١٩٨٥م، وبدأ بإطلاق الحريات الديمقراطية داخل الاتحاد السوفيتي، كما كف عن التدخل في الشئون الداخلية لدول شرق أوروبا، وعمل على سحب القوات السوفيتية من أفغانستان، ولكن موجة التحول العارمة التي أطلقتها بريستورويكا جورباتشوف لم تقف عند حد إقرار الديمقراطية في المعسكر الاشتراكي، بل كنست معها إلى حد كبير هياكل الاشتراكية ذاتها، ورغم المعاناة الهائلة التي تشعر بها شعوب المعسكر الاشتراكي السابق في التحول إلى اقتصاديات السوق، فإن راية هذا التحول لا تزال مرفوعة حتى الآن أملاً في الوصول عن طريقها إلى تحقيق تقدم مماثل لما تحقق في الغرب الرأسمالي وخاصة بعد الثورة التكنولوجية، وإن كان النجاح في الوصول إلى هذا الغرض يتوقف إلى حد كبير على مقدار المعونات المالية والفنية التي يمكن أن يقدمها الغرب إلى دول ذلك المعسكر، والتي يعرقلها، وخاصة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، أعباء سباق التسلح الماضية، التي جعلت المجتمع الأمريكي ذاته يعاني من صعوبات اقتصادية جمة، في مقدمتها ضخامة الدين العام للحكومة الإتحادية، والعجز الهائل في ميزانها التجاري، وكانت تلك الصعوبات وراء المشاكل الاجتماعية التي تفجرت مؤخرًا في صورة اضطرابات عرقية في مدينة لوس أنجلوس وغيرها من المدن الأمريكية.

ولعل هذه الأحداث الأخيرة تدل على أن الموضوع لم يكن مباراة بين الاتحاد السوفيتي (السابق) والولايات المتحدة الأمريكية أيهما يكسب؟ وإنما هي تداعيات وضع تاريخي شديد التعقيد والخطورة. وكان لابد أن تفيق البشرية على حقيقة أن

انقسام العالم إلى معسكرين، يسودهما سباق لا نهاية له حول تطوير السلاح وإنتاجه هو أسوأ «نظام» يمكن أن يعيش فيه الجنس البشري، وأنه يفوق في مساوئه أياً من مساوىء النظام الرأسمالي أو النظام الاشتراكي. وأنه مع الإقرار بأن اقتصاد السوق هو الأكثر كفاءة حتى الآن في تحقيق التقدم الاقتصادي، إلا أن ذلك ليس هو الحقيقة الوحيدة أو المطلقة بالنسبة للجنس الإنساني، فهناك مشكلة البيئة وتلوثها الناتج عن التوسع الصناعي، إنتاجاً واستهلاكاً بصورة عشوائية، وخطورة نقص الموارد وانقراض بعض الأنواع النباتية والحيوانية.. إلخ، ذلك النوع من المشاكل الذي انعقدت من أجله «قمة الأرض» في ريو دي جانيرو في شهر يونيو من العام الحالي، والذي ينتظر أن يكون فاتحة لجهد إنساني مطرد منظم من أجل مواجهة مشاكل الوجود الإنساني على الأرض بصفة عامة، عن طريق التعاون والتكاتف، بدلاً من المواجهة وشحذ الأسلحة استعدادًا لصراع مدمر.

الولايات المتحدة الأمريكية، بالأحرى مفكروها وساستها يدركون طبيعة هذا الوضع، وأن المشاكل التي تنتظرهم من خلال قيادة «النظام العالمي الجديد»، باعتبارهم القوة الأولى أو القائدة فيه لا تقل فداحة عن مشاكل أيام الحرب الباردة. واختفاء الاتحاد السوفيتي كقوة عالمية مناوئة للولايات المتحدة الأمريكية أو منافسة لها لا يعني أن تكف هذه الأخيرة عن تحمل همه! ويكفي في ذلك أن تجد نفسها مضطرة إلى تحمل عبء مساندته في التحول الناجح إلى اقتصاد السوق، والاندماج في الاقتصاد العالمي، قبل أن يؤدي الفشل في ذلك إلى أخطار جمة قد لا يكون في مقدور الحكومة الأمريكية أو أية قوة أخرى في العالم السيطرة عليها، وفي مقدمة ذلك أن يتحول الاتحاد السوفيتي السابق إلى سوق مفتوحة لبيع الأسلحة أو التكنولوجيا النووية لكل من هب ودب ويستطيع دفع الثمن من دول العالم الصغرى أو المتوسطة!

* * *

أين هذا ـ ونعود إلى صديقنا «الأستاذ هيكل» ـ من انتصار العراق المزعوم على إيران؟!، هل اختفت إيران من على الخارطة السياسية كما اختفى الاتحاد السوفيتي؟ ومن الناحية المقابلة: هل أصبح العراق يعول هم إيران على النحو الذي تعول به الولايات المتحدة هم عدوها السابق كما تقدم ذكره؟ أم أن المقارنة ما بين الانتصار الأمريكي في الحرب الباردة، والانتصار العراقي المزعوم ـ الذي تم التخلي عنه تمامًا بعد الغزو العراقي للكويت ـ هو هزل محض، لا يدخل بالمرة في باب المعالجة الجادة لقضايا التاريخ المعاصر؟!

ولكن لماذا أدخل الأستاذ هيكل نفسه هذا المدخل الوعر، وسطا على أسلوب نجيب محفوظ الروائي في تصوير ملامح «الفتوات» في الحارات، واستعارته وتحميله بمعايير من الصراعات البشرية الأخرى؟ هل يطمع مثله في الحصول على جائزة نوبل؟ لقد حصل محفوظ على تلك الجائزة لأصالة أدبه من ناحية، ولأسباب أخرى ربما ليس هنا موضع البحث عنها، ولكن هيهات أن يحصل عليها هيكل بمحاولة فجة لمحاكاته!

لقد ركب الأستاذ هيكل هذا المركب الوعر وأنشأ مسرحيته الهزلية في المقارنة ما بين أمريكا والعراق (!)، لكي ينشيء بعد ذلك مباشرة فصلاً بأكمله بعنوان «على طريق تصادم محقق». . تصادم بين «الفتوتين» بوش، وصدام حسين، طبقًا للصورة التي اجتهد الأستاذ هيكل في رسمها لحرب الخليج، وقبل أن نتطرق لمناقشة ما جاء في هذا الفصل، نتوقف عند العنوان، ونسأل. . هل كان التصادم محققًا بالفعل، أو بعبارة أخرى، محتمًا، بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية؟ أو بين جورج بوش وصدام حسين، لو لم يقدم هذا الأخير وأعوانه من الطغمة الحاكمة في بغداد على غزو الكويت؟

ونرجع إلى بقية عناصر الصورة التي رسمها الأستاذ هيكل في مقارنة غير معقولة ما بين أمريكا والعراق، كما أوردناها في أول هذه الحلقة، لنجده يقول: إن

«العراق في تقديره كان يحمي البوابة الشرقية للأمـة العربيـة» بحربـه مع إيـران، وقد سبق لنا في حلقة سابقة أن أوردنا اعتراف صدام حسين بأنها كانت فتنة ما بين العراق وإيران، فلماذا يعود الأستاذ هيكل لتكـرار الدعـوى التي ساقهـا صدام حسـين، أيام ورط العراق، وإلى حد ما غيره من أقطار الأمة العربية في تلك الحـرب العبثية، والتي استـدر بها معـونات هـائلة ذهبت هبـاء كلهـا. هي والتضحيـات البشريـة والماديـة الأخـرى، حينما انسحب من نصره المـزعـوم عـلى إيـران، بعـد أن أقـدم عـلى غـزو الكويت؟

وأعود إلى عنصر المقارنة مع النصر الأمريكي في الحرب الباردة كما اختار هيكل أن يصوره. . لقد قلت من قبل إنه إذا كـان الاتحاد السـوفيتي قد اختفى من الخـارطة ولم يعـد يمثل تهـديدًا مبـاشرًا للولايات المتحـدة الأمريكيـة، فـإن إيـران لم تختف من الخـارطة مثلهـم، بـل إن إنسحاب العـراق من الجزء الـذي احتله من أراضيها بعـد إقدام حكامه على غزو الكويت، إنما يدل على أن إيران ما تزال قـوة ترهبهـا العراق، وقد سعت إلى كسب ودها أو اتقـاء شرها بهـذا الانسحاب، الـذي إن كان لابـد من تشبيهه بما يدور على المسرح الدولي ما بـين القوتـين العظميـين، فأشبـه به انسحـاب «الاتحاد السوفيتي» من شرق أوروبا وخاصة ألمانيا الشرقية (سـابقًا) وأفغـانستان! فـلا وجه إذًا للمقارنة، أليس كذلك يا أستاذ هيكل؟!

ربما يكون العنصر الـوحيد في «كـوميديـا» الأستاذ هيكـل، الذي فيـه ظل من التصـوير الـواقعي، هو قـوله في إحـدى فقـرات النص الـذي أوردنـاه نقـلاً عن أن «العراق خارج من الحرب الطويلة ولديه خطة لتعويض ما فاته أو خسره».

ومفهـوم هذا العبـارة، على ضـوء ما حـدث هو أن حكـام العراق قـرروا غزو الكويت والاستيلاء عليها وعلى مواردها النفطية وأن تلك كانت خطتهم لتعويض «ما فاتهم» من أرباح البترول أيام ارتفاع أسعاره التي أشـار إليها الأستـاذ هيكل في عبـارة

أخرى من النص ذاته، وهي قوله: «هذه الدول (أي دول الخليج) منذ بـدأت حرب البترول سنة ١٩٧٣م ثم سنة ١٩٨٥م جنت فوائد لم تخطر لأحد على بال. . »، أما مـا خسروه فهو في الحرب التي شنوها على غير طائل على جارتهم إيران. . .

إن كان الأمر كذلك، فالحقيقة واضحـة وضوح الشمس، لا داعي فيهـا للف أو دوران، أو تأليف المسرحيات الدرامية أو الهـزلية. . حكـام العراق بعـد أن لم تعد عليهم الحرب مع إيـران إلا بخسارة، قـرروا أن يعوضـوا خسارتهم بـالاستيلاء عـلى الكويت. . هكذا بكـل بساطـة، وليس أوقع من هـذا الاعتراف من جـانب الأستاذ هيكل على حكام بغداد، الذي سخر كتابه الضخم لالتماس الأعذار لهم فيـما أقدمـوا عليه!

وهذا الاعتراف يكفي لنقض كل الأعذار والحجج، التي ساقها حكام العـراق أيـام أقدمـوا على فعلتهم النكـراء، كل الحـديث عن خلاف الحـدود مـع الكـويت، وزيادة الإنتاج عن إنتاج النفط. . إلخ. كل ذلك كـان مجرد دعـاوى فارغـة لتسويـغ إقـدامهم على غـزو الكـويت طمعًـا ـ عـلى حـد قـول الأستـاذ هيكـل ـ في تعـويض خسارتهم!

كيف يكون حق الشعوب في الأمن رهنًا بأغراض خسيسة من هذا النوع الذي كان يضمره حكام العراق، وخاصة إذا كانت شعوبًا «شقيقة»، وأخص من ذلـك إذا كانت قد عاونته على احتمال المحنـة التي ورط نفسه فيهـا طاغيـة العراق بشنـه الحرب على إيران؟

وأظن أن ذلك لا يدخل في باب التصادم المحقق مع أمريكا كما يذهب الأستاذ هيكل، بل لعل صدام والـطغمة الحـاكمة في العـراق قد تـوهموا أنهم قـد يفلتون من الصدام مع أمريكا، وفي أيديهم غنيمتهم أو جائزتهم الكبرى وهي احتلال الكويت،

كنوع من المكافأة لهم على كبح جماح الثورة الإسلامية في إيران، وتهديدها المحتمل للمصالح الأمريكية والغربية عمومًا في المنطقة.

وعلى أي وجه قلبت الأمر من واقع كلام الأستاذ هيكل في كتابه «حرب الخليج» فلن تجد بيانا شافيًا في شأن تلك الحرب، لأن الحقيقة لم تكن أبدًا هدف كاتبه من تأليفه، بل تجد نفسك بين كل فصل وآخر أمام مشاهد من الأكروبات اللفظية لا أكثر ولا أقل.

ولعلنا لو عدنا إلى حاجة العراق الحقيقية إلى تعويض خسارتهم في الحرب العراقية الإيرانية، لكان ذلك عن طريق تنمية موارده الزراعية التي أهملت، كما ذكرت في فصل سابق، والتي كان من أهداف إقامة مجلس التعاون العربي أن يعمل المصريون في إصلاح الأراضي الزراعية العراقية الشاسعة وزراعتها بما يعود بالفائدة على القطرين الشقيقين وعلى الأمة العربية في مجموعها.

ولكن الطغاة من حكام العراق تنكبوا هذا الطريق السديد، وسولت لهم أنفسهم عملهم الإجرامي بغزو الكويت، فلم يحصدوا لبلدهم ولأمتهم إلا البوار.

(٦)

وجه كلماته إلى اسرائيل . . ومدافعه الى الكويت!

نمضي مع الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه حرب الخليج لنقرأ الفصل الذي ناقشنا عنوانه في الفصل السابق، وهو الفصل الحادي عشر بعنوان «على طريق تصادم محقق»، لنرى عجبا فيما حاول الأستاذ هيكل اثباته من أن التصادم كان محققا، أو محتما، ما بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق، باعتبار أن كلا منهما «فتوة»، خرج منتصرا في «حارته»! الولايات المتحدة انتصرت في «حارة» الصراع الدولي مع الاتحاد السوفيتي (السابق) والمعسكر الاشتراكي، والعراق انتصر في «حارة» حربه مع إيران، وكلاهما يعاني من الفراغ، أو على حد قول الأستاذ هيكل في ص ٢٢٨: «الولايات المتحدة تشعر بعد الحرب بفراغ، وكذلك العراق» «الولايات المتحدة تبحث عن عدو في عالم يتغير، والعراق يبحث عن دور في «منطقة ملأها الفراغ».

. . وأنه لم يكن أمام «الفتوتين» لشغل فراغهما سوى الاحتكاك بينهما! يقول الأستاذ هيكل في بداية الفصل المذكور ص ٢٢٩: «لم يكن الاحتكاك الذي شهده قصر المؤتمرات في عمان عارضا وسط الزحام ولا كان مفاجئا. ولعله كان أقرب ما يكون إلى نقلة ظاهرة وعنيفة في لعبة كبيرة ومتشعبة، قليل منها واضح للعيان، وكثير منها غاطس تحت السطح »ثم يضيف بعد ذلك مباشرة قوله: «إن العلاقات بين واشنطن وبغداد كانت دائما ضرورية وإن سادها القلق في فترات عديدة وكانت متشابكة بالود أو العداء. فالعلاقات بين البلدين موصولة بقضايا حيوية، منها:

الصراع على الشرق الأوسط ـ والصراع على البترول ـ والصراع مع الاتحاد السوفيتي».

«وكانت للولايات المتحدة علاقات وثيقة مع النظام الملكي في بغداد قبل ثورة ١٩٥٨م، قبلها كان العراق عضوا في حلف بغداد، بل وكانت بغداد هي عاصمة العراق وعاصمة الحلف في الوقت نفسه».

«وبعد ثورة ١٩٥٨م لم تسمح الولايات المتحدة لنفسها بأن تعزل عما هو جار في بغداد».

على هذا المنوال يمضي الأستاذ هيكل في سرد العلاقة بين واشنطن وبغداد، عبر مرحلة تاريخية تزيد على ثلاثين عاما، تخللها وصول صدام حسين إلى قمة السلطة في العراق سنة ١٩٧٩م لتشتعل مباشرة في عام ١٩٨٠م الحرب مع إيران، يقول هيكل في ص٢٣٣: «وفي ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠م، قامت الحرب بين العراق وإيران (وكانت واشنطن تتابع أيضا، ولعل دورها أصبح أكثر من مجرد المتابعة لأن الحرب كانت بالنسبة لها فرصة لاتعوض)».

نتساءل في هذا الموضوع: هل كانت هناك علاقة بين وصول صدام حسين الى رئاسة الجمهورية العراقية، ونشوب الحرب مع إيران، تلك الحرب التي اعتبرناها في حلقة سابقة، بداية سياسة الانتحار القومي التي نفذها حزب البعث بزعامة صدام حسين؟ إن الاستاذ هيكل لم يقدم لنا بيانا شافيا في ذلك، ولكنه يقول بعدما تقدم:

«كان التصور العراقي لمسار الحرب مع إيران متأثراً إلى حد كبير بسوابق حروب جرت من قبل في المنطقة وخارجها، فالقتال في العادة يستمر لأسبوعين أو ثلاثة، أو شهر على أكثر تقدير، ثم يعقبه قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، ودعوة الطرفين إلى التفاوض تحت إشراف دولي مناسب لحل أسباب النزاع بينهما». .
إلى أن يقول: «لكن مجلس الامن تحرك على مهل وبطء شديد على غير عادته عندما

تقوم أي حرب في أي بقعة في العالم، فضلا عن أن تكون هذه البقعة في الشرق الأوسط بالذات، ومناطق البترول فيه بالتحديد».

«وراح العراق وغير العراق يتساءلون عن الأسباب الداعية إلى مسلك مخالف تماما لكل ما سبق في الصراعات المسلحة، وكانت الإجابات دائما مبهمة تتذرع بالرفض الإيراني وبالعناد الشخصي «لآية الله الخوميني» وبدأت الوساوس تراود العراق وغير العراق، فقد ثارت ظنون بأن هناك خطة خفية تقصد إطالة أمد الحرب إلى أقصى حد ممكن (ولم تكن هذه الظنون بعيدة عن الحقيقة كما أظهرت الوقائع فيما بعد)».

«ولم يكن لدى العراق ما يفعله مهما بلغت ظنونه ـ سوى أن يواصل الحرب وأن يحاول كسبها».

ولا أدري لماذا لم يحاول الأستاذ هيكل في هذا الموضوع استخدام التعبير المفضل لديه في وصف مسلك الحكومة العراقية، من أنها وقعت في «خطأ في الحسابات..»؟! مع أن كلامه يدل على وجود هذا الخطأ الفادح حينما تصور حكام العراق أن مجلس الأمن سوف يوقف الحرب بعد أسابيع معدودة! مع أن العراق هو الذي بدأ الحرب، وحاولت جيوشه كما يقرر الأستاذ هيكل الاستيلاء على إقليم خوزستان بأسرع مايمكن قبل أن يصدر مجلس الأمن قراره.. الذي تأخر كثيرا!

هل خشي الأستاذ هيكل، إن هو وصم الحكومة العراقية بأنها في كل مرة كانت تخطىء في الحسابات، سواء في حربها مع إيران، أو غزوها للكويت (رغم إعتراضنا على حكاية الخطأ في الحسابات هذه في موضوع غزو الكويت).. أقول هل خشي أن يفعل ذلك لأن الحكومة التي تورط شعبها في حربين متتاليتين مهلكتين «ولو عن طريق الخطأ في الحسابات» لا تستحق وصفا أقل من الاجرام في حق شعبها على الأقل، ولاتدع فرصة أو سبيلا للمدافعين أو المعتذرين عنها من أمثال الأستاذ هيكل؟!

يقول الأستاذ هيكل في ص ٢٣٣ :

«ودخل العراق إلى كل أسواق السلاح في العالم مشتريا، وتوقف الاتحاد السوفيتي عن الوفاء بصفقات عقدها مع العراق، وبرر موقفه بأن العراق هو الذي بدأ الحرب، وركز العراق على أسواق الغرب، ولم يكن يشتري السلاح فقط، ولهذا راح يشتري مصانع السلاح. ولم تقتصر مشترياته على السلاح ومصانع السلاح التقليدي وانما خطا خطوة أبعد في مجالات السلاح المتطور تكنولوجيا» . . إلى أن يقول:

«ولعل هذه الدول الكبرى في الغرب لم تكن تمانع كثيرا في مشتريات السلاح، فقد كانت هذه الصفقات إلى جانب فوائدها المالية كفيلة بتحقيق استمرار أمد الحرب».

«والغريب أنه بمقدار ما كان العراقيون سعداء بهذه الفرصة لبناء قوتهم العسكرية فان تساؤلاتهم عن طول أمد الحرب ومتى تجيء نهايتها؟ وكيف؟ راحت تلح عليهم بشكوك لاتهدأ».

«كان نزيف الحرب في الدم غاليا، وكان نزيف الحرب في المال مرهقا».

ثم ينتقل الأستاذ بعد ذلك إلى القول:

«كانت وقائع فضيحة ايران ـ كونترا» قد تركت اثرا عميقا على التفكير الرسمي العراقي، وقد اعتبرت دليلا حاسما على وجود مؤامرة تستهدف العراق تشترك فيها كل من الولايات المتحدة واسرائيل وبريطانيا».

وإذا صح هذا الكلام في مجمله فمعناه أن العراق وإيران كلاهما كان ألعوبة في يد دول الغرب التي تبيع السلاح لكلا الطرفين. . ولم يكن على حكام العراق أن يلوموا أحدا استثمر حماقتهم في بدء تلك الحرب المهلكة.

وبعد انتهاء الحرب يقول هيكل في ص ٢٣٥ :

«في أكتوبر ١٩٨٩ توجه السيد طارق عزيز نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية العراقي إلى واشنطن والتقى مع جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي. ثم التقى والرئيس جورج بوش نفسه، ودار حوار صريح بين الطرفين، ويبدو أن الزيارة كانت ناجحة، فإن الرئيس الأمريكي بعدها أصدر توجيها داخليا يطلب فيه الى إدارته أن تحرص على تنمية علاقات طبيعية مع العراق، قائلا فيه: «إن ذلك قد يساعد على تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط» ثم عاد الرئيس بوش بعد ذلك فأصدر أمرا رئاسيا في ١٦ يناير ١٩٩٠ جاء فيه: «إن زيادة حجم التجارة مع العراق يمكن أن تكون مفيدة للمصالح الأمريكية» وكان بوش محقا، ففي تلك الفترة في أواخر سنة ١٩٨٩م وأوائل ١٩٩٠م كانت الشركات الأمريكية قد حصلت على عقود مغرية مع العراق..

ثم يقول في صفحة ٢٣٦ :

«وأكثر من ذلك. فإن العراق في أكتوبر ١٩٨٩م خطا من جانبه خطوات اعتبرت ايجابية في تقدير السياسة الأمريكية، منذ أوقف معوناته العسكرية للواء ميشيل عون في لبنان، واشترك في مؤتمرين لنزع السلاح في جنيف، أحدهما مخصص لنزع الأسلحة الكيماوية حضره العراق كمراقب. وكذلك اتخذ العراق موقفا بدا مرناً في محاولات الوصول إلى تسوية الصراع العربي الاسرائيلي إذ أعلن أنه يترك لدول المواجهة مثل مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ـ حرية الحركة في هذه المحاولات».

وفجأة ينقلنا الأستاذ هيكل إلى وجه آخر من الصورة في العلاقات العراقية الأمريكية، إذ يقول بعد ماتقدم مباشرة:

«ولم يقدر لشهر العسل المنتظر أن يدوم طويلا، ذلك لأن هناك عناصر كثيرة في الولايات المتحدة لها أغراض متباينة ولها سياسات مختلفة، وهي قادرة سواء في الكونجرس أو وسائل الإعلام على التأثير على توجهات الرأي العام، وفي مجريات الحوادث، ويبدو على نحو أو آخر أن هناك جهات نافذة في الولايات المتحدة يناسبها على نحو ما أن تبحث عن «وحش أسود» في الشرق الأوسط تركز عليه حملاتها بحق أو بغير حق».

«كانت الحملات في يوم من الأيام مركزة على آية الله الخميني، ثم انتقل التركيز إلى العقيد معمر القذافي، ثم انتقل مرة ثالثة إلى الرئيس «حافظ الأسد»، وطوال الوقت كان ياسر عرفات هدفا مستباحا . . » إلى أن يقول:

«وفي الشهور الأولى من سنة ١٩٩٠م كان التركيز كله في وسائل الاعلام الأمريكية المختلفة على الرئيس صدام حسين، وراحت الأجواء تتلبد، وراح الملك فهد والرئيس مبارك والملك حسين، كل منهم بدوره يحاول تلطيف الاجواء في واشنطن».

«وكانت اسرائيل طوال الوقت على الخط، وتركيزها بالدرجة الأولى على القوة العسكرية العراقية التي خرج بها العراق بعد انتصاره في الحرب مع ايران»!

ونتوقف لنسأل الأستاذ هيكل: إذا كان الأمر كذلك فما الذي جد في الموقف؟ إن اسرائيل لاترضى بزيادة القوة العسكرية لأي بلد عربي أو حتى اسلامي، ولقد سبق لها أن ضربت المفاعل العراقي في عام ١٩٨١م ودمرته، أما أن اسرائيل والصهيونية لها أنصار في الكونجرس الأمريكي ووسائل الاعلام الامريكية فذلك أمر معروف، وهو لايمنع من قيام علاقات طبيعية بين أمريكا وسائر الدول في المنطقة، وما ذكره الأستاذ هيكل ونقلناه آنفا عن العقود الكبيرة للشركات الأمريكية مع العراق

يؤكد ذلك، وحتى الآن لم يدلل لنا الأستاذ هيكل على حتمية التصادم مابين أمريكا والعراق.

ثم يمضي الأستاذ هيكل في وصف حرب الكلمات التي تحولت على حد قوله إلى حرب أعصاب! يقول في ص ٢٣٧:

«في ١١ فبراير ١٩٩٠م قام جون كيلي مساعد وزير الخارجية الأمريكية بزيارة بغداد والتقى بالرئيس صدام حسين، وجرى استعراض لمسار العلاقات بين البلدين تميز ـ طبقا لمحضره ـ بروح من المصالحة، فقد لاحظ الرئيس صدام حسين وجود حملات منظمة توجه ضد العراق وقيادته، وحاول جون كيلي أن يشرح طبيعة الحياة السياسية في بلد مفتوح مثل الولايات المتحدة، وأبدى الرئيس صدام حسين تفهما، ولكنه نبه إلى أن الحملات زادت عن الحد وأنها تركز على جهود يبذلها العراق للتطور التكنولوجي. وعندما قاربت المقابلة نهايتها قال جون كيلي للرئيس العراقي أنه حرصا على روح المصالحة التي سادت لقاءهما، يريد أن يلفت نظر الرئيس إلى أن التقرير السنوي الذي تصدره وزارة الخارجية الأمريكية عن حالة حقوق الإنسان في العالم سوف ينشر الأسبوع القادم، والتقرير يحوي انتقادا للعراق، وهو يرجو أن يتقبله الرئيس بصدر رحب ورد الرئيس صدام حسين قائلا: نحن لانغضب من النقد إذا كان بناءاً ولايستهدف التشهير».

ونسأل الأستاذ هيكل مرة أخرى: هل يعتبر ذلك تصعيدًا في حرب الكلمات التي تحولت الى حرب أعصاب ثم كراهية.. الخ أم أن روح المصالحة كانت واضحة في هذا الموقف؟!

إن التصعيد الحقيقي هو ماذكره الأستاذ هيكل بعد ذلك في ص ٢٣٩ حيث قال:

«وفي يوم ٢٠ فبراير أعلنت اسرائيل أنها اكتشفت وجود وحدات عسكرية

عراقية في الأردن، وأضافت للاعلان أنها لاتنوي السكوت على أي تواجد عراقي عسكري في الأردن».

«وفي هذا الوقت قامت طائرات أمريكية بالإستطلاع في الاجواء العالية في المنطقة، ثم أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أنها اكتشفت وجود ست قواعد صواريخ عراقية قرب قاعدة «هـ٢» الجوية الأردنية، وانتهزت اسرائيل فرصة الإعلان الأمريكي وكثفت حملتها».

«وكان الكونجرس في حالة فوران شديد، وإذا مجلس الشيوخ الأمريكي يقر في جلسة لم تستغرق أكثر من ساعتين بوقف مبيعات القمح الأمريكي إلى العراق. وتصورت بغداد لعدة أيام أن القرار دعائي أكثر مما هو واقعي، ثم فوجئت بتوقف شحنات القمح، لأن الحكومة الأمريكية لاتستطيع أن تخالف أمرا أقره الكونجرس».

ونتوقف عند هذه الفقرة لنقول: «إنه ما كان ينبغي لبلد مثل العراق أن يهمل زراعته بحيث يضطر إلى الإعتماد على واردات القمح من أمريكا، ولايجوز القياس على حالة مصر، حيث عدد السكان أكبر بكثير من سكان العراق، ومساحة الأرض الصالحة للزراعة أقل بكثير أيضًا.

ثم نعود إلى متابعة ما كتبه هيكل في هذا الفصل، فنجده يشير بعد ذلك إلى واقعة القبض على الصحفي البريطاني الجنسية الايراني الأصل الذي أتهمته العراق بالتجسس وتم إعدامه وأثار ضجة كبرى في صحف الغرب ودوائره السياسية، وتطرق بعد ذلك إلى ذكر حادثة اغتيال الدكتور جيرالد بولد الخبير في صنع المدافع الضخمة الذي اتهمته الإشاعات بأنه صمم للعراق مدفعا عملاقا وشارك في صنعه، وساد الظن بأن الموساد كانت وراء قتله. .

وفجأة مرة أخرى ينقلنا الأستاذ هيكل إلى ذكر الكويت بقوله في ص٢٤٠ :

«وفي ٢٧ مارس كان الرئيس صدام حسين قد قام بزيارة استغرقت ساعات لمنطقة حفر الباطن في السعودية حيث قابل الملك فهد أثناء رحلة صيد كان الملك يقوم بها هناك، وكان لدى الرئيس صدام حسين شكوى من الكويت، لأن الكويت زادت إنتاجها من البترول عن الحصة المقررة لها طبقا لقرارات الأوبك وهذا يؤدي إلى خفض أسعار البترول وبالتالي يؤثر على اقتصاديات العراق في وقت يتعرض فيه لضغوط من كل جانب». . وبعد ذلك بقليل يقول هيكل:

«وتطرق الرئيس صدام حسين بعد ذلك إلى الموقف الأمريكي من العراق وأبدى شكوكه في أن الولايات المتحدة تضمر شراً للعراق. وكان تعليق الملك فهد: أنه يعرف الرئيس جورج بوش شخصيا ويعرف أنه رجل طيب ثم ان الرئيس بوش يزهو الآن بانتصار الولايات المتحدة في معركتها العقائدية والاستراتيجية ضد الاتحاد السوفيتي الذي انهار، وهو في هذا الوضع آخر من يرغب في تحويل الأنظار عن انتصاره في أوربا إلى جهة أخرى في الشرق الأوسط».

ولاندري من أين استقى الأستاذ هيكل معلوماته عن هذا اللقاء بين الملك فهد وصدام حسين؟ غير أن الصورة التي يرسمها الكلام المنسوب للملك فهد عن الرئيس الأمريكي بوش تناقض تماما تحليل الأستاذ هيكل، عن بحثه عن عدو، ووحش أسود. الخ!

ثم يعود بنا الأستاذ هيكل إلى قصة التصعيد الذي كان يدور أساسا ما بين اسرائيل والعراق، فيقول في ص٢٤١:

«في يوم ٣٠ مارس أعلن الجنرال أوهود باراك، رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلي الجديد، أن اسرائيل لابد أن تكون جاهزة لضربة وقائية ضد العراق في أي وقت تشعر فيه أن قوته خطر عليها. ثم تبعه اسحاق شامير رئيس وزراء اسرائيل

إلى ساحة التهديد بقوله: إن اسرائيل سوف تهاجم العراق إذا أحست أنه اقترب من إنتاج أسلحة نووية».

«وفي يوم أول أبريل رد الرئيس صدام حسين بخطابه المشهور الذي قال فيه إننا سنرد على اسرائيل إذا استعملت ضدنا أسلحة نووية. ثم أقسم بعد ذلك في خطابه أنه إذا تعرض العراق لهجوم نووي اسرائيلي، فإنه سوف يستعمل أسلحة متطورة تحرق بالنار نصف اسرائيل». ويمضي هيكل قائلا:

«وتصاعدت حدة الموقف بطريقة تثير القلق عندما أطلقت اسرائيل في يوم ٣ أبريل قمرا صناعيا للتجسس العسكري أطلق عليه اسم أوفوك (كلمة عبرية تعني أفق)».

«واتصل الملك فهد بالرئيس صدام حسين مبديا خشيته من تصاعد حدة الحملات والحملات المضادة على هذا النحو، وأثناء الحديث بينهما اقترح الملك فهد على الرئيس صدام حسين أن يبعث برسائل تطمين إلى كل من الرئيس بوش والسيدة مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا، ووافق الرئيس صدام حسين، واقترح على الملك أن يرسل إليه الأمير بندر سفير المملكة العربية السعودية في الولايات المتحدة ليكون رسوله إلى بوش وتاتشر» إلى أن يقول هيكل بعد ذلك:

«وفي نفس الوقت كان هناك آخرون في العالم العربي يحاولون تهدئة الأمور والامساك بزمامها قبل أن يفلت. وفي ذلك الوقت قام الرئيس حسني مبارك باتصال مع الرئيس بوش لطمأنته إلى أن الرئيس صدام حسين رجل سلام، كذلك بعث الرئيس مبارك بنفس الرسالة إلى اسرائيل طالبا عدم تصعيد الموقف».

ثم ينتقل هيكل لوصف تفاصيل زيارة قام بها وفد من الكونجرس الأمريكي برئاسة «روبرت دول» أولا إلى القاهرة حيث أبدى قلقه من برنامج التسليح العراقي

«وبالذات في المجال غير التقليدي» (ص٢٤٢)، وذهاب هـذا الوفـد إلى بغداد للقـاء صدام حسين والحوار الذي دار بينه وبين رئيس الـوفد الأمـريكي، يقول هيكـل ص ٢٤٦ : واستطرد الرئيس صدام حسين في شرح لحقيقة وحدة الأمـة العربيـة، ثم دار حوار بينه وبين السناتور دول مباشرة، وطبقـا لمحضر الإجتماع فـإن بعض المواقف في الحوار مست كثيرا من القضايا الحساسة.

«فقد قال الرئيس صدام : نحن نعـرف أن هناك حملة واسعـة توجـه ضدنـا في أمريكا وفي دول أوربا.»

«ورد السناتور دول قائلا : ليس من الرئيس بوش، هو قال لنا ذلك أمس».

«وقال الرئيس صدام : نحن لم نطلب من العرب أن يشنوا حملة مقـابلة، وكان يمكن أن نفعل ذلك، لكن الناس في كل مكان وقفوا ضد سياستكم. . إلى أن يقـول صـدام حسين : ألا ينبئكم هـذا بضرورة إعادة النـظر في الأفكار والسيـاسات عنـدما تعرفون أن أمة بأكملها تعتبر الموقف الأمريكي ـ الاسرائيـلي والإنجليزي ينـطوي على إستفزاز كامل للأمة ككل، وهو غير عادل تجاه العراق»؟.

والـواقع أن العـالم العربي كله في ذلـك الوقت قـد سانـد العـراق ضـد الحملة المـذكورة في الـدوائر الغـربية والاسرائيليـة ودافع حتى عن تهـديـده بـإحـراق نصف إسرائيل على أساس أن ذلك سوف يكون من قبيل رد الهجوم أو الدفاع عن النفس.

ومرة أخرى يقطع الأستاذ هيكل صورة التصعيد مع إسرائيـل أساسـا والتأييـد الغربي لها، ليقول في ص ٢٤٩ :

«وفي يوم ٣ مايـو عاد العـراق إلى شكاويـه المزمنـة من الكويت بسبب إنتـاجها الزائد عن حصتها في إتفاقيات أوبك». . ثم يعود ليقول في ص ٢٥١ :

«كانت المنطقة كلها تركز أنـظارها عـلى التهديـدات الاسرائيلية وردود الفعـل

العـراقيـة، أو كـانت تلتفت إلى حـرب الكلمات أو حـرب الأعصاب بـين بغـداد وواشنطن. »

«ولم يلتفت أحد، أو لم يربط أحد هذا كله بالكويت».

«كان ذكر الكويت يرد في فترة وأخرى في معرض الشكوى من الأسعار».

«وكانت السعودية دائما محط الشكـوى، وهي الوسيط فيهـا بين الـطرفين، ولم يلتفت أحد بالقدر الكافي إلى واقعة جرت قبل ذلك بـوقت، وهي أن الرئيس صـدام حسين وصل إلى الرياض قبل شهور، وعـرض على الملك فهـد مشروع اتفاقيـة بعدم الاعتداء بين البلدين (السعودية والعراق) وبأن تحل كل القضايا بينهما بالحوار الأخوي الصـادق ـ يوقعهـا الملك والرئيس. وأبـدى الملك فهد مـا مؤداه أنه فـوجىء بمشروع المعاهدة الذي قدمه له الرئيس صدام حسين ـ ووصل إلى حد أن سـأله صراحة: هل توقيع مثل هذه المعاهدة ضروري»؟

«ورد الرئيس صدام بما مؤداه: أن توقيـع هذه المعـاهدة، وإن لم يكن ضروريـا فقد يكون ملائما لأن هنـاك أطرافـا كثيرة تسعى بـالدس والـوقيعة، تحـاول أن تصور العـراق الخارج من الحـرب مع إيـران منتصرا على أنـه يضمر نـوايا عـدائية لإخـوانه وأشقائه».

«وقـال الملك فهد: أنـه على استعـداد لتوقيـع المعـاهـدة، وإن كـان يشعـر أن العلاقات التي يربطها الدم أقوى من العلاقات التي توقع بالحبر».

وينهي هيكل حديثه في هذا الموضوع والفصل كله بقوله:

«وبعد شهور، وعندما انفجرت الأزمة بـين العراق والكـويت، كان هنـاك من السعوديين من عادوا إلى الوقائع بظن أن الرئيس صدام حسين كـان منذ وقت طـويل يرتب لمواجهة قادمة مع الكويت وأراد مبكرا تحييد السعودية».

وأعتقد أن هذا هو أصدق ماذكره هيكل في كتابه، وكان عليه أن يضيف أن تحريك الصواريخ إلى الأردن، والتهديد بإحراق نصف اسرائيل. . الخ. كل ذلك كان جعجعة فارغة من أجل استدرار عطف العالم العربي عليه، وأنه لم يكن ينوي أن يحارب اسرائيل أو يمس شعرة منها، كان كل همه موجها لاحتلال الكويت، وأفرغ من هذه الجعجعة المسرحية التي كتبها الأستاذ هيكل عن التصادم المحقق بين العراق وأمريكا! لقد اختار صدام حسين موقعته، وبالتالي أعيد ترتيب المواقف سواء داخل العالم العربي أو خارجه، ولكن المظلوم لم يكن هو، بل كان هو المعتدي، والمظلوم كان دولة الكويت، ثم شعب العراق الذي ورطته حكومته في هذا العدوان، والأمة العربية المنكوبة بحكم طاغية من هذا النوع المخادع البغيض!

(٧)

أيهما نصدق هيكل أم عبد الناصر؟!

هناك طريقة عجيبة في التأليف، يظن أصحابها أنها بارعة، وهي أن يحشد أحدهم في بعض فصول كتابه مادة معينة، ليأتي في فصول أخرى بمادة تخالفها تماما أو تناقضها! ويتصور أن القارئ سوف يبلع هذه اللعبة بسهولة، ويخرج منها بأنه أمام كاتب فذ يحيط بكل شيء علما، مادام قد وضع بين يديه كتابا ضخما «سمينا» مليئا بالمعلومات والأفكار! ولايدري الكاتب أنه من خلال التناقض بين نصوص كتابه، قد وضع مسخا مشوها، كما تضع إحدى السيدات مخلوقا له جسد إنسان ورأس حمار، وغالبا ما يولد هذا المسخ ميتا، أو يموت بعد مولده بساعات أو أيام على الأكثر!

ومن هذا القبيل للأسف الشديد، فعل الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل في كتابه «حرب الخليج»، الذي نناقشه في هذه الفصول. فإنك ما تكاد تصل إلى الفصل الثاني عشر من الكتاب بعنوان «الكويت»، حتى تحس بأن الكاتب قد خدعك في الفصول الأولى السابقة عليه، أو بالأحرى حاول أن يخدعك، وأنه قد أضاع وقتك في قراءة كلام لا لزوم له بالمرة، وأن «رأس الحمار» التي أطلت عليك من بين صفحاته لا تتسق على الإطلاق مع جسد الإنسان الذي يليها!

لقد أوجع دماغنا الأستاذ هيكل في الفصول الأولى من كتابه بنظرية مؤداها أن الصدام كان محتما مابين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق، أو ما بين بطلي «مسرحيته» التي ألفها بهذا الخصوص: جورج بوش وصدام حسين! وحشد من أجل ذلك كل ما استطاع حشده من عناصر التاريخ المعاصر - وبعض الماضي أيضا - مما

يتعلق بكلتا الدولتين، فوضع في الجانب الأمريكي مثلا، عنصر انتصار الولايات المتحدة على الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة، التي انتهت بخروج هذا الأخير من ساحة الصراع الدولي بل واختفائه من الخارطة السياسية كدولة كبرى موحدة، وأضاف إلى تلك الصورة الهائلة رتوشا من نوع حاجة الولايات المتحدة في ظل الوضع الجديد إلى عدو، وبحثها عن «وحش أسود» في الشرق الأوسط، بل وحاجة جورج بوش شخصيا إلى الانتصار في حرب، أي حرب، لكي «يبروز» (بالعامية المصرية) أو يضع اطارا لصورته بين مصاف الأبطال من قادة الولايات المتحدة الأمريكية، وحشد على الجانب العراقي، الانتصار المماثل للعراق في الحرب العراقية الايرانية(!) وأنه يبحث عن دور في منطقة الشرق الأوسط التي «ملأها الفراغ» على حد تعبير الأستاذ هيكل ـ وهلم جرا.

ولكن ما إن تصل إلى الفصل الذي نحن بصدده في هذه الحلقة، وهو كما قدمت، الفصل الثاني عشر بعنوان «الكويت»، حتى تحس بأن البناء الذي أقامه الأستاذ هيكل في الفصول السابقة عليه، ينهار أمام عينيك دفعة واحدة، كما تنهار البيوت التي يبنيها الأطفال من الرمال وهم يلهون على شواطىء البحار! بل إن الأستاذ هيكل، كان لديه من الجسارة بحيث يضع في صدر هذا الفصل تحت العنوان مباشرة علامة من علامات المعول الذي سوف يهدم ماتقدم من فصول كتابه، وهو عبارة «انكم لاتعرفون مدى حساسية الغرب في موضوع الكويت»، والتوقيع تحتها هو: (جمال عبد الناصر لنائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي في ابريل ١٩٦٣).

ولكننا نبدأ من بداية الفصل حيث يحاول الأستاذ هيكل أن يصل ما بينه وبين الفصول السابقة، على طريقة الشعراء القدامى في «حسن التخلص» حينما كان أحدهم يمهد للانتقال من النسيب والوقوف بالأطلال، ووصف الرحلة، إلى مدح الممدوح، ولكن هل أحسن الأستاذ هيكل بالفعل التخلص مما ورط نفسه فيه من قبل.؟!

* * *

يقول الأستاذ هيكل في بداية الفصل ص ٢٥٣ :

«كان اسم الكويت يتردد من بعيد خافتا وبطيئا في الضوضاء التي ملأت الشرق الاوسط من أواخر مايو إلى أوائل يوليو ١٩٩٠م، ثم بدأ اسم الكويت يقترب ويقترب مثل لحن فرعي يوشك أن يتحول ليصبح هو اللحن الرئيسي. كانت الأصوات قبل ذلك متناثرة، وكان توزيعها على مساحة واسعة، وكان تركيز السامعين، ينتقل من صوت إلى صوت في معزوفة متسارعة، وفجأة دوت ضربة الأطباق النحاسية وتنبه الجميع».

«كانت المنطقة في حالة ضجة بالفعل، ولكنها ظلت في الدرجة الثانية من الاهتمام الذي كان مركزا على أوربا يتابع عملية الوحدة الألمانية، واتفاقيات سحب القوات السوفيتية من القارة، وعمليات الإصلاح الجارية في الاتحاد السوفيتي، والتوجس من أن انحلال حلف وارسو قد يؤدي إلى إنحلال حلف الأطلنطي، وإلى جانب ذلك كانت أزمة الاقتصاد الأمريكي تشغل بال كثيرين».

«وحتى فيما يتعلق بالشرق الأوسط، فقد كان الاهتمام كله موجها للتوتر المتزايد بين العراق واسرائيل، أو بين العراق وواشنطن. وأما موضوع علاقة العراق بالكويت فلم يشغل بال أحد. ولعله من اللافت للنظر ـ طبقا لجريدة «الواشنطن بوست» أن مجلس الأمن القومي الأمريكي لم يدرج في جدول أعماله أي بندٍ يخص العراق ابتداء من أكتوبر ١٩٨٩ حتى ٢ أغسطس ١٩٩٠م حين وقع الغزو».

«وعلى مستوى وكلاء الوزارة في الخارجية الأمريكية، فقد بدا أثناء إجتماع لهم عقد في شهر يونيو ١٩٩٠م، بعد أن اقتحم اسم الكويت أسماع الكل كموضوع لأزمة من الدرجة الأولى ـ أن بغداد قامت بتغيير مفاجىء في أولوياتها، وبدا لهم كما لو أن العراق نقل اهتمامه من اسرائيل إلى الكويت في ظرف أيام قليلة، وكان هذا الرأي تبسيطا للأمور أكثر مما هو لازم».

«على السطح بدا الإنتقال مفاجئا، وفي الحقيقة فإنه لم يكن كذلك. كان الواضح أن العراق خرج من حربه مع إيران ومشكلته الرئيسية هي المشكلة الاقتصادية، فالحرب كلفته كثيرا، استهلكت كل احتياطياته، وراكمت عليه ديوناً عربية وغير عربية».

ماذا نفهم من هذا الكلام، وقد ظن الأستاذ هيكل أنه قد «أحسن به التخلص» إلى أن يصل إلى قلب الموضوع؟

على السطح كان الانتقال مفاجئا.. هكذا قال.. وأنه في الحقيقة لم يكن كذلك، ونحن نوافقه على ذلك. بل نقول إنه لم يكن هناك انتقال بالمرة لإهتمام العراق من إسرائيل إلى الكويت، كان الهدف منذ البداية لدى طاغية العراق وأعوانه هو الكويت.. أما «الضوضاء» و«الصخب» مع اسرائيل ـ وهي ذات الألفاظ التي استخدمها الأستاذ هيكل في كلامه، بما في ذلك تحريك الصواريخ إلى الأردن واستجلاب التهديد الاسرائيلي بتدميرها، والغضب الأمريكي لتطوير أسلحة الدمار الشامل العراقية، ثم التهديد من جانب صدام حسين باحراق نصف اسرائيل، وردود الفعل الأمريكية والغربية على ذلك.. كل ذلك لم يكن الا الدخان الذي أطلقه الطاغية لكي يشوش على غرضه الحقيقي، ولكي يصور نفسه في عين الرأي العام العربي بطلا يستعد لمعركة هائلة مع اسرائيل، ويتحمل حملة ضارية عليه من جانبها وجانب الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عموما.. لعل هذا الرأي، أو قسطا منه يسعفه في جريمته التي هو مقبل عليها باحتلال الكويت.

ذلك هو حق الصورة كما ينبغي أن تقدم، دون التهويل أو الطبل والزمر حول مقدمات لا أصل لها ولا قيمة.

مما يلفت النظر في كلام الأستاذ هيكل المتقدم، مانقله عن الواشنطن بوست، من أن مجلس الأمن القومي الأمريكي لم يدرج في جدول أعماله أي بند يخص

العراق. . ومعنى ذلك أن الـولايات المتحـدة الأمريكيـة لم تكن تبحث عن عدو بعـد خروج الاتحاد السوفيتي من حلبة الصراع معها، ولو كـانت تبحث بالفعـل فإن هـذا «العدو المختار»، لم يكن العراق. . أما أن قادة العراق قد تطوعوا بعد ذلـك ليقدمـوا لها هذا العدو، بإقدامهم على غزو الكويت، فذلك شيء آخر!

لم يكن هنـاك «صدام محقق مـع أمريكـا» كما ذهب الأستـاذ هيكل في فصـولـه السـابقة، كـان هناك صـدام سعى إليه حـزب البعث الإنتحاري في العـراق، وتجرع العراق وتجرعت الأمة العربية كأسه حتى الثمالة، على يد الطغاة الحاكمين في بغداد!

* * *

ثم نجد الأستاذ هيكل بعد ذلك يتبنى وجهة النـظر العراقيـة تماما في موضـوع أسعار البترول، فهو يقول بعدما تقدم مباشرة، ص٢٥٤ :

«وكـان أمله الحقيقي (يقصد العـراق) في تخفيف ضائقتـه الماليـة هـو دخله من البترول، والمشكلة أن حصص الأوبك كـانت تقيد سقف إنتـاجه، كـما أن انخفاض سعر البترول في أسواق العالم كان ينزل بدخله إلى أقل مما هو منتـظر. . إلى أن يقول: «إن قضية أسعار البترول بصفة عامة قضية معقدة، وهي تعتمد بالـدرجة الأولى عـلى انضباط كامل يفرضه أعضاء «الأوبك» على أنفسهم، ثم إن العامل النفسي يلعب في أسواقها دورا كبيرا، فإذا تخلى عنصر واحد في الأوبك عن انضباطه وأنتج أكثر، أحس السوق على الفور بما يحدث، وكون لنفسه رؤيته الخـاصة في اتجـاه الأسعار، وتصرف بمـا يؤدي إلى تغييرات كبـيرة في العقود قـد لا تتنـاسب مـع حجم النقص الحقيقي أو الزيادة في السوق. فالمسألة في النهاية مسألة رؤى وتقـديرات وحسـابات يـدخل فيهـا عنصر المضاربة. وطبقا لآراء كل الخبراء بما فيهم الخـبراء السعوديـون فإن الانفـلات عن حصص «الأوبك» والذي غمر السوق بفائض بترولي أدى إلى انخفاض أسعاره ـ

كان يعود أساسا إلى دولتين اثنتين من دول الخليج هما الإمارات العربية المتحدة، والكويت. . .».

ونتوقف هنا لنسأل: هل «الأوبك» هذه منظمة «مقدسة» من يخالف قراراتها يستحق أقصى عقاب بما في ذلك الغزو؟! الذي نعرفه أن الأوبك هي منظمة الدول المصدرة للبترول، وانضمام هذه الدولة أو تلك إليها اختياري محض، وكذلك التقيد بقراراتها أو اتفاقياتها، وفي النهاية فإن من حق أية دولة في العالم أن تبيع ما تشاء من منتجاتها وبأية كمية تريد، ذلك حقها الطبيعي في التجارة الدولية، ومن حقها أن تتبع في ذلك مصلحتها وحدها. نعم إن الحروب كانت تقوم في الماضي بسبب المنازعات التجارية، ولكن شن الحروب لم يعد أمراً هيناً الآن، ولا بد من مراعاة أكثر من طرف ومن جهة دولية، إن الولايات المتحدة الأمريكية تشكو من اختلال ميزانها التجاري لصالح اليابان، فهل يتصور في عصرنا الحالي أن تقوم بالهجوم المسلح على اليابان واحتلالها لكي تفرض عليها أن تشتري ما لا تريد اليابان أن تشتريه من سلع أمريكية، وهي أي الولايات المتحدة ـ التي سبق لها أن حاربت اليابان بالفعل، وألقت عليها القنابل الذرية، واحتلتها في الحرب العالمية الثانية؟!

يقول الأستاذ هيكل في ص ٢٥٦ :

«وكان المأزق أن الكويت هي الأخرى مثل العراق، تحتاج لزيادة في دخلها وإن اختلفت الأسباب، رغم أن كليهما كان يعتمد على نفس المصدر وهو البترول، وكان وضع الكويت المختلف يتمثل في طبيعة تركيب ثروتها المالية والاقتصادية، فالكويت استثمرت على نطاق واسع في شركات كبرى في الغرب لتكرير البترول وتسويقه وأصبح ربحها يأتي من بيعه في الأسواق مباشرة للمستهلكين، وليس من بيعه خاما للشركات الكبرى. كذلك كانت استثمارات الكويت في الخارج مركزة في شركات صناعية قد لا يناسبها إرتفاع أسعار البترول، وبالتالي كانت قادرة على

تعـويض انخفاض دخلهـا من سعـر البـترول الخـام عن طـريق زيـادة أربـاحهـا من الشركات الصناعية، وشركات توزيع البترول التي تملكها أو تساهم فيها. .».

ولو صح هذا الكلام لكان معناه أن الكـويت كانت تتبـع مصلحتها الفعليـة، وهـذا من حقها تمـاما، وليس كـما يقول الأستـاذ هيكل في ص٢٥٨ : «كـان العـراق مندهشاً من التحدي الكويتي. وبمـا أنه وجـد السعوديـة وإيران في صفـه فقد أخـذته الظنون بأن الكويت تنفذ سياسة مرسومة!!».

«سياسة مرسومة لإيذاء كـل من العراق والسعـودية وإيـران في آن واحد! هـل هذا معقول»؟!

ثم نعـود إلى الموضـوع السابق من كتـاب هيكـل (ص: ٢٥٦) فنجـده يقـول بعدما تقدم:

«وهكـذا اتفق مورد الـدخل، واختلفت أسـاليب التعامـل معه، أي أن سعـر البترول الخام يؤثر مباشرة في دخل العراق ـ لكنه لا يؤثر في دخل الكويت».

«كـانت الكويت كمستثمـر في السوق الصنـاعية العـالمية غـير قلقة من بـترول رخيص، وأما العراق كمصدر مباشر للبترول الخام فقد كانت أسبابه للقلق حادة.

«والواقع أن دخل الكويت لم يتأثر بإنخفاض سعر البترول في النصف الثاني من الثـمانينات، فقـد كـان نصف دخلهـا منـه ونصف دخلهـا الآخـر من استثـماراتهـا في الخـارج، وأمـا العـراق فـدخله الـرئيسي بـترولاً (هكـذا!)، وأي شيء غـيره فـرعي وجانبي».

وندهش أشد الدهشة، لأن بلدا محدود المساحة والسكان مثل الكويت، ينجح في أن ينـوّع مصادر دخله عـلى هـذا النحـو بحيث لا يضره انخفـاض سعـر البـترول الخـام ـ على حـد ما أخـبرنا الأستـاذ هيكل، ولكن بلدا ضخـما كالعـراق يتدنى لكي

«يصبح دخله الرئيسي بترولا وأي شيء غيره فرعي وجانبي» . . كما جاء في كلام هيكل! والواقع أن العراق قبل أن يُنكب بالحكم البعثي ورئاسة الطاغية صدام حسين، كان ينظر إليه في الدوائر الاقتصادية في العالم بأنه المرشح لأن يكون أكثر البلدان العربية ازدهارا لكونه يمتلك المصادر الثلاثة: البترول والمياه والطاقة البشرية الكافية للتنمية الإقتصادية الواسعة الحثيثة الخطى، ولكن الطغيان الذي استولى على مقاديره دفعه إلى الانتحار على مراحل متعددة:

- الحرب المهلكة مع إيران، التي إستنزفت احتياطياته، وتركته مثقلا بالديون.
- إهمال الزراعة على نحو فاضح حتى أصبح مستوردا للحبوب بدلا من تصديرها.
- الاستثمار في صناعة السلاح على نطاق واسع، ويا ليته وجه هذا السلاح لحرب أعداء الأمة العربية والإسلامية، ولكن لمحاربة الأشقاء، وأخيراً خسر معظم قدراته فيه حينما وصل إلى المرحلة الأخيرة من الانتحار القومي، بإقدام قادته على غزو الكويت، ورفض الإنسحاب منها حتى أجبرهم التحالف الدولي على ذلك بالقتال، بكل ما انطوى عليه هذا القتال من دمار شامل للبنية الأساسية للعراق، وخضوعه حتى هذه اللحظة لقرارات مجلس الأمن القاضية بتدمير قدرته على انتاج أسلحة الدمار الشامل.

هل كانت الكويت ملزمة في بعض مراحل هذه الخطوات الانتحارية لصدام حسين وحزب البعث العربي العراقي، بأن تتحمل هي مسؤولية تعويض خسائره في الحرب مع إيران، وإهمال زراعته، وصناعاته المدنية على هذا النحو الفاضح، الذي جعله يعتمد على سعر البترول الخام وحده في سداد ديونه؟! وهي - أي الكويت - التي ساعدته في تلك الحرب بكل ما تستطيع تقديمه له من أموال؟!

* * *

وفي القسم الثالث من الفصل المذكور يروي الأستاذ هيكل محاولات بعض ساسة العراق، الاستيلاء على الكويت بدعوى أنها كانت جزءاً من قضاء البصرة في العصر العثماني، ويورد بالتفصيل قصة لقاء وفد عراقي مع جمال عبد الناصر في عام ١٩٦٣م، يقول هيكل في هامش ص٢٧٤ :

«كانت الجلسة مسجلة وقد تم تفريغ محضرها، وجرى توزيع نسخ منه على قيادة القوات المسلحة ووزارة الخارجية والمخابرات العامة»، أما في النص فيقول: «وكان الوفد العراقي يحفظ عن ظهر قلب كل الحجج والوقائع التاريخية والوثائق التي تعزز دعاويه»، وكان لـ«جمال عبد الناصر» رأي مختلف وقد شرحه على النحو التالي، قال:

«إنكم تعلمون بالطبع أننا لنا رأي آخر في هذا الموضوع، فنحن وقفنا ضد عبد الكريم قاسم عندما أراد أن يضم الكويت، إننا لم نفعل ذلك عن عداء لعبد الكريم قاسم، كما قال البعض في العراق وقتها، وإنما اتخذنا موقفنا على أسس موضوعية أريد أن أشرحها لكم الآن، لأن فيها ما لم يكن ممكنا الجهر به علنا في ذلك الوقت».

ثم مضى عبد الناصر يعدد أسبابه قائلا: «عليكم أولا أن تتذكروا أن مجيء دول الخليج إلى إطار العمل العربي مكسب كبير في حد ذاته، وينبغي لنا أن نشجع عليه مهما اختلفت اجتهادات كل منا. فهذه بلاد تعرفون أكثر مني طبيعة الأوضاع الاجتماعية والسياسية فيها، وهي كلها تركيبات هشة، ولكنها غنية وتخشى على نفسها، والسلطة فيها لأسر حاكمة تشكك في الحركة القومية عموما، لأنها محافظة وتقليدية بطبيعتها، وما هو أهم من غنى شيوخها هو المصدر الذي يجيء منه الغنى، وهذا المصدر هو البترول، والبترول قضية كبيرة خطيرة لايستطيع أحد أن يتعرض لها، ببساطة لأنها تمثل مصالح دولية لن يفرط فيها أصحابها مهما كان. إننا صدقنا بالكاد أن هذه المنطقة من العالم جاءت إلى الحركة القومية العامة بمحض رضاها،

وسوف تكون كارثة إذا تحقق للناس في هذه المنطقة أنها تخلصت من الوجود الإنجليزي السافر لكي يبتلعها العالم العربي الواسع. وأنا مستعد أن أتفهم بعض دعاواكم، وقد سمعت وقرأت الكثير من وثائقكم، ولكني أقول لكم في منتهى الوضوح أن ماتطلبونه فات أوانه بحكم الحقائق العربية والدولية. إن الإنجليز لم يعودوا وحدهم في السيطرة على بترول الخليج. وانما هذه السيطرة انتقلت أكثر الى يد الأمريكان، فإذا أراد أحد أن يضم دولة في الخليج على غير رضا أهلها، فيجب أن يعرف سلفاأنه سيواجه قوة الولايات المتحدة. إن الاتحاد السوفيتي نفسه يسلم للغرب بأهمية بترول الخليج بالنسبة لهم، وبالتالي يجب أن يعرف أن هذه المعركة فوق طاقتنا. وأقول لكم أيضا انها ضد مصلحتنا لأننا يجب أن نشجع شعوب الخليج ودوله على الاطمئنان في ظل حركة القومية العربية. إن وجود البترول والثروة المتولدة منه سوف يفرض حدوث تنمية على نطاق أوسع تبرز معها قوة شعبية كبيرة يمكن بالتفاعل معها أن يتحقق نوع من التعاون الوثيق أقوى مائة مرة من الوحدة الدستورية. إننا كنا في وحدة اندماجية مع سوريا، وكنا بلد واحدا، ولكن لأن التفاعل بين الناس لم يحدث، فان الإنفصال جاء سهلا».

وواصل جمال عبد الناصر حديثه قائلا:

«إنكم لاتعرفون مدى حساسية الغرب في موضوع الكويت، إن علاقاتنا بانجلترا بعد السويس كانت مقطوعة، وبعد اتصالات طويلة بعثوا الينا هنا دبلوماسيا بريطانيا (كان جمال عبد الناصر يقصد السير كولين كرو الذي تولى هذه المهمة في القاهرة وقتها) يشرف على شؤون الرعايا. واعتبروا واعتبرنا أن هذه خطوة أولى في سبيل إعادة العلاقات بين البلدين، وأثناء هذه العملية طلب الإنجليز فتح خمس قنصليات لهم بالجمهورية العربية المتحدة، وأرادوها في القاهرة والاسكندرية وبورسعيد ودمشق وحلب، وطلبنا أن تكون القنصليات العربية في لندن وليفربول ودار السلام وعدن والكويت، وعندما ذكرنا له اسم الكويت انتفض كأن عقربا

لدغه، وقال لنا: أبدا كله الا الكويت، لم يكونوا على استعداد لقبول قنصلية لنا في الكويت، فهذه بالنسبة لهم مناطق ليس فيها «هزار».

«وعندما قامت الثورة في العراق، وذهبت لمقابلة خروشوف، وكنت في يوغوسلافيا، وأردت أن أراه في موسكو قبل أن أعود للجمهورية العربية المتحدة. لأتأكد من موقفهم من التهديدات الموجهة لثورة العراق (١٩٥٨) ولنا بسبب تأييدنا لها، لم يُخف على خروشوف أن الأزمة خطيرة، وأن الغرب يمكن أن يدخل الحرب بسبب خوفه من أي تهديد على مصالح البترول. وأن علينا مسؤولية تهدئة الموقف وطمأنة الغرب بكل الوسائل. إن الأمريكان كانوا في حالة ثورة مجنونة، وحتى إيزنهاور وهو رجل اعتبره عاقلاً ـ دفع بالأسطول السادس الأمريكي وأنزل قواته على شواطىء لبنان، وكانوا بالفعل مستعدين لحرب عالمية لو أن مصالحهم البترولية اقترب منها تهديد من أي مصدر».

إذا كانت تلك رؤية جمال عبد الناصر من عام ١٩٦٣م، بل من عام ١٩٥٨م وربما قبلها. . من أن الغرب والولايات المتحدة الأمريكية على استعداد لخوض حرب عالمية في حالة أي تهديد لمصالحهم البترولية في منطقة الخليج، وذلك في ظل وجود الاتحاد السوفيتي كقوة مناهضة لهم وتكاد توازيهم في القوة ولكنها تعترف بهذه المصالح ولاتحاول التعرض لها، فهل من المعقول أن يخفى على أحد أن الغزو العراقي في عام ١٩٩٠م لن يفلت من العقاب الغربي، وخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية ؟ وهل يمكن أن يقع الاقدام على هذا الغزو نتيجة للخطأ في الحسابات، ولأن العراق والولايات المتحدة كانتا مسوقتين بحكم ظروفهما «المتشابهة» كما ذهب الأستاذ هيكل ـ من انتصار في الحرب العراقية الايرانية، والحرب الباردة ـ إلى صدام محقق بينهما؟!

أم أن ما أقدم عليه طاغية العراق وأعوانه ـ كان الحلقة النهائية والأخيرة من الانتحار القومي ؟ علما بأن هذا الانتحار لم يصب العراق وحده، بل ولا الكويت

وحدها، بل مجموع الأمة العربية، والعلاقة بين دول الخليج وسائر العالم العربي والحركة القومية فيه، على النحو الذي وصفه عبد الناصر، وهو يحذر الوفد العراقي الذي التقى به في عام ١٩٦٣؟

لقد كان الأستاذ هيكل من أيام حرب ١٩٦٧م، هو صاحب نظرية أن الولايات المتحدة الأمريكية، باعتبارها قوة عالمية هائلة، لايجوز أن تناطح رأسا برأس، وكان يكتبها في «الأهرام» بالفرنسية هكذاTete A Tete مشيرا بذلك إلى كلمة عبد الناصر المشهورة في تحديه للولايات المتحدة الأمريكية آنذاك، قبيل الحرب، حينما قال: على الأمريكان إذا لم يعجبهم الأمر أن يشربوا من البحر، فإذا لم يكفهم البحر الأبيض فيمكنهم أن يشربوا من البحر الأحمر أيضا!

لذلك أطلق الأمريكان على الحرب التي شنتها اسرائيل على مصر آنذاك ـ نيابة عنهم وبتأييد كامل منهم اسم «الأبيض والأحمر». . فما باله اليوم الأستاذ هيكل يلتمس أعذارا لطاغية بغداد وأعوانه في توريط بلادهم في حرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها. . علما بأن عبد الناصر حينما تورط مع الأمريكان كان يدافع عن قضية عادلة. . أما طاغية بغداد فكان يسعى وراء أطماع مجنونة آثمة؟!

(٨)

لعبة خلط الأوراق وانكشافها

نصل مع الاستاذ محمد حسنين هيكل إلى الجزء الثاني من كتابه «حرب الخليج» وعنوان هذا الجزء «حرب البترول الثالثة» باعتبار أن الحرب الأولى كانت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م والثانية الحرب العراقية الإيرانية، والفصل الأول من هذا الجزء عنوانه «نقطة اللاعودة».

يقول الأستاذ هيكل في ص٢٩٨ من هذا الجزء:

«في ذلك الوقت كانت العلاقات بين بغداد والكويت تجتاز مرحلة صخور وعرة، فقد أثارت الفترة الأخيرة من الحرب العراقية الإيرانية مشاكل كثيرة، قديمة وجديدة تداخلت معها ـ كما سبق القول ـ عوامل التاريخ والجغرافيا والبترول، ثم راح ذلك كله يعكس نفسه في الممارسة السياسية للعلاقات بين البلدين، وطرأت حوادث كان يمكن حصر نطاقها، ولكنها في المناخ العام بين البلدين أخذت أبعادا أكثر مما كان مقدرا لها».

«وعلى سبيل المثال، فإن العراق استطاع التقاط برقيات ورسائل متبادلة بين وزارة الخارجية في الكويت والسفارة الكويتية في ايران، تحمل الأولى منها . . وهي مرسلة في أعقاب انتهاء الحرب العراقية الايرانية مباشرة ـ تعليمات إلى القائم بالأعمال الكويتي في طهران تطلب منه أن يقابل السيد على أكبر ولاياتي، وزير الخارجية الايراني، وأن يبلغه بسعادة الكويت لانتهاء الحرب بين العراق وإيران، وبتأكيد حكومة الكويت لرسائل سابقة تطلب فتح صفحة جديدة تتحسن فيها العلاقات بين

البلدين، ثم سؤاله عما إذا كان في مقدور الكويت أن تقدم شيئا لإيران يساعدها في الظروف الصعبة التي تواجهها بعد انتهاء الحرب».

«وفي رسالة ثانية يرد القائم بالأعمال الكويتي في طهران على وزارة الخارجية أنه فعل ماكلف به، وأن أحد مساعدي وزير الخارجية الايراني أبلغه بعد اجتماعه بيومين مع وزير الخارجية أن إيران في حاجة إلى كميات من مادة الكيروسين، وأنها تكون شاكرة إذا استطاعت الكويت تقديمها لها».

«ثم رسالة ثالثة تبلغ القائم بالأعمال الكويتي بطهران بقرار كويتي يستجيب لطلب طهران». وكان التعليق العراقي على هذه الرسائل هو: «لماذا لم يبدأوا بسؤالنا نحن عما نحتاج اليه؟» وكان تعقيب أحد الوزراء العراقيين: «الآن يخطبون ود العجم، ولايهتمون بالعرب». ثم يعقب الأستاذ هيكل على ذلك قائلا: «ولم يكن ذلك للانصاف دقيقا لأن الكويت قدمت بالفعل للمجهود الحربي العراقي مساعدات يصعب إنكارها، وكان عليها الآن أن تستعيد نوعا من التوازن بين جارتيها الكبيرتين».

وإذا كان الأستاذ هيكل قد أبدى نوعا من الإنصاف يحمد له في هذا التعليق فإن دلالة الموقف الذي أورده تتجاوز ذلك بكثير!

- فالحكومة العراقية، لم تتورع عن التجسس على الشقيقة العربية التي ساندتها في حربها ضد ايران، فهي تلتقط رسائلها الخاصة مابين وزارة خارجيتها وممثلها في طهران، وذلك تصرف أقل مايوصف به هو الدناءة وانعدام الخلق، وإن كان أمثال الأستاذ هيكل يمرون على مثل تلك الواقعة مرور الكرام، لأن السياسة في نظرهم، أبعد ماتكون عن الأخلاق!
- أما تعقيب الوزير العراقي، فأفحش في دلالته، فهو يظهر أن الحكومة البعثية في العراق لا تتنكر فحسب للمعروف الذي قدمته الكويت لها كما شهد الأستاذ

هيكل، ولكنها تعتبر أن تقديم هذا المعروف يلزم الكويت بأن تقصر اهتمامها على العراق، أو تستأذن حكومته في أية خطوة تخطوها في المجال الخارجي! وهذا دليل آخر على سوء النية المبيتة من جانب حكومة العراق نحو الجارة الشقيقة.

- وهذا القدر الذي أبداه الوزير العراقي من «الغيرة» على مساعدات الكويت، والرغبة في احتكارها كان موضوعه هينا جدا، وهو الطلب الايراني المتواضع بأن تقدم لها الكويت، مادة الكيروسين، التي هي وقود عادي، يكاد يقتصر استخدامه على الأغراض المنزلية للطبقات الفقيرة! ولم يكن العراق بحاجة إلى أن تسأله الكويت عما يحتاج، وقد سبق أن قدمت كل ما قدمته من عون أثناء الحرب . .

ولكن نذالة النظام العراقي لاتقف عند حد، وهي تحرج الصدور وتخنق الأنفاس!

ونمضي مع الأستاذ هيكل فيما ذكره في هذا الموضع، يقول في ص٢٩٩ :

«ثم أضيفت لهذه الواقعة واقعة أخرى جرت أثناء زيارة الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح ولي العهد ورئيس الوزراء الكويتي، أثناء زيارته لواشنطن سنة ١٩٨٩م للتفاوض على شراء صفقة من طائرات «ف ـ١٨»، وكان الطلب وقتها قيد المناقشة في اللجنة الفرعية المختصة بمبيعات السلاح للخارج. وحضر بعض أعضاء الوفد الكويتي المرافق للشيخ سعد، إحدى جلسات اللجنة، وكانت جلسة استماع، ووجه أحد أعضائها إلى المسؤولين الكويتيين سؤالا يقول: «ما هي الضمانات التي تستطيع حكومتكم تقديمها للتأكيد أن هذه الطائرات لن تستعمل ضد اسرائيل بواسطتكم مباشرة، أو بواسطة طرف عربي ثالث يحصل عليها منكم؟ ورد عضو الوفد الكويتي دون تفكير قائلا: اننا نريد هذه الطائرات للدفاع عن أنفسنا ضد جيراننا، ولانفكر في استعمالها ضد اسرائيل» ـ كانت جلسة الاستماع مفتوحة، ووصل مادار فيها بالقطع إلى آذان العراقيين، واعتبروا أنفسهم مقصودين به» . !

وبالطبع فان الكويت لها جيران آخرون خلاف العراق، ولكن المثل يقول: «إن من برأسه بطحة يتحسسها. . » المسؤول الكويتي لم يقل إن هذه الطائرات سوف تستخدم للهجوم على أحد، ولكن لمجرد الدفاع، ضد أي من الجيران «قد» يهاجمهم، ولكن ما بال حكام العراق يفهمون أنهم هم المقصودون، لولا أن نيتهم للعدوان كانت مبيتة؟!

يقول الأستاذ هيكل بعد ذلك:

«وكانت هذه الحوادث وغيرها صغيرة، وكان يمكن تجاوزها لو أن جو العلاقات كان يسمح لهما بجوار لا تحكمه عقد التاريخ والجغرافيا وغيرها، ومع ذلك فإن عقد الجغرافيا على وجه التحديد مالبثت أن اقتحمت ساحة العلاقات بين البلدين، وعلى غير انتظار»!

ومن أسف أن الأستاذ هيكل في هذه الفقرة، فقد مسحة الإنصاف التي عبر عنها في موضع سابق، ذكرناه فيما تقدم، ليعود إلى الحديث عن «عقد» الجغرافيا والتاريخ، ملتمسا في هذه «العقد» الأعذار للطغمة الحاكمة في بغداد الجشعة الى حد الاجرام!

يقول الأستاذ هيكل بعدما تقدم:

«بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الايرانية تقاطرت على بغداد وفود دول عربية متعددة تهنىء العراق بالنصر، ولم يظهر من بين هذه الوفود وفد كويتي، وكان بين أعضاء مجلس الوزراء الكويتي أنفسهم فريق يشير على الأمير بأن يتوجه إلى بغداد مهنئا، كما فعل غيره كثيرون، ومن بينهم الرئيس مبارك والملك حسين والشيخ زايد وأمير قطر ورئيس تونس وغيرهم، ولأمر ما كان الأمير مترددا، وكان هناك رأي بين أفراد الأسرة الحاكمة وخاصة بين الشباب، يرى أن العراق هو الذي يجب أن يبعث

بوفد إلى الكويت ليقدم شكره للكويت على المساعدات التي قدمتها للعراق أثناء الحرب، وتقديرها للمخاطر التي تحملها أهل الكويت أثناء معاركها التي اتصلت ثماني سنوات . . ».

وكما هو معروف كان «وفد الشكر» الذي أرسلته الحكومة العراقية إلى الكويت مكونا من مئات الدبابات وأرتال الجنود، التي زحفت على الكويت لتحتلها بالكامل وتشرد أهلها وتنكل بهم . . وكان «شكرا» من نوع عجيب، لا يقدم عليه إلا الأنذال!

ونعود إلى بقية حديث هيكل، يقول بعد ما تقدم في ص٣٠٠:

«ثم برز في النهاية رأي وسط مؤداه أن يذهب الشيخ سعد السالم الصباح، ولي العهد ورئيس الوزراء، في رحلة الاستطلاعية إلى بغداد قبل أن يذهب الأمير، ثم أن يثير هناك قضية ترسيم حدود نهائية بين البلدين في مناسبة انتهاء الحرب التي دار الجزء الأخطر من معاركها حول البصرة، وعلى مقربة من منطقة الحدود المختلف عليها، ذلك أن الشيخ سعد وهو يذكر العراقيين بما قدمته الكويت لهم أثناء الحرب، يستطيع في نفس الوقت أن يثير قضية الحدود، وكان التقدير الكويتي أن العراق سوف تكون لديه طلبات بمساعدات جديدة، ومابين المساعدات السابقة التي وصلت، والمساعدات اللاحقة المطلوبة، فان الشيخ سعد يستطيع أن يجد فرصة ملائمة لاثارة قضية الحدود».

وأظن أنه لو صح ما ذكره الأستاذ هيكل هنا، فمعنى ذلك أن الكويت كانت مستعدة لتقديم مساعدات جديدة للعراق بعد انتهاء الحرب، وأن الكويتيين لم يديروا ظهورهم للعرب، ولم يولوا وجوههم ـ كما زعم الوزير العراقي المأفون إلى العجم، الذين لم يحصلوا الا على الكيروسين!

ونستأنف مع هيكل قضية ترسيم الحدود، لنجده يقول بعد ما تقدم:

«وكان من بين مستشاري الأمير من يخشون من هذا الحل الوسط، وكان رأيهم أن الوقت مازال مبكرا جدا لاثارة موضوع الحدود، وأن العراق قد يساوره الظن أن الكويت تريد أن تستغل مصاعبه الراهنة، ثم إن الخلاف حول قضية أسعار البترول يلقي بظلال من الشك على مجمل العلاقات بين البلدين».

«ثم استقر الرأي في النهاية على أن الفرصة قد تكون سانحة لاثارة قضية الحدود، فقد بدأت بعض الاحتكاكات تحدث بالفعل على الخطوط بين البلدين، فقد وقع تصادم بين دورية كويتية ودورية عراقية، ثم شكى الكويتيون من دخول زورق مسلح عراقي مياههم الاقليمية واشتبك بالنار مع زورق كويتي. ثم شكى العراق من عمليات تهريب سلاح اليه من الكويت، كذلك شكى من عمليات إستطلاح واستزراع أراض يقوم بها الكويتيون داخل الحدود العراقية».

ويبدو، والله أعلم، أن أكثر شيء غاظ الحكومة العراقية، في هذا الموضوع، هو قيام كويتيين - على زعمهم - باستصلاح واستزراع أراض داخل العراق! فقد أصبحت هذه العملية جريمة لا تغتفر في نظر الحكومة العراقية «الماجدة» وكيف لا، وهي التي منذ أفاء الله عليها بنعمة البترول - وانقلب على أيديها بقدرته وارادته جل شأنه إلى نقمة - لاتطيق أن ترى أرضا تزرع أو تستصلح، لا تريد أن ترى الا بترولا، تتحكم هي فيه وفي كميات انتاجه وأسعاره، لديها ولدى الآخرين!

* * *

يقول الأستاذ هيكل بعد ما تقدم:

«ويبدو أنه في التمهيد لزيارة الشيخ سعد، قامت بعض الصحف الكويتية بحملة اعلامية أثارت قضية ترسيم الحدود مع العراق، وفي اليوم الذي وصل فيه

الشيخ سعد إلى بغـداد (٦فبرايـر١٩٨٩م) كان الـدور على الصحف العـراقية لـترد. وهكذا حل الشيخ سعد على بغداد وسط عاصفة من القصف الاعلامي فجرت قضية الحدود علنا في الصحف وبعنف، قبـل أن يطرحهـا الشيخ سعـد بالـدبلوماسيـة على مائدة المفاوضات.

«وكان من بين منشورات الصحف العراقية مقال له معنى خاص، فقد ظهر في جريدة «القادسية» ـ وراج بين أوساط الوفد الكويتي أن الرئيس صـدام حسين أمـلاه على الجريدة، كان المقـال يتحدث عن مشكلة الحـدود ويقول: «ان العـراق لايطلب فقط جزيرتي «بوبيان» و«وربـة» كما هـو شائـع، فهاتـان الجزيـرتان ملكيتهـا للعراق ثابتة(!!) ثم أضاف المقال: إن هناك أراضي في الكويت تخص العراق، كما أنه اتضح أن الكويت انتهزت فرصة الحـرب العراقيـة الايرانيـة وانشغال بغـداد، وغيرت خط الحدود فأزاحته عن مكانه وأعادته من جديـد بعد أن قضمت معـه قطعـة ضخمة من أراضي العراق!».

وبغض النظر عمن يكون كاتب هذا المقال، صدام حسين أو سواه، فهـو يشي بغـطرسة وقحـة، فمن الذي يملك أن يقـرر أن ملكية الجـزيرتـين المذكـورتين ثـابتـة للعراق؟ ثم ما هذه الرواية الهزليـة عن قيام الكـويت بتغيير خط الحـدود مع العـراق منتهزة فرصة انشغاله بالحرب؟ إن أي صبي ألم بشيء من المعرفة عن علاقـات الدول يعلم تمام العلم أن كل دولة ترعى حـدودها وقت السلم أو الحـرب، وتكون رعـايتها للحدود أشد في الحالة الأخيرة! ولكنها المغالطة الجريئة والادعاء الفاجر من جانب من لم يتورعوا بعد ذلك عن غـزو الكويت بـأكملها، وادعـاء أنها أراض عراقيـة. ولكن الذي يدهشني ويؤسفني، أن يروي الأستاذ هيكل أمثال هـذه الأقوال، ثم يمـر عليها مرور الكرام دون تعقيب، وكأنها لا تستحق التعليق.. والغرض مرض كما يقال!

ويروي الأستاذ هيكل بعد ذلك ص(٣٠١) :

«أن الشيخ سعد» أثار قضية الحملة الاعلامية التي قوبل بها لحظة وصوله بغداد، وأنه قال: «إنه فكر جديا في قطع زيارته والعودة إلى الكويت لأن بعض مانشر في الصحف العراقية كان جارحا»، إلى أن ينتهي هيكل إلى وصف لقاء الشيخ سعد في هذه الزيارة مع صدام حسين، وأن هذا الأخير قال: «إن المسألة ليست أراضي، فلدى مشكلة أهم بكثير من ذلك، وهي أن الأسطول البحري العراقي مبعثر في كل مكان من أيام الحرب، فهناك قطع منه في ميناء العقبة في الأردن، وقطع منه في موانىء مصر، وقطع أخرى في موانىء ايطاليا حيث اشتريناها ولم نأمرها بالتوجه إلى العراق لأن العراق لايملك ميناء عميقا في الخليج يسمح لغاطسها بالملاحة»، ثم استطرد الرئيس صدام حسين يتحدث عن «الاسطول العراقي» ويؤكد على الحاجة الماسة لوجوده في مياه الخليج، وأن هذا الأمر ليس مهما للعراق فحسب، ولكنه مهم لكل العرب، فهناك أساطيل غربية من كل نوع في الخليج، وليس بينها أسطول عربي واحد، وأبدى الشيخ سعد ملاحظة مؤداها: «أن هذا موضوع يحتاج تعاون كل مجموعة دول الخليج، وهو لايظن أن هناك عقبة»، وفيما يتعلق بالكويت أشار الشيخ سعد بطريق غير مباشر إلى أن الكويت تستطيع أن تعطي تسهيلات للعراق بجزيرتي بوبيان ووربة، دون أن يؤدي ذلك إلى «تغيير وضعهما» ولم يكن ظاهرا أن الرئيس صدام حسين يريد أن يواصل الحديث في هذا الموضوع، فقد انتقل لغيره».

وكما انتقل صدام حسين إلى غيره، انتقل هيكل أيضا، دون تعقيب على ما رواه بنفسه! ولكن لما كانت مهمتنا في هذه الفصول البحث عما «لم يقله هيكل في حرب الخليج» فلا نملك الا أن نلاحظ التالي:

أولا: أن صدام حسين اعترف للشيخ سعد بأن المشكلة ليست مشكلة أراض، وانما هي مشكلة أسطول، فاذا صح ما رواه هيكل عن صدام ففيم الوقاحة

العراقية في النص الذي طالعنا آنفا، وكتبته صحيفة القادسية العراقية من أن جزيرتي بوبيان ووربة، ملكيتهما للعراق ثابتة!!

ثانيا: أن الشيخ سعد كان منطقيا جدا، ومتفهما بل ومتعاطفا مع مشكلة الأسطول العراقي كما صورها له صدام حسين، وكان عرضه باعطاء تسهيلات في الجزيرتين المذكورتين دون تغيير وضعهما في منتهى الكرم والحرص على التضامن العربي، فضلا عن الإشارة إلى ضرورة تعاون دول الخليج ككل في معالجة موضوع الأسطول العراقي.. مما جعل صدام حسين يسقط في يده ويفقد كل حجة للمطالبة بهاتين الجزيرتين، ولذلك انتقل إلى موضوع غيره، ولكن ما بال الأستاذ هيكل: هل أسقط بيده هو الآخر، وعجز عن ابداء رأي في الموضوع؟! أم أنه لم يكن هناك موضوع أصلا، وأن حكاية الأسطول العراقي قد ادعاها صدام حسين، لكي يؤسس عليها دعوى تتعلق بملكية الجزيرتين، في مسلسل الدعاوي الذي انتهى الى غزو الكويت، وادعاء أنها كلها جزء من العراق عاد اليه؟!

ثم يقول هيكل في ص ٣٠٢:

«وكان لابد من تعزيز امكانية التفاهم بين البلدين، وهكذا جرى الترتيب لزيارة يقوم بها أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح للعراق، وكانت الزيارة ودية من كافة النواحي، وانتهزها الرئيس صدام حسين ليقدم لأمير الكويت أعلى وسام عراقي ويقلده له بنفسه تقديرا للموقف الذي اتخذته الكويت أثناء الحرب العراقية الايرانية..» إلى أن يقول: «كانت زيارة الأمير لبغداد في نهاية شهر سبتمبر ١٩٨٩م، وبعدها ولعدة شهور احتدمت الخلافات حول موضوع أسعار البترول وحصص الأوبك وتزايدت درجة الحرارة بين البلدين».

«وفي يناير سنة ١٩٩٠م توجه الدكتور سعدون حمادي (نائب رئيس الوزراء العراقي للعلاقات الخارجية) إلى زيارة للكويت التقى فيها نظيره هناك الشيخ صباح

الأحمد الصباح نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الكويتي، ثم تبين أن مهمة الدكتور سعدون حمادي هي طلب قرض بمبلغ عشرة بلايين دولار يستطيع بها العراق مواجهة ظروفه الصعبة بعد الحرب».

«وتداخلت القضايا واختلطت. . »

«تداخلت واختلطت قضية المساعدات المالية، مع قضية الحدود، مع قضية أسعار البترول ـ وتعقدت الزيارة».

ولا أدري كيف لم يلحظ الأستاذ هيكل مقدار الشذوذ في هذا الموقف: أن دولة بينها وبين دولة أخرى هذا القدر من المشاكل، ثم تبعث إليها بنائب رئيس وزرائها ليطلب قرضا بهذه الضخامة؟ فضلا عن أن هذه الدولة (أي العراق) قد رفض حكامها على لسان سعدون حمادي ذاته منذ شهور وخلال زيارة الأمير، فكرة توقيع معاهدة عدم اعتداء من نوع ما وقعه العراق مع السعودية والبحرين كما ذكر هيكل في موضع سابق ص ٣٠٢، بدعوى أن تنتهي أولا مفاوضات ترسيم الحدود؟!

ثم نعود إلى متابعة كلام هيكل يقول في ص٣٠٣:

«وبعدها بشهر واحد قام الشيخ صباح الأحمد الصباح بزيارة للعراق ردا على زيارة الدكتور سعدون من ناحية، ومتابعة لبقية القضايا المتداخلة أخرى. . ».

«وفي هذه الزيارة أشار الشيخ صباح من بعيد مرة أخرى إلى الديون السابقة المعلقة على العراق للكويت، وألمح بسرعة إلى أن الكويت قد تستطيع تقديم ٥٠٠ مليون دولار تضاف إلى الدين القديم وأنه سيقترح شيئا من هذا النوع عندما يعود إلى الكويت». ويمضي هيكل قائلا:

«عندما جاء الدور على بقية البنود التي عرضت للبحث، وقع سوء تفاهم من نوع غريب لكنه شائع في العلاقات العربية بسبب غلبة حديث المجاملات الفضفاضة

على حديث الحقائق المحددة، فقد حسب الطرفان أنهما اتفقا بينهما الواقع أن كلا منهما كان على موقفه لم يغيره. طلب العراق تسهيلات بحرية مثيلة للتسهيلات التي حصل عليها أثناء الحرب مع ايران وطلب كذلك تطبيق معاهدة الدفاع المشترك بين البلدين، وإعمال عدد من نصوصها يعطي العراق ميزات اقتصادية واستراتيجية».

ونقف هنا لنسأل: دفاع مشترك ضد من؟! هل كانت الدولتان مشتركتين في حرب ضد دولة ثالثة لتطبيق معاهدة دفاع مشترك؟ أم هي أحد الأغلفة التي يتفنن فيها طغاة بغداد لكي يقدموا من خلالها أطماعهم ؟!

ونعود إلى سياق الحديث: «وظن الدكتور حمادي أن نظيره الكويتي وافق. وطلب الشيخ صباح تشكيل لجنة لترسيم الحدود وظن أن نظيره العراقي وافق..».

أيه حكاية «ظن» هذه يا أستاذ هيكل؟ ما علينا..

نستأنف:

«وعندما عاد الشيخ صباح إلى الكويت كتب إلى الدكتور سعدون حمادي لتعزيز الاتفاق (كما تصوره) مقترحا تشكيل لجنة «فنية» لترسيم الحدود، وفوجىء الدكتور سعدون حمادي (من واقع تصوره المختلف» عندما وجد أن الأمر فيما يتعلق بالطلبين العراقيين (التسهيلات والمعاهدة) قد أغفل ذكره، وأن لجنة ترسيم الحدود يراد لها أن تكون لجنة فنية.

«ولم يكن ذلك رأى العراق في موضوع ترسيم الحدود، ففي حين كانت الكويت تعتبر الأمر «فنيا» كان العراق يعتبره «سياسيا».

«كان خط الحدود ـ في حساب العراق ـ مجرد نقط رسمت بقلم السير (بيرسي كوكس) عندما كان يتصرف في حدود بلدان الخليج الجديدة وكأنها خطوط في كراسة رسم!».

«وكان نفس الخط ـ في حساب الكويت ـ حقيقة أمر واقع، بصرف النظر عما جرى في يوم من الأيام».

ونسأل بدورنا لماذا هذا القدر من الاستخفاف بحدود دول الخليج الجديدة وحدها، وبالأخص حدود العراق مع الكويت؟ وهل كانت حدود العراق مع جيرانه الآخرين مثل سوريا والأردن وتركيا وإيران إلا خطوطا على الورق رسمها ـ أي «كوكس» ـ من رجال الدولة الاستعمارية التي سيطرت على بلدان المشرق العربي وانسحبت منها في أزمنة متفاوتة تاركة وراءها هذه الخطوط، لتكون بمثابة حدود للدول التي جلت عن ديارها؟

أم أن الأستاذ هيكل يشارك طغاة بغداد هذا الاستخفاف، الذي لم يكن وراءه إلا الطمع في اجتياح تلك الحدود، وقد فعلوها وكان الدمار من نصيب بلادهم، وأجبروا على الانسحاب إلى ماوراء تلك الحدود، وأخيرا فإن لجنة فنية من الأمم المتحدة هي التي أعادت رسم الحدود وفق ماجاءت في الاتفاقيات السابقة وانتزعت منهم الأرض الكويتية التي كانت تحت أيديهم، وكأن لسان حالها يقول: «إن الطمع يقل ما جمع»!

(٩)

مصداقية هيكل.. ووثائقه!

في بداية القسم الخامس من الفصل الأول من الباب الثاني من كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «حرب الخليج» يقول الكاتب استئنافا للحديث عن المباحثات التي دارت بين كل من الكويت والعراق حول المشاكل المعلقة بينهما، ص٣٠٤:

«وكان ذلك كله دائرا بين البلدين على خلفية الأزمة المتصاعدة بين العراق والغرب بسبب الصواريخ والأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية. ثم قصة المدفع العملاق، ومحاكمة الصحفي الايراني «بازوفت» واعدامه، وكالعادة ارتفعت أصوات تنادي بقمة عربية لمواجهة المخاطر المحدقة بالعراق، وأضاف السيد ياسر عرفات إلى فكرة القمة تحبيذ عقدها في بغداد لتكون مظاهرة لتأييد العراق في مواجهة تهديدات أمريكية واسرائيلية ضده».

وأذكر قارىء هذه الفصول بأنني قد سبق أن بينت في فصل سابق، أن كل الصخب الذي دار مابين العراق من جانب واسرائيل والولايات المتحدة والغرب بصفة عامة، انما كان بمثابة سحابة الدخان السوداء، التي تعمد حكام العراق اطلاقها بغية التضليل عن هدفهم الحقيقي في العدوان على الكويت، واستجلابا لتعاطف عربي عام معهم، حينما يقدمون على هذه الفعلة، ولم تكن هناك «أزمة» حقيقية «متصاعدة»، على حد تعبير الأستاذ هيكل مابين العراق والغرب، وإنما كانت هناك حملات كلامية فحسب! ولعل تعبير «خلفية الأزمة» الذي استخدمه الأستاذ هيكل قد أفلت منه ليشي بحقيقة الموقف دون ارادة منه! ذلك أن تعبير «الخلفية» هذا مستعار

من لغة المسرح، وتعتبر الخلفية جزءا من «الديكور» الذي تدور «الأحداث المسرحية» في اطاره، وذلك بالضبط ما كان عليه الوضع حينما أقدم حكام العراق على غزو الكويت! مثلوا أنهم بصدد «صدام محقق» مع اسرائيل والولايات المتحدة، أما مقصدهم الحقيقي فكان العدوان على الكويت!

المهم، عقدت هذه القمة في بغداد، على حد ماروى الأستاذ هيكل، يقول في ص٣٠٥:

«كان العنوان المقترح للقمة منذ البداية هو: التحديات التي تواجه الأمن القومي العربي من اسرائيل».

«وعندما أخذ العراقيون في وضع بنود جدول الأعمال تحت هذا العنوان الواسع، توصلوا في النهاية إلى أربعة بنود على النحو التالي»:

١ ـ التهديدات التي يتعرض لها العراق من جانب الولايات المتحدة واسرائيل.
٢ ـ القيود التي يفرضها الغرب على تصدير التكنولوجيا المتطورة إلى العالم العربي.
٣ ـ المقررات الاقتصادية لقمة عمان ١٩٨٠م (وهي القمة التي ناقشت مشروعا واسعا للتنمية في العالم العربي).
٤ ـ القضايا الخاصة التي ترى وفود عربية أن تطرحها على المؤتمر».

وبعد أن يذكر المؤلف طرفا من المناقشات التي دارت في الاجتماع التمهيدي للقمة، وهو اجتماع وزراء خارجية الدول العربية، حول البند الأول من جدول الأعمال المقترح، واعتراض كل من مصر والسعودية عليه يقرر التالي في ص٣٠٧:

«وفي حقيقة الأمر، فإن خطا غير منظور بدأ يرتسم في أجواء القمة»، «العراق يصر على ادانة الولايات المتحدة بأوضح عبارة ممكنة»، «ومصر والسعودية علنا ـ

ويـاقي دول الخليج من طـرف خفي ـ يرون أنـه من الصعب ادانة دولـة بالاسم دون وجود دليل مادي يشير إلى اتهامها».

ودون أن يوضح لنـا الأستاذ هيكـل ما انتهت إليـه مناقشـات وزراء الخارجيـة حـول هذا المـوضوع، ومـاهية الجـدول الذي اتفق عليـه، ينقلنا مبـاشرة إلى افتتـاح القمة، يقول:

«وفي هذه الأجواء الملبـدة ألقى الرئيس صـدام حسين خـطاب افتتاح القمـة، وكان هذا الخطاب هو البداية الحقيقية لأزمة الخليج، فقد برزت فيه عدة نقاط أهمهـا قوله: «يجدر بنا أن نعلن بوضوح أن اسرائيل إذا ما اعتـدت وضربت فاننـا سنضرب بقوة، وإذا ما استخدمت أسلحة دمار شامل ضد أمتنا سنستخدم ضدها مـا نملك من أسلحـة دمار شـامل، وأن لاتنـازل عن تحريـر فلسطين. ومن الحقـائق التي أكـدتها التجارب أن الولايات المتحدة الأمريكية تتحمل مسؤولية رئيسيـة، بل مسؤوليـة أولى في السيـاسات العـدوانية والتـوسعية التي يمـارسهـا الكيـان الصهيـوني ضـد الشعب الفلسـطيني والأمة العـربية». ثم قـولـه: «إننـا كعـرب مستهـدفـون في صميم أمننـا ومصالحنا من هذه السياسـات الامريكيـة، وعلينا أن نقـول ذلك لأمـريكا صراحـة، وعلينا أن نقول لها أنها لا يمكن أن تواصل هذه السيـاسة في الـوقت الذي تـدعى فيه الصداقة للعرب، فهذه السياسة ليست سياسة صداقة، وإنما هي سياسـة تضر وتهدد أمن الدول العربية والمصالح الجوهرية للأمة العربية، وعنـدما نقـول لها هـذا بصوت واحـد وبنفس النظرة والقـوة والوضـوح، فإننـا عـلى ثقـة أنها ستتـدارس هـذا بعمق وستنظر لمصالحها بدقة»، ثم قوله في النهاية: «علينا أن نعلن بصوت قوي بـأنه لايحق لكـائن من يكون أن يتمتـع بحظوة في مـواردنا وثـرواتنا في الـوقت الذي يحـاربنـا أو يناهض تقدمنـا العلمي والتكنولـوجي، وأن نحول هـذا المبدأ إلى سيـاسة ومفـردات تطبق ويلتزم بها بصورة جماعية».

ولعل القارىء يدهش ـ كما دهشت ـ لوصف الأستاذ هيكل لهذا الخطاب، كما جاء في أول حديثه عنه، بأنه هو «البداية الحقيقية لأزمة الخليج»! ولكن هذه الدهشة تزول بعد مطالعة أربع صفحات أخرى لاغير من كتاب هيكل، حيث يقول في بداية القسم السادس من هذا الفصل، في ص٣١١:

«ولقد كتبت جريدة «الواشنطن بوست» افتتاحية في التعليق على أوضاع الشرق الاوسط جاءت فيها فقرة لافتة للنظر، وهي: «أن وقائع قمة بغداد، وخطاب صدام حسين فيها كانت هي المناسبة التي تأكدت فيها أجهزة ادارة السياسة الخارجية الامريكية من. أن هدف صدام حسين ليس في اسرائيل ولكنه في الخليج»!!

وهكذا انكشفت لعبة صدام حسين، بكل جعجعته الفارغة عن اسرائيل، أمام الادارة الامريكية، وأمام «واشنطن بوست»، فلم يكن أمام الأستاذ هيكل مفر من أن يشاركهما نفس النظرة إلى خطاب صدام حسين ومدلوله! الكلام الذي أورده هيكل من الخطاب كله عن أمريكا واسرائيل، ولكن طاغية العراق كان باله مشغولا بأشياء أخرى! يورد هيكل طرفا منها من نوع قوله في ص٣١٠:

«ثم سأله الملك فهد عن العلاقات مع الكويت، ورد الرئيس صدام حسين: «غير قابلين بشيء حتى الآن، لا حصص البترول ولا تخطيط الحدود. الخ، حتى يصل إلى القول: «ثم اقترح الملك عقد اجتماع على مستوى القمة لعدد محدود من دول الخليج المنتجة للبترول بغية التوصل إلى حل حازم وحاسم لقضية الحصص (وبالتالي الأسعار) ثم قال الملك أخيرا: كل المشاكل ميسرة ان شاء الله، وعندما نجتمع سويا ومعنا الشيخ زايد والشيخ جابر فاننا سوف نحل كل شيء»، ويضيف هيكل بعد ذلك مباشرة:

«وحدثت محاولة مشابهة من أمير الكويت، فقد انتهز فرصة قيام الرئيس صدام حسين بمرافقته الى المطار لوداعه واقترب من الجو الذي ساد أعمال القمة، ومن

المصادفات أن أمير الكويت بدأ حديثه في السيارة مع الرئيس صدام حسين من حيث انتهى الملك فهد، فقد قال ما مؤداه: «إن كل المشاكل لها حل، ونحن أخوة وأول من يتفهم ظروف العراق».

«ورد الرئيس صدام حسين بما مؤداه» : الحقيقة أن العراق حائر معكم، حين نطالبكم بمساعدات تذكروننا بالديون، وحين نذكركم بحصص البترول المتفق عليها حتى لا تنخفض الأسعار، تطلبون توقيعنا على التنازل عن أرض عراقية نحن في حاجة إليها لكي نجد منفذا الى البحر!

«واختار أمير الكويت أن يبدأ بنقطة الديون، فسأل الرئيس صدام حسين: هل طالبكم أحد بأن تدفعوا الديون؟ ـ نحن لم نطالبكم»، «ورد الرئيس صدام حسين قائلا: «لماذا لا تتنازلون عنها صراحة؟»»، «ورد أمير الكويت بقوله : «لسببين: سبب يتعلق بمصالحنا لأننا لو تنازلنا عن الديون فسوف نجد كل مدين للكويت يطلب المعاملة بالمثل: ونحن لدينا ديون كثيرة عند أطراف كثيرة، والسبب الثاني يتعلق بمصالحكم، فلو أننا أعفيناكم من الديون فسوف تبدو مديونيتكم أقل في صندوق النقد الدولي، وسوف يضغط عليكم آخرون ليقتضوا منكم ديونكم، ومن مصلحة العراق أن يبدو دينه كبيرا على الورق».

«ولم يكن الرئيس صدام حسين مقتنعا، وكان تعليقه أنه يظن العكس، فانه كلما قلت مديونية العراق كما هي ظاهرة في الورق، فان فرصة العراق للحصول على تسهيلات من الآخرين سوف تزيد».

«وكان الركب قد وصل إلى المطار، وحين بدأ الرئيس صدام حسين ينتقل إلى موضوع الحدود، كان رد أمير الكويت هو: «أنه لابد من تنشيط عمل اللجان».

لم يقل لنا الأستاذ هيكل من أين علم بهذا الحوار مابين أمير الكويت وصدام حسين؟ ومن قبله الحوار بين هذا الأخير والملك فهد، ولكن لو صح أن هذا الحوار

قد دار بالفعل، فمعنى ذلك أن أمير الكويت كان مستعدا لاعفاء العراق من ديونها دون إعلان ذلك، وقد سبق أن ذكرت في فصل سابق مارواه هيكل من ابداء الشيخ سعد ولي العهد ورئيس الوزراء استعداد الكويت لاعطاء تسهيلات في جزيرتي بوبيان ووربة لايواء الأسطول العراقي «المشرد» على حسب ما ادعى صدام حسين، ومعنى ذلك كله أن نية الكويت كانت صادقة في التعاون مع العراق ومساعدته على اجتياز صعوباته بعد انتهاء حربه مع ايران، ولكن نية طغاة العراق كانت من نوع آخر، كانت تضمر الشر لمن مدوا إليهم أيديهم بالعون، وماتزال ممدودة به، وأن إثارة القضايا من هذا النوع كانت من باب التحرش «والاستفزاز» تمهيدا للعدوان.

* * *

نتنقل بعد ذلك إلى الفصل الثاني من الباب الثاني من كتاب الأستاذ هيكل، وعنوان هذا الفصل: «على طريق اللاعودة»! ويبدأ المؤلف بما يلي ص ٣١٣:

«إن المفاجأة الحقيقية في الغزو العراقي للكويت هي أن هذا الغزو جاء متناقضا مع كل الحسابات والتقديرات العراقية، كما عبر عنها صانعو القرار العراقي بأنفسهم في المرحلة السابقة على هذا الغزو».

«كان الرئيس صدام حسين يشير في كل تحليلاته التي يعرضها، حتى أثناء خطبه العامة إلى فترة حرجة في العلاقات الدولية، وهي فترة سوف تكون السيادة المطلقة فيها على شؤون العالم وادارة صراعاته في يد الولايات المتحدة الأمريكية لا ينازعها فيها أحد، والسبب الرئيسي هو انسحاب الاتحاد السوفيتي الكامل وتسليمه بغير شروط أمام الهيمنة الأمريكية».

«وكان الرئيس صدام حسين في أحاديثه الصحفية وفي خطبه العامة، وحتى في مداخلاته أثناء اجتماعات القمم التي عقدت في ذلك الوقت، بما فيها مداخلته أمام

قمة مجلس التعاون العربي في عمان في شهر فبراير ١٩٩٠م - يتحدث بواقعية عن هيمنة أمريكية تفرض نفسها على الجميع. وكان يقدر - كما قال في عمان - أن هذه الهيمنة سوف تستمر لخمس سنوات على الأقل تبدأ بعدها حركة الموازين في اجراء تعديلات وتغييرات يصعب التنبؤ بها الآن».

«ومن ناحية أخرى فإن كل صناع القرار العراقي - وبلا استثناء - كان يساورهم إحساس بأن هناك مؤامرة على العراق تستهدف ضربه وتصفية قوته، وانهاء دوره في المنطقة لسنوات قادمة».

«وكان لابد لهذه التقديرات والحسابات أن تدعو لمزيد من الحذر والحيطة».

«ولكن الذي حدث لسوء الحظ كان على العكس مما توحي به التقديرات والحسابات العراقية، فان الاقدام على غزو الكويت في هذه الظروف أصبح قفزة الى الأمام في الطريق إلى الكارثة، بينما المنطق المستمد من التقديرات والحسابات كان يستدعي خطوة إلى الوراء لاتقائها».

ماذا نفهم من هذا الكلام؟

نفهم منه أولا، أن الصدام لم يكن محققا ما بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق - كما زعم الأستاذ هيكل في فصول سابقة من كتابه - فباعترافه أن غزو الكويت، أو تلك القفزة إلى الامام هي التي قادت إلى الكارثة التي كان يمكن اتقاؤها - على حد قوله - بخطوة إلى الوراء، أو عدم القفز على الاطلاق!

ونفهم منه أن صدام حسين وأعوانه من الطغمة الحاكمة في بغداد لم يكونوا غافلين عما ينتظرهم، أو بالأحرى ينتظر بلادهم بسبب تلك الخطوة الاجرامية، فالولايات المتحدة الأمريكية لم تكن هي القوة الكبرى الوحيدة في العالم آنذاك فحسب، بل لن تسمح لهم باحتلال الكويت، وتهديد بقية دول الخليج، وبالتالي

تهديد المصالح الأمريكية والغربية عموما في بترول المنطقة، وأن الاتحاد السوفيتي لن يهب لنجدة حكام العراق في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، لأن الاتحاد السوفيتي كان في طريق المصالحة الدولية مع أعدائه السابقين، بل في طريق الزوال كدولة موحدة من على خارطة العالم، ولو لم يكن ذلك، فقد كان يقر بأن منطقة الخليج هي منطقة مصالح أمريكية وغربية بالدرجة الأولى، وليس في مقدوره التصدي لها في تلك المنطقة، ولا هو في صالحه!

أما أن «صناع القرار العراقي» ـ كما يقول الأستاذ هيكل ـ كان يساورهم احساس بأن هناك «مؤامرة على العراق تستهدف ضربه وتصفية قوته»، فقد كانوا هم أصحاب المؤامرة بالدرجة الأولى، حينما قامروا على مستقبل بلادهم على هذا النحو الفاجر بغزو الكويت.

يبقى أن ما حدث لم يكن «لسوء الحظ» كما ذهب الأستاذ هيكل، فالحظ لم يكن له دخل في الموضوع، حينما تقدم عصابة مغامرة من نوع حزب البعث العراقي على ما أقدمت عليه خلافا لكل الأعراف الدولية والمواثيق، وحقوق الجيرة والأخوة العربية.. الخ، الا اذا كان يقصد سوء حظ هذه الأمة في أن يتربع على قاعدة الحكم بأحد أقطارها عصابة من هذا النوع!

* * *

يقول الأستاذ هيكل بعد ما تقدم في ص٣١٤:

«ويميل بعض صناع القرار العراقي ـ بنوع من القدرية ـ الى تشبيه ما حدث للعراق ـ بما حدث لمصر قبل ذلك في معركة ١٩٦٧م ـ بينما الواقع أن الفارق بين الحالتين كبير».

ولا أدري ما الذي يقصده الأستاذ هيكل، أو صناع القرار العراقي بتعبير

«القدرية» هذا؟ هل يعنون قدرهم أو قدر الشعب العراقي، الذي ضحوا بمستقبله وبمقومات حياته على مذبح أهوائهم المجنونة؟

ويورد الأستاذ هيكل مجموعة من الفروق بين الحالتين، نكتفي منها الآن بقوله:

«في سنة ١٩٦٧م ـ كان التصرف المصري بطلب جلاء قوات الطوارىء الدولية عن خطوط الهدنة مع اسرائيل قرارا داخليا مصريا، لم يكن دخولا بالقوة في أرض دولة أخرى. وبالتالي فان مصر ١٩٦٧م كانت في وضع الدفاع عن النفس، وكان ذلك يعطي لموقفها شرعية قانونية لاشك فيها».

«كما أن الداعي إلى هذا القرار، كان رغبة مصر في المشاركة في الدفاع عن سوريا بغير حاجز أو عائق، وبالتالي فان الرأي العام العربي كان يمكن تعبئته بالكامل وراء الموقف المصري».

«وفي سنة ١٩٩٠م بدا العراق مبادئا بالغزو، والهدف دولة عربية ثانية».

وقد تعمد الأستاذ هيكل أن يستعمل كلمة «بدا»، بدلا من كان، كأن العراق لم يكن كذلك، أو كأنه يصدق ما ادعاه حكام العراق عن خلاف الحدود بينهم وبين الكويت، بأنه كان بمثابة عدوان أو اعلان للحرب عليهم!!

ويدخل في هذا الباب ما كتبه الأستاذ في ص ٣١٦ حيث قال:

«ان العراق سنة ١٩٩٠م كان لديه ما يدعوه إلى الشك بأنه يواجه مؤامرة واسعة النطاق شاركت فيها أطراف عربية بصرف النظر عما إذا كانت هذه الأطراف العربية على علم كاف بالمدى الذي يمكن أن تصل اليه الولايات المتحدة إذا جاءت ظروف تفرض عليها ـ من وجهة نظر مصالحها الحيوية ـ أن تتصرف أو أن هذه الأطراف لم تكن على علم» ثم يردف ذلك بقوله:

«وتكشف وثيقة كويتية عثر عليها العراقيون في القصر الأميري بعد الغزو عن صورة تستحق الدرس والتأمل في التورط الذي انزلقت إليه أطراف عربية، الوثيقة منسجلة على أوراق ادارة «أمن الدولة» أي المخابرات ـ في وزارة الداخلية الكويتية، وهي برقم س/٥٤٠»، ثم يورد نص الوثيقة، المعنونة باسم الشيخ سالم صباح السالم الصباح وزير الداخلية، والموقعة بامضاء العميد فهد الاحمد الفهد، مدير عام الإدارة العامة لأمن الدولة، وتتحدث عن زيارة قام بها كاتب الرسالة والعقيد اسحق عبد الهادي شداد مدير مباحث محافظة الأحمدي، إلى مقر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وتم فيها الاتفاق على عدة مسائل، نكتفي منها هنا بما يختص بالعراق، وهو البند الخامس ونصه كما يلي:

«اتفقنا والجانب الأمريكي على أهمية الاستفادة من الوضع الاقتصادي المتدهور في العراق للضغط على حكومته للعمل على ترسيم الحدود معها. وقد زودتنا وكالة المخابرات المركزية بتصورها حول طرق الضغط المناسبة بحيث يبدأ التعاون الواسع بيننا وبينهم على شرط أن يكون تنسيق هذه الفعاليات على مستوى عال».

ويقول الأستاذ هيكل بعد الفراغ من ايراد نص الوثيقة كله:

«وفيما بعد قام العراق بإيداع هذه الوثيقة في الأمم المتحدة، وقد قبلتها السكرتارية العامة للأمم المتحدة، وقامت بترجمتها كوثيقة، وخصص لها الكاتب البريطاني الأشهر «أليستر كوك» حديثا بأكمله في برنامجه العالمي «رسالة من أمريكا» واستغرق الحديث ربع الساعة من هيئة الاذاعة البريطانية باللغة الإنجليزية، وكان ذلك في شهر أكتوبر ١٩٩٠م، وروى «أليستر كوك» في حديثه الاذاعي أنه تأكد من أن رقم التليفون المذكور في الوثيقة صحيح، وأن هذا الرقم تغير في ظرف ساعة واحدة من اعلانه بعد ايداع الوثيقة في سجلات الأمم المتحدة».

ويبدو أن الاستاذ هيكل أورد حكاية رقم التليفون هذه دليلا على صحة الوثيقة

التي قدمتها الحكومة العراقية إلى الأمم المتحـدة بعد الغـزو، وصدور قـرارات مجلس الامن بادانته، ولا أعتقد أن الحكومة العراقية يعوزها أن يكون لديها رقم تليفون أحد العاملين بالمخابرات المركزية الأمريكية!

ومع ذلك، وإذا افترضنا صحة الوثيقة المذكورة، فإن البنـد الذي أوردنـا نصه والخـاص بالعـراق لايصلح دليلا عـلى وجود «مؤامـرة واسعـة النـطاق تـورطت فيهـا أطـراف عربيـة» كما يـزعم الأستاذ هيكـل، فالاتفـاق «عـلى الاستفـادة من الـوضـع الاقتصادي المتدهور للعراق للضغط على حكومتـه للعمل عـلى ترسيم الحـدود معها» لايرقى الى ذلك، فمن الطبيعي أن تسعى حكومة الكويت معتمدة على مـاقدمتـه من معونات سخية للعراق أثناء حربه مع ايران، وعجزه الظاهر عن سداد ديونه لها، لحثه عـلى ترسيم الحـدود معها، مقـابل اغـراءات من نوع التنـازل أو عدم المـطالبة بهـذه الديون، على نحو ما جاء في الحـوار الذي أوردنـاه فيما سبق نقـلا عن الأستاذ هيكـل والذي دار بين أمير الكويت وصدام حسين وهما في طريقهما إلى المطار بعد الانتهاء من قمة بغداد، ومطلب ترسيم الحدود، هو مطلب حيوي بالنسبة لـدولة الكـويت، التي واجهت منذ حصولها على الاستقلال في عام ١٩٦١م الدعاوى العراقية، ليس بالنسبة لهذه القطعة أو تلك من الأراضي الكويتية فحسب، بل الادعاء الرئيسي بـأن الكويت كلها جزء من العراق!!

أين المؤامـراة اذن يا أستـاذ هيكل، الا اذا كـان هواك «عـراقيا» أو بـالأحـرى بعثيا، وكأنك نسيت موقف صديقك جمال عبد الناصر المبدئي من هذه القضية حينـما أرسل القوات المصرية للدفاع عن استقلال الكويت ضد أطماع ودعاوى عبد الكـريم قاسم!، وقد سجلت هذا الموقف في مواضع أخرى من فصول كتـابك، الحـافل بكم لانهائي من التناقضات؟!

ويبدو أن التناقضات ليست هي وحدها مايحفـل به كتـاب الأستاذ هيكـل عن

حرب الخليج، ففي أثناء تحريري لهذا الكتاب طالعتنا الصحف المصرية بتاريخ ١٥ يوليو (تموز) ١٩٩٢م، بالبيان التالي:

«صرح متحدث باسم وزارة الخارجية بأن جمهورية أفريقيا الوسطى تقدمت بشكوى رسمية للحكومة المصرية جاء بها أن السيد محمد حسنين هيكل مؤلف كتاب (أوهام النصر) أورد في الطبعة الإنجليزية للكتاب في ص١٨ واقعة مختلقة لاتمت للحقيقة بصلة إذ زعم «أن طائرة محملة بالجنود من جمهورية افريقيا الوسطى قد توقفت في مطار القاهرة في طريقها الى المملكة العربية السعودية أثناء أزمة الخليج، وأضاف المؤلف أن المسؤولين المصريين في المطار أبدوا دهشتهم وتساءلوا عن سبب قيام هذا القطر الافريقي بارسال قوة عسكرية الى السعودية، فكان رد قائد القوة أن بلاده تسعى للحصول على عون مالي، ولما كانت الولايات المتحدة توزع المال على هؤلاء الذين يشاركون في الحرب فإن جمهورية افريقيا الوسطى بادرت بارسال هذه القوة لكل تحصل على نصيبها من هذه الأموال»، وذكرت حكومة إفريقيا الوسطى في شكواها أنه لم يحدث أن توقفت أي طائرة تابعة لها محملة بالضباط أو الجنود بأي مطار حربي في طريقها الى السعودية، بل ان افريقيا الوسطى لم تشارك بأي قوات في عملية تحرير الكويت».

«واستطرد المتحدث باسم الخارجية المصرية قائلا: أنه ببحث الموضوع مع السلطات المصرية المختصة في مصر تبين أنه لم تتوقف أي طائرة محملة بالجنود المتجهين من جمهورية افريقيا الوسطى الى المملكة العربية السعودية الشقيقة في أي مطار مصري أثناء أزمة الخليج، وبالتالي فإن الحوار المنسوب الى مسؤول مصري بالمطار وأحد ضباط جمهورية افريقيا الوسطى مختلق تماما وليس له أساس الصحة».

«واختتم المتحدث باسم وزارة الخارجية تصريحه بأن تضمين الكتاب المذكور

هـذه الواقعـة المختلقـة هـو أمـر مؤسف يسيء إلى حـريـة النشر التي تسعى مصر إلى ترسيخها وتثبيتها».

ونختتم نحن هذه الحلقة بسؤال للأستاذ هيكل: من أين استقى كل ما حشده من معلومات وأقاصيص ووثائق في كتابه، وما هو مدى مصداقيتها؟!

(١٠)

أكاذيب ما قبل الغزو

في الفصل الثاني بعنوان «على طريق اللاعودة»، من الباب الثاني من كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن حرب الخليج، وبعد أن أورد المؤلف ما سماه بالوثيقة التي أودعها العراق الأمم المتحدة في أكتوبر ١٩٩٠م، وتحدثنا عنها في الحلقة السابقة، كتب يقول في ص ٣١٩:

«كان العراق إزاء هذا كله وغيره مطالبا بأقصى قدر من ضبط النفس، ومع ذلك فإن نزعات الغضب فاقت ضرورات الصبر، وربما كان أكثر ما أثار غضبه في تلك الفترة هو القرار الذي أصدرته لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ الأميركي، بقانون يفرض العقوبات التجارية والاقتصادية عليه بسبب انتهاك حقوق الإنسان فيه، وكأن تلك قضية جرى اكتشافها في التو واللحظة».

والعبارة الأخيرة من هذه الفقرة، معناها أن الأستاذ هيكل يعترف بأن انتهاك حقوق الإنسان كان جاريًا في العراق منذ زمن طويل! ولكنه يعيب على الأمريكان أنهم اختاروا هذا الوقت لمعاقبة العراق على هذا الانتهاك، وعلى حد تعبيره ـ وكأن تلك قضية جرى اكتشافها في التو واللحظة!! ثم يمضي قائلا:

«والحاصل أن فرض العقوبات الاقتصادية على العراق بدأ يشعره بأن هناك محاولة لخنقه. وراحت بغداد تفكر فيما يمكن أن تفعله، وعقد مجلس قيادة الثورة العراقي سلسلة اجتماعات في الأسبوع الأول من يوليو، وصدر بيان رسمي يقول إن

هذه الاجتماعات كانت مخصصة لبحث إمكانيات التحول إلى التعددية الحزبية في العراق، وكان الواقع أن هذا الموضوع، لم يستغرق من وقت المجلس إلا أقله، في حين كان أكثره مخصصا لمناقشة التطورات المتلاحقة والبحث عن سبيل لمواجهتها وكان الاعتقاد السائد في مناقشات المجلس أن العقوبات الاقتصادية مقدمة لإجراءات تأتي بعدها، وليست عقابا أخيرا في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال».

«ومن الواضح الآن أن مناقشات المجلس اتجهت إلى تصعيد الأزمة بدلا من تهدئتها وذلك بمنطق أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، وكان ذلك خطأ رئيسيا في الظروف الموضوعية السائدة في ذلك الوقت على مستوى الإقليم وعلى مستوى العالم».

وهذه الفقرة من كلام الأستاذ هيكل تكشف دون قصد منه عن طبيعة الطغيان وعلاقته بالانتحار القومي:

- فمجلس قيادة الثورة العراقي حينما اجتمع في الأسبوع الأول من يوليو، كان الغرض الأصلي المعلن عنه هو بحث إمكانيات التحول نحو التعددية الحزبية، ولكن ذلك لم يستغرق من المجلس إلا أقله - على حد ما ذكر الأستاذ هيكل، فإن بحث هذا الموضوع بشكل جدي كان معناه أن يتنازل حزب البعث العراقي عن سلطته المطلقة وعن تكميمه لأفواه معارضيه وبطشه بهم! بينما لو قرروا التحول بشكل جدي إلى التعددية الحزبية ربما كانوا قد ظهروا بمظهر الاقتراب من الديموقراطية، التي تحولت إليها معظم الأنظمة الاستبدادية المماثلة لنظامهم في شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي، وربما أغرى ذلك الغرب، والولايات المتحدة الأميريكية بشكل خاص بالعطف على تحولهم هذا، وأعفوهم من العقوبات الاقتصادية باعتبار أن إقرار الحريات الديمقراطية، هو مقدمة للتوقف عن انتهاك حقوق الإنسان!
- واختار الطغاة في بغداد بدلا من ذلك ما سمّاه هيكل «بالهجوم»، الذي هو «أفضل وسيلة للدفاع»! وبالرغم من أن الأستاذ هيكل قد اعتبر ذلك خطأ رئيسيا، إلا أنه

كان أشنع من ذلك بكثير، فهم لم يهاجموا أمـريكا ولا إسرائيـل، لأن ذلك لم يكن في طوقهم، ولا في نيتهم، وإنما هاجموا دولة عربيـة شقيقة هي الكـويت، ولكنهم أضافوا بذلك إلى الدناءة في اختيار ميدان «هجومهم» الارتطام بالشرعية الدولية، ومصالح الغرب الأساسية في المنطقة، فكان ذلك بمثابة انتحار سياسي، قاد وطنهم إلى الدمار!

* * *

يقول الأستاذ هيكل في ص ٣٢١:

«في المقر المؤقت لجامعة الدول العربية في تـونس توجـه السيد طـارق عزيـز إلى مكتب الأمين العام السيد الشاذلي القليبي ـ وسلمه رسالـة من الحكومـة العراقيـة . . ووقع الانفجار».

«بدأت الرسالة العراقية بمقدمة إنشائية طويلة، ثم وصلت إلى صميم الموضوع فطرحت قضيتين: »

«قضيـة الحدود: وفي صـدرها قـالت الرسـالة إن حكـومـة الكـويت استغلت انشغـال العراق بـالحرب مـع إيران ومضت في تنفيـذ مخطط يهـدف إلى تصعيد وتـيرة الزحف التدريجي المبرمج باتجاه العراق، فصارت تقيم المنشـآت العسكريـة والمخافـر والمنشآت النفطية والمزارع على أرض العراق. وقد سكتنا على ذلك واكتفينا بالتلميـح والإشـارات، ولكن تلك الإجـراءات استمـرت وبـأسـاليب مـاكـرة وإصرار يؤكـد التعمد. . وقد صبرنا على هذه التصرفات بدواعي الحكمة والحلم. وكان استعـدادنا لمزيد من التحمـل كبيرا لـولا انتقال الأمـور إلى مستوى خـطير لم يعد ممكنـا السكوت عليه».

«وكانت النقطة الثانية هي : أن الحكومة الكويتية اشتركت مع حكومة الإمارات العربية المتحدة في تنفيذ عملية مدبرة لإغراق سوق النفط بمزيد من الإنتاج خارج حصتها المقررة في الأوبك وبمبررات واهية. . وبذرائع لم يشاركهما فيها أى من الأشقاء من الدول المنتجة. وقد أدت هذه السياسة المدبرة إلى تدهور أسعار النفط تدهورا خطيرا. . »! يقول بعد ذلك :

«ثم أضافت الرسالة العراقية إلى ذلك اتهاما للكويت بأنها انتهزت فرصة ظروف الحرب، فأقامت منشآت نفطية على الجزء الجنوبي من حقل الرميلة العراقي وراحت تسحب النفط منه».

أما عن ردود أفعال هذه المذكرة فيقول هيكل في ص ٣٢٤ :

«في الكويت أذاعت وزارة الخارجية نص مذكرة رسمية وجهتها إلى الجامعة العربية ترفض فيها الاتهامات العراقية، وتقول إن العراق هو الذي اعتدى على أراضي الكويت وحفر آبارا داخلها استولى منها على بترول كويتي، ثم طلبت المذكرة تشكيل لجنة تابعة للجامعة العربية تتولى تسوية نزاع الحدود مع العراق».

وأظن أن اقتراح الكويت تسوية مشكلة الحدود مع العراق عن هذا الطريق، كان معقولا جدا لو وجد آذانا صاغية، أو نوايا سليمة غير مبيتة على العدوان، كما فعل طغاة بغداد فيما بعد.

في ص ٣٢٦ يقول هيكل :

«كانت حكومة الكويت تتلقى برقيات من سفيرها في بغداد السفير «إبراهيم البحوه» وكانت البرقيات مثيرة للقلق.

«ففي برقية منها قال السفير « البحوه» إنه لا يريد أن يتسبب في إثارة ذعر لا مبرر له، ولكنه يتلقى معلومات كثيرة عن تحركات قوات عراقية إلى الجنوب، . . إلى أن يقول في الصفحة ذاتها :

«وفي رسالة أخرى روى السفير «البحو» أنه التقى مع السفير السويدي في بغداد المستر «هنريك أمينوس»، وأن السفير السويدي روى له عن مقابلة جرت بينه وبين «عزة إبراهيم» نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، وخلالها قال السيد عزة إبراهيم للسفير: « إن العراق ليس على استعداد لأن يموت بالخنق الاقتصادي في صمت، وأن العراق على استعداد لأن يضحى بستة عشر مليونا من أبنائه في سبيل أن يعيش المليون الباقي في عز وكرامة»!!

وأظن أن هذا النوع من الكلام الذي هو أقرب إلى هلوسات المجانين، لا يصدر إلا عن طغاة لا يبالون بحياة أبناء شعوبهم، وهم على استعداد لأن يرسلوهم إلى الموت تبعا لأهوائهم الهوجاء . . ولا أدرى من هم «المليون» الذين يستبقيهم عزة إبراهيم ليعيشوا في عز وكرامة بعد أن يموت كل شعب العراق!

لعله يقصد أعضاء الطغمة الحاكمة في العراق وأقرباءهم على الأكثر!!

وينقل الأستاذ هيكل هذا الكلام الفاحش في قسوته وعجرفته وغبائه أيضا، دون أن يعلق عليه بكلمة واحدة! ويا ليتهم كانوا يصدرون ـ أى طغاة بغداد عن احتياج حقيقي، أو « خنق اقتصادي» كما يزعمون، وكما نقل عنهم الأستاذ هيكل، بينما تترامى الأنباء في كل وقت، حتى هذه الساعة عن الأموال الطائلة التي هربوها إلى الخارج، وعن البذخ الجنوني الذي يعيشون فيه، وعن الإسراف السفيه في الدعاية لزعيمهم صدام حسين، وكل إحتياجهم للمال، كان لمواصلة برامجهم في انتاج الأسلحة، وبالأخص أسلحة الدمار الشامل، ويا ليتهم أيضا حافظوا على تلك الصناعة بحسن السياسة، بل قادهم طمعهم وإجرامهم إلى التدمير الشامل المستمر لها حتى اليوم، بعد أن أقدموا على غزو الكويت، وواجههم مجلس الأمن الدولي، واتخذ قراراته باجبارهم بالقوة المسلحة على الجلاء عن الكويت، يضاف إلى ذلك قرارات بتدمير تلك الأسلحة ووسائل صنعها، فضلا عن مضاعفة الحصار

الاقتصادي، الذي كانوا ـ وقت الإقدام على جريمتهم لا يشكون إلا من أقل القليل في هذا المضمار! ولكن هكذا شأن المجرمين الذين يقودون بلادهم إلى الانتحار!

* * *

ونعود إلى كتاب هيكل . . . يقول بعد ما تقدم:

«وكانت وكالات الأنباء تؤكد تحركات جيوش عسكرية متجهة إلى الجنوب، ونسبت جريدة «الواشنطون بوست» إلى أحد العسكريين الأجانب في بغداد أنه استطاع أن يعد بنفسه أكثر من ٢٠٠٠ مركبة عسكرية في قافلة واحدة متجهة إلى البصرة، وكان تقديره أنها تحمل فرقتين كاملتين من قوات الحرس الجمهوري . .

إلى أن يقول في ص ٣٢٧:

«وفي الصباح الباكر من اليوم التالي أصدرت حكومة الكويت بيانا تنفي فيه أنباء ترددت بأن الكويت قدمت شكوى ضد العراق إلى مجلس الأمن، وقال البيان الكويتي «إن الكويت تعلن التزامها بميثاق الجامعة العربية»

إن معنى ذلك أن الكويت ـ والأنباء تترامى عن الحشود العسكرية العراقية المتجهة إليها، والتهديدات التي انطوت عليها المذكرة العراقية ـ كانت ما تزال تحسن الظن بالأشقاء العرب، وترى أن أى خلاف عربي، بينها وبين دولة عربية أخرى مكان حله الطبيعي هو الجامعة العربية إعمالا لميثاقها، وترفض في تلك اللحظة إقحام «المجتمع الدولي» في الخلاف بينها وبين العراق . . . فهل يجوز بعد ذلك للأستاذ هيكل، أن يكرر دعوى الطغمة الحاكمة في العراق، وأن يصدق قبل أن يقرر أن الكويت كانت ضالعة في مؤامرة دولية لخنق العراق اقتصاديا؟!

إن أبسط مبادىء «علم النفس» ولا أقول السياسة، تقرر أن الإنسان يحب من

كان موضوعا لإحسانه ورعايته، ولقد رعت الكويت العراق في محنة حربه مع إيران أعظم الرعاية، وتحملت في سبيل ذلك ما تحملته، بما فيه القصف الإيراني لناقلاتها حتى اضطرت إلى طلب الحماية الأميركية لتلك السفن. . فهل يعقل بعد ذلك أن تتعمد الإساءة إليه على أية صورة؟! وصدق من قال:

ولم تزل قلة الإنصاف فاشية   في الناس حتى ولو كانوا ذوي رحم!

بعد ما تقدم يقول الأستاذ هيكل:

«وبدا أن الأزمة يمكن تطويقها خصوصا عندما أعلن مبكرا يوم ٢٤ يوليو أن الرئيس حسني مبارك توجه بالطائرة من القاهرة إلى بغداد لمقابلة الرئيس صدام حسين، وأن في نيته أن يتوجه بعد ذلك إلى الكويت لمقابلة الشيخ جابر، ثم ينتهي به المطاف في جدة لمقابلة الملك فهد».

«وكان الرئيس مبارك يحمل معه مشروع تهدئة من نقطتين:

- النقطة الأولى: وقف الحملات الإعلامية بين جميع الأطراف فورا.
- والنقطة الثانية: أن تبدأ الأطراف المعنية مباشرة مفاوضات هادئة على مستوى عال لبحث مشكلة الحدود بين البلدين باعتبارها المشكلة الحساسة التي عكرت جو العلاقات بين البلدين لسنوات طويلة.

«وأما بالنسبة لموضوع الأسعار فقد رئي تركه لإجتماع يعقده وزراء «الأوبك» بعد يومين في جنيف، وكان هناك شبه تراض على أن «الأوبك» سوف تضع سياسة من شأنها ربط حصص الانتاج بما يضمن رفع سعر البترول إلى ١٨ دولارا للبرميل».

«وفي بغداد يوم ٢٤ يوليو ١٩٩٠م تم اللقاء بين الرئيس حسني مبارك والرئيس صدام حسين. . إلى أن يقول في ص ٢٢٨:

«وكان اللقاء بين الرئيس حسني مبارك والرئيس صدام حسين مغلقا، اقتصر عليهما هما الاثنان فقط. . » ثم يشكو هيكل من أن تلك الاجتماعات ليس لها محاضر أو شهود، ومع ذلك يقرر ما يلي:

«فهم الرئيس مبارك من الرئيس صدام حسين أنه لا ينوي استخدام القوة ضد الكويت»

«وفهم الرئيس صدام أنه قال للرئيس مبارك أنه لا ينوي استخدام القوة ما دامت المفاوضات جارية. . »

وبغض النظر عن أن هيكل لايملك ما يعزز به ادعاءه أن هذا ما حدث بالضبط في اجتماع الرئيسين، فإن الكلام المنسوب إلى صدام حسين لا معنى له! فما هو معنى أن يفهم إنسان أنه قال كيت وكيت؟ إما أن يكون قد قاله أو لم يقله، هكذا بكل بساطة!

ولكن الأستاذ هيكل يورد هذ القصة المفككة لكي يحاول ستر الفضيحة التي أحاطت بصدام حسين بعد إقدامه على غزو الكويت، حينما تسامع العالم كله في غضب أنه قد وعد الرئيس مبارك بعدم استخدام القوة ضد الكويت ـ ثم استخدمها غدرا بعدها بأيام على أشنع صورة!

إن صدام حسين وعصابته ليسوا مجرد طغاة مجرمين فحسب، بل هم كذابون أدعياء لا يعرفون معنى لكلمة الشرف. .

ولعل هيكل قد أضاف بعد ما تقدم ـ دون أن يدري شاهدا صارخا على ذلك وهو قوله:

«وفي الطائرة على الطريق من بغداد إلى الكويت (المحطة الثانية في رحلة الرئيس مبارك) جد شيء أضاف إلى الحساسيات الإنسانية لمسة ضيق جديدة، فقد

تلقى الرئيس مبارك تصريحا صحفيا منسوبا إلى السيد طارق عزيز، قال فيه: «إن زيارة الرئيس مبارك لبغداد واجتماعه بالرئيس صدام حسين كان مخصصا لبحث قضايا ثنائية في العلاقات بين البلدين، ولم يكن عن أزمة الخليج ، كما روجت الأنباء السابقة». . !!

ويكتفي هيكل من التعليق على ذلك بقوله: «وأحس الرئيس مبارك أن هذا التصريح ليس منصفا في حق الجهود التي يبذلها، وأنه محاولة لإفراغ رحلته من مضمونها الحقيقي وتحجيم دوره في محاولات حل أزمة دهمت العالم العربي. .»

إن من يكذب هذا الكذب الصارخ في موضوع رحلة مبارك. . من طبيعة الأمور أن يكذب فيما دار بين الرئيسين من أقوال. . أليس كذلك يا أستاذ هيكل؟!

ويقارب هذا الفصل من كتاب هيكل نهايته، ولكننا نتوقف عند فقرة من توجيهات صدام حسين للوفد العراقي الذي ذهب للتفاوض مع الوفد الكويتي في جدة، يقول هيكل في ص ٣٣٢:

«كان توجيه الرئيس صدام حسين للسيد عزة إبراهيم قبل سفره إلى جدة تقضي (كذا) بالتشدد وبأنه «إذا أبدى الكويتيون عنادهم المعروف فقل لهم إن لدينا صورا فوتوغرافية لسور الطين القديم حول مدينة الكويت، وهذا هو خط الحدود الذي نحن على استعداد للإعتراف به. .»

وبالطبع فإن الكويت التي ذهب وفدها للتفاوض مع العراقيين حول ترسيم الحدود بينهما، كانت قد أصبحت كيانا آخر مختلفا تماما، عن تلك المدينة القديمة التي كان حولها سور من الطين. . كما تغير العراق ذاته خلال هذه المدة، ومع ذلك ، فهل احترم العراقيون موضع «سور الطين القديم حول الكويت»، حينما اجتاحت جيوشهم الكويت واحتلتها بأسرها، ثم غلفوا ذلك بدعوى أن «الفرع قد عاد إلى الأصل»؟!

أم أن هؤلاء السفهاء من الطغاة، لا حد لأكاذيبهم وادعاءاتهم وتلونهم من حال إلى حال، وتقلبهم من قول إلى قول؟!

* * *

ينتقل الأستاذ هيكل بعد ذلك إلى الفصل الثالث من هذا الجزء من كتابه، فيبدأه بالقول في ص ٣٣٣، تحت عنوان «الأزمة عند الذروة»:

«في الأيام القليلة السابقة على الغزو ـ كانت هناك اختلافات في الرؤى والتصورات بين ست من العواصم المهتمة بالأزمة أو المشاركة فيها بدور ما»، ومن بين تلك العواصم القاهرة، وعنها يقول:

«كانت القاهرة بحكم عضويتها في مجلس التعاون العربي ـ على صلة قريبة بالعراق. وربما كان الرئيس مبارك واحدا من الذين يرون أن للعراق في موضوع الحدود وجهة نظر لابد من سماعها، ونفس الشيء بالنسبة لموضوع بترول الرميلة ـ كما أنه على وجه اليقين كان يرى أن انخفاض أسعار البترول يؤثر أيضا على مصر التي أصبحت مصدرا للبترول من الحجم المتوسط، لكن الرئيس المصري كان يختلف مع أسلوب الرئيس العراقي. ولعله أيضا لم يكن يشعر بالراحة مع شخصية صدام حسين المتأثرة بتكوينه العقائدي وطموحاته إلى دور إقليمي، يراه الرئيس مبارك على حساب مصر. كذلك كان الرئيس مبارك يتصور مما فهمه في بغداد أن نظيره العراقي لن يقدم على شيء يؤدي إلى حرب. وقد وقف هو نفسه أكثر من مرة، وقال في خطب علنية أنه واثق من أن صدام حسين رجل سلام.»

وهذا الكلام يتكون من ثلاثة أجزاء:

الأول: يتعلق بموقف مصر أو الرئيس حسني مبارك من ادعاءات العراق. وأعتقد أن ما قاله الأستاذ هيكل بالنسبة للادعائين الأولين على الأقل ـ هو مجرد

افتراض مبني على الرجم بالغيب! فلم يحدث أن مسئولاً مصرياً تناول مسألة خلاف الحدود بين العراق والكويت بأي تعليق يتجاوز حد اقتراح أن تتم تسوية المشكلة إما بالتفاوض بين الدولتين المعنيتين أو من خلال لجنة تشكلها الجامعة العربية، ولو أن مصدراً مصرياً تكلم مع الأستاذ هيكل وحده في هذا الموضوع لكان قد أشار إلى ذلك ولو تلميحاً، أو لكان من واجبه أن يفعل!

الثاني: أما الجزء الثاني من كلام الأستاذ هيكل عن موقف القاهرة، فهو الذي بدأه بقوله: «ولعله أيضاً - أي الرئيس المصري - لم يكن يشعر بالراحة مع صدام حسين بتكوينه العقائدي وطموحاته إلى دور اقليمي يراه الرئيس مبارك على حساب مصر..!! وقد أعفانا الأستاذ هيكل من التساؤل عن مصدر هذا الرأي، وذلك بكلمة «لعله» التي بدأ بها هذا القول، لكي نفهم أن كلامه هنا مجرد استنتاج من جانبه، ولكنه استنتاج للأسف الشديد - يخالف الواقع ويميل بشدة إلى وجهة نظر حزب البعث!، فمسألة أن صدام حسين ذا تكوين «عقائدي».. قد أصبحت حديث خرافة الا من وجهة نظر البعث ومن يتحمسون له.. فقد كشف مسلكه عن طاغية شديد الشره للسلطة، عديم المبدأ والأخلاق، لا يتورع عن الفتك بأقرب الناس اليه من أجل أغراضه الخاصة أو لمجرد الشبهة.. ولا شك أن السلطات المصرية تعلم الكثير عن ذلك، وتعلم أن حديث صدام حسين عن العروبة، هو وحزب البعث لا ينطوي على أي اخلاص «عقائدي»، وإنما هو من الباب الذي وصفه أبو العلاء المعري بقوله:

انما هذه المذاهب أسباب لجلب الدنيا إلى الرؤساء!

أما عن طموحات صدام حسين إلى دور اقليمي «يراه الرئيس مبارك على حساب مصر» - كما قال هيكل، فذلك - فيما أعتقد - كلام بعثي أيضاً ! وكنت أعتقد بصفتي مصريا.. أن الأستاذ هيكل يعرف طبيعة مصر وموقفها من الأشقاء العرب،

وأنها أبعد ما تكون عن أن تشعر بالمنافسة مع أي من البلدان العربية، ولو تفوقت عليها واحدة أو أكثر من تلك البلدان في ناحية من النواحي، كالقوة العسكرية مثلا، أو الثروة. . الخ، فإن نظرة مصر إلى مثل هذا التفوق الأرجح أن يغلب عليها الفرح له، باعتبار أن ذلك سوف يكون مضافا لقوة الأمة العربية في مجموعها، في مواجهتها التاريخية، ليس مع الدولة الصهيونية وحدها، بل مع كل الدول التي سبقت مشرقنا العربي الاسلامي، في النهوض والقوة وتحصيل العلم وبناء الصناعة. . الخ، ان شعور مصر بالفجوة الحضارية بين بلادنا العربية والاسلامية والعالم المتقدم، شديد الضراوة ومبعث حزن عميق في الوجدان المصري، وتتمنى على مدى تاريخها الحديث لو أمكن تجاوزه بأي ثمن، ومن أي مصدر عربي أو اسلامي، وتعلم أن مردود ذلك في النهاية سوف يكون لصالحنا جميعا! ان الكلام «عن دور على حساب مصر» إنما يصدر عن قلوب مريضة مثل البعث العراقي الذي قد يتطلع إلى شيء من ذلك، ولكن مصر رغم مآخذها على هذا الحزب وممارساته، حتى قبل غزو الكويت، لم تتردد في مساعدة العراق في حربه ضد ايران بما تملك من خبرة في الميادين العسكرية، وعلى أيدي رجال من أبناء قواتها المسلحة، دفع بعضهم حياته ثمناً لذلك!

لقد أراد الأستاذ هيكل أن يبدو منصفاً أو «متوازناً» في هذه الفقرة فأساء إلى بلده مصر أشد الاساءة. .

أما الجزء الثالث من كلامه عن موقف القاهرة، وهو أن الرئيس مبارك كان يقول في خطب علنية «انه واثق من أن صدام حسين رجل سلام. .» فالرئيس مبارك كان يتمنى أن يكون صدام حسين كذلك، وألا يكون كذاباً مخادعاً إلى هذا الحد، كما كشف عن نفسه فيما بعد. . !

(١١)

الغزو بإذن أمريكي؟!!

مازلنا في بداية الفصل الثالث من الباب الثاني من كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن حرب الخليج، وعنوان الفصل هو «الأزمة عند الذروة»، وفي بدايته يناقش المؤلف مواقف بعض العواصم من الأزمة المحتدمة ما بين الكويت والعراق، عرضنا لتحليله لموقف القاهرة في الفصل السابق، وفي هذا الفصل نتابع تحليله لموقف واشنطون، يقول في ص ٣٣٥ : «أما العاصمة السادسة وهي واشنطون فقد انتقل تركيزها بسرعة إلى الخليج، فقد وجدت الأزمة تتصاعد بحساب الساعات وليس بحساب الأيام، وقد يكون ما لفت تركيز واشنطون إلى منطقة الخليج هو التلاحق السريع بين خطاب الرئيس صدام حسين، في مناسبة ١٧ يوليو، ثم رسالة السيد طارق عزيز إلى الأمين العام للجامعة العربية».. إلى أن يقول: «وهناك ظن شائع على نطاق واسع بأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت في تلك الشهور القليلة تحاول إسقاط النظام في بغداد، وربما أن استقراء الوقائع والاسترشاد بالوثائق يشير إلى أن الولايات المتحدة كانت تحاول تطويع وترويض النظام في العراق أكثر مما تحاول إسقاطه.

«وعندما ألقى الرئيس صدام حسين خطابه في ١٧ يوليو، وتبعته رسالة السيد طارق عزيز إلى وزراء خارجية دول الجامعة العربية - فإن التركيز الأمريكي على بؤرة التوتر التي برزت فجأة أصبح أشد، خصوصًا وقد تزامنت مع خطاب ١٧ يوليو شواهد نذر تستدعي التأمل».

«ففي يوم ١٦ يوليو لاحظ الكولونيل والتر لانج وهو مسؤول وكالة المخابرات

العسكرية للشرق الأوسط ـ أن تقارير الاستطلاع التي وصلته تظهر تحرك ثلاث فرق كاملة الاستعداد إلى الجنوب في اتجاه البصرة والكويت، وقد حددت تقارير الاستطلاع هذه الفرق (وذكر أسماءها) . . . إلى أن يقول «إن كولن باول رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي، استدعى إلى مكتبه الجنرال شوارتزكوف قائد القيادة المركزية المخصصة للتدخل في الشرق الأوسط وسأله عن رأيه في تقارير الاستطلاع التي أعدها الكولونيل والترلانج وكان رأي الجنرال شوارتزكوف أن الحشد العراقي أمام الكويت حقيقة لاشك فيها، وكان رأيه أن هذا الحشد قد يكون حشد تخويف، أو حشد ضربة عقابية محدودة على أسوأ الظروف».

من هنا يتطرق الأستاذ هيكل في القسم الثاني من هذا الفصل إلى ذكر الواقعة الشهيرة التي دار حولها لغط كبير، وهي لقاء صدام حسين مع السفيرة الأمريكية في بغداد «ايريل جلاسبي» في تلك الأيام. . يقول في ص ٣٣٧:

«وفي يوم ٢٣ يوليو تلقت السفيرة الأمريكية في بغداد السيدة ايريل جلاسبي تعليمات من واشنطون تطلب إليها إبلاغ الحكومة العراقية بقلق واشنطون من مسار الحوادث، وأن تطلب كذلك إيضاحات من أعلى مستوى تستطيع أن تصل إليه عن خطاب الرئيس صدام حسين يوم ١٧ يوليو، ورسالة السيد طارق عزيز التي لحقته في اليوم التالي». ويضيف إلى ذلك قوله: «كانت السفيرة ايريل جلاسبي خبيرة بشئون المنطقة، وكانت معرفتها باللغة العربية لا بأس بها».

ليقول بعد ذلك أنها قابلت صدام حسين في ٢٥ يوليو، بناء على طلب منه، وأن ما دار بينهما كان مسجلا على شريط، تم تفريغه في محضر هو الذي ينقل عنه، يقول في ص ٣٤١:

«بدأ الرئيس صدام حسين يتكلم وقد استغرق كلامه إلى السفيرة قرابة ثلاثة أرباع الساعة، امتدت على مساحة أربعة عشر صفحة من محضر الجلسة»، ثم يشرع

في تلخيص الرسالة التي أراد صدام حسين إيضاحها إلى بوش ومنها قوله (ص ٣٤٣):

«ماذا يعني قول أمريكا الآن إننا ملتزمون بحماية أصدقائنا بصورة فردية وجماعية، هذا الموقف فيه تشجيع واضح للكويت والإمارات حتى لا تحترمان حقوق العراق. وأقول لكم بوضوح إن حقوق العراق التي وردت بالمذكرة سنأخذها واحدة واحدة.. قد لا يحصل هذا الآن أو بعد شهر أو بعد سنة، ولكننا سنحصلها كلها لأننا لسنا من النوع الذي يسكت على حقه. فإذا كانوا محتاجين، فنحن أيضًا محتاجون».

ويقول هيكل مفسرًا معنى باقي رسالة صدام حسين: «ثم تقصد الرسالة إلى طمأنة الولايات المتحدة إلى أن مصالح العراق لا تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة بالضرورة، فيقول الرئيس صدام حسين:

«نحن نفهم قول أمريكا إنها حريصة على تدفق النفط، ونفهم قول أمريكا إنها تريد علاقات صداقة مع دول المنطقة، وأن تتسع مساحة المصالح المشتركة في المجالات المختلفة. ولكن لا يمكن أن نفهم محاولات تشجيع البعض لكي يلحق الضرر بالعراق».

«تريد أمريكا تدفق النفط.. هذا مفهوم ومعروف».

«تريد أمريكا السلام في المنطقة.. وهذا هو الذي نسمعه.. هذا مفهوم».

«ولكن عليها ألا تعمل بالطرق التي تقول إنها لا تحبها، وهي طرق الضغط واستعراض القوة. إذا استعملتم طرق الضغط والإكراه، نحن سنعمل بطريقة الضغط واستخدام القوة».

«ثم تشير الرسالة إلى استعداد العراق لمواجهة خطر ضربة عسكرية، ولكنه سيرد عليها مباشرة في المنطقة، وحتى هناك في أمريكا (!!)، فيقول الرئيس صدام حسين:

«نحن نعرف أنكم قادرون على إلحاق أذى بنا، ونحن لا نستخدم التهديد ضدكم. ولكن نحن قادرون على إلحاق أذى بكم، وكل واحد يلحق أذى بقدر حجمه. نحن لا نستطيع أن نأتي إليكم في الولايات المتحدة.. وربما يصل إليكم أفراد عرب. أنتم تستطيعون أن تأتوا إلى العراق بطائرات وصواريخ.. نعرف هذا، ولكن لا توصلوننا إلى أن نستخف بكل هذا».

«متى نستخف بهذا؟ عندما نشعر أنكم تريدون أن تذلونا، وأن تنتزعوا فرصة العراقيين في العيش بكرامة وسعادة، وعند ذلك يكون الموت هو الأفضل. نحن لا نطلب منكم أن تحلوا مشاكلنا، ولكن لا تشجعوا بعض الناس على أن يتصرفوا بأكبر من حجومهم وعلى الباطل».

وواضح من مجرى الأحداث أن صدام حسين قد استخف بطائرات أمريكا وصواريخها ـ وأنه قد اختار الموت ـ ولكن ليس لنفسه ولا لعصابته من حزب البعث، ولكن للبؤساء من أبناء الشعب العراقي.. الذين يزعم أنه كان يسعى إلى فرصة لهم «للعيش بكرامة وسعادة» أين هي هذه الكرامة والسعادة الآن، بعد المسلك الانتحاري الذي سلكه بالإقدام على غزو الكويت؟!!

وكان من طبيعة الأمور أن تكون السفيرة ابريل جلاسبي مأخوذة ليس «بمفاجأة لقائها مع صدام حسين» كما يقرر هيكل، ولكن بهذا النوع من الكلام الذي لا يصدر إلا عن طاغية أحمق.. يقود قومه إلى الهلاك! لذلك ردت عليه بالكلام الذي أورده هيكل في ص ٣٤٥ وكأنها تخاطب صبيًا لا شيخًا:

أنا أفهم بوضوح الرسالة التي تحدثتم بها، إنني وأنا أسمعكم تتحدثون تذكرت أننا درسنا في المدرسة درس تاريخ. كانوا يعلموننا أن نقول: الحرية أو الموت».

إن ذكر دروس المدرسة في حضرة رئيس دولة هو تحقير واضح لهذا الرئيس، ولكن منذ متى كان الطغاة المتهوسون من هذا النوع يستحقون الاحترام.. أو يعرفون

كيف يحترمون أنفسهم ويجبرون الغير على ذلك! ويمضي هيكل في ص ٣٤٥، ليذكر أن جلاسبي قالت بعد ذلك:

«تحدثتم عن الصداقة، وأعتقد أنه كان واضحًا من رسائل رئيسنا إليكم بمناسبة العيد الوطني أنه يؤكد. . .»

«وقاطعها الرئيس صدام حسين قائلا: كان كريمًا وتعبيره محل تقديرنا واحترامنا».

«واستطردت السفيرة تكمل كلامها قائلة:

«وكما تعرفون أنه وجّه الإدارة الأمريكية بالرفض القاطع لاقتراحات فرض العقوبات التجارية.

«ومرة أخرى قاطعها الرئيس صدام حسين قائلا:

«لم يبق لدينا شيء نشتريه من أمريكا، فقط الحنطة لأنه كلما نريد أن نشترى شيئاً يقولون هذا ممنوع . . ونخشى أيضاً أن تقولوا ان الحنطة أيضاً تصلح للبارود.»

«من هذا الكلام نفهم التالي:

* أن الرئيس الأمريكي بوش منع تنفيذ العقوبات الاقتصادية ضد العراق. . ومعنى ذلك أنه لم يقرر اختيار صدام حسين «كوحش أسود» كما ادعى هيكل في فصول سابقة.

* أن استيراد القمح أو الحنطة كما يسميه صدام حسين من الولايات المتحدة كان مستمرًا إلى أن قام صدام وعصابته بغزو الكويت.

* أن صدام كان من السفاهة بحيث يتصور أن أمريكا حينما تمنع عنه مواد تستخدم للأغراض العسكرية، قد تمنع عنه القمح باعتباره من هذه المواد! وأظن أن الولايات المتحدة لو قررت منع القمح لفعلت دون أن تجعل نفسها أضحوكة بادعاء كهذا الذي لم يستح من أن يقوله لسفيرتها في بغداد!

ويمضي هيكل في تلخيص كلام السفيرة، فيقول «إنها اندفعت بعد ذلك تهاجم الإعلام الأمريكي لأنه المتسبب في كثير من المشاكل. . إلى أن تقول: «لو كان بإمكان الرئيس الأمريكي أن يسيطر على الإعلام لكان أداؤه لوظيفته أسهل».

ثم واصلت ايريل جلاسبي حديثها ـ كما يقول هيكل في ص ٣٤٦ «وتطرقت للمشاكل المحددة التي أثارها صدام حسين، وبدأت بموضوع أسعار البترول فقالت:

«إنني أريد أن أقول لكم إن الرئيس بوش لا يريد علاقة أفضل وأكثر عمقًا مع العراق فحسب، بل يريد أن يكون للعراق إسهامًا (صحتها إسهام ولكن هكذا كتبها هيكل!) تاريخي في السلام والازدهار في الشرق الأوسط. إن الرئيس بوش ذكي، ولن يعلن أي حرب اقتصادية على العراق».

«أنتم محقون في أننا لا نريد أسعارًا عالية للنفط، ونحن نسألكم أن تتأملوا رغبتنا في ألا تكون أسعار النفط مرتفعة جدًا. . ».

ثم يسرد هيكل بعض تفاصيل الحوار الذي دار حول أسعار النفط إلى أن يقول:

«ثم وصلت السفيرة إلى أخطر ما قالته في اللقاء مع الرئيس صدام حسين فقالت:

«إن الذي لا يتوافر لدينا رأي حوله هو الخلافات العربية العربية، ومنها مثلاً خلافكم الحدودي مع الكويت. وأنا خدمت في أواخر الستينات في سفارة أمريكا بالكويت، وكانت التوجيهات لنا في تلك الفترة هي أننا لا ينبغي أن نبدي رأيًا حول هذه القضية، ولا علاقة لأمريكا بهذه القضية. وقد وجه جيمس بيكر (تقصد وزير الخارجية) متحدثنا الرسمي لأن يعيد التأكيد على هذا الوجه. ونتمنى أن تتمكنوا من حل هذه المشكلة بأي طريقة مناسبة عن طريق القليبي أو الرئيس مبارك».

ويقع الأستاذ هيكل بعد ذلك في تناقض شديد فيما يتعلق بهذا الجزء من كلام السفيرة ايريل جلاسبي في لقائها مع صدام حسين، حيث يقول في ص ٣٤٨ :

«ولقد راجت بعد ذلك أقوال أن السفيرة ايريل جلاسبي قامت بعملية تضليل متعمدة للرئيس صدام حسين، سواء فيما قالته أو في سفرها لإجازتها الاعتيادية بعد ذلك».

«ولكن الوثائق المتاحة حتى الآن لا تسمح بتأكيد مثل هذه الأقوال، فلم تكن ايريل جلاسبي وحدها هي التي تصورت أن الأزمة في طريقها للحل» إلى أن يقول: «وكان رهان الجميع على الاجتماع المنتظر بين الشيخ سعد العبدالله الصباح والسيد عزة إبراهيم».

هكذا ينفي هيكل، أو على الأقل يشكك في صحة الادعاء بأن الولايات المتحدة قد شجعت صدام حسين - عن طريق سفيرتها - على غزو الكويت، ولكنه يعود بعد خمس صفحات فقط، ليذكر من بين «الدوافع التي دعت العراق إلى توسيع نطاق العملية (يقصد العملية العسكرية) إلى درجة غزو الكويت كلها. . . «ثم هاهي سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية تقول صراحة بأن الولايات المتحدة الأمريكية ليس من سياستها أن تتدخل في خلافات عربية عربية. وأن التعليمات صريحة للسفارات الأمريكية بأن تبتعد عن مشاكل الحدود بين الكويت والعراق»! (ص ٣٥٣).

وواضح أن الأستاذ هيكل في هذه الفقرة الأخيرة قد أعاد صياغة كلام السفيرة لصدام حسين، خدمة للغرض الذي يحاوله بها! فهناك فرق بين نص كلام السفيرة كما أورده في ص ٣٤٦ وهو قولها: «إن الذي لا يتوافر لدينا رأي حوله هو الخلافات العربية - العربية» وبين عبارة «ليس من سياسة الولايات المتحدة أن تتدخل في خلافات عربية - عربية».

فمعنى نص كلام السفيرة ـ كما جاء في محضر الاجتماع الذي لخصه هيكل أن الولايات المتحدة لم تدرس مشكلة الحدود تلك بحيث يكون لها رأي فيها، وبالتالي كانت التعليمات أو التوجيهات هي عدم إبداء رأي فيها. .

فرق بين هذا، وبين أن تسكت الولايات المتحدة الأمريكية على قيام دولة عربية باجتياح دولة عربية أخرى عضو في الأمم المتحدة، ولها معها مصالح تقتضيها أن تدافع عنها بناء على طلب منها، بدعوى عدم التدخل في خلافات عربية ـ عربية.

أما أن يكون الأستاذ هيكل قد فهم من هذا الكلام، وفهم قبله صدام حسين أن السفيرة كانت تعطيه إذنًا بغزو الكويت بقولها: إن بلادها ليس لها علاقة بالنزاع الحدودي بين العراق والكويت، فهذا من أعجب العجب!

وأكثر من ذلك: لو أن صدام حسين كان مخلوقًا يتصف بالمروءة والشرف، وحرضته دولة أجنبية على غزو دولة أخرى لها فضل تقديم المعونة إليه في محنة حربه مع إيران لما فعل! فضلاً عن أن تكون شقيقة عربية!

وأخيرًا لو صح أن أمريكا قد استدرجته بمثل هذه الأقوال إلى فعل ما فعل، لكي تسحق قوته العسكرية، فهو الجاني على بلاده بغبائه وجشعه وإجرامه!!

من أي الوجوه قلبتها لا عذر لصدام حسين بلقائه مع السفيرة الأمريكية قبل غزوه الكويت في فعل ما فعل، ولا عذر للأستاذ هيكل في البحث عن أعذار له في النوايا الأمريكية!

ولكننا نعود إلى ما وصفه الأستاذ هيكل في ص ٣٥١ «بحقيقة الدوافع التي دعت العراق إلى توسيع نطاق العملية إلى درجة غزو الكويت كلها» (على عكس «الظن الشائع» ـ على حد قوله قبل ذلك بقليل ـ بأنها سوف تكون محدودة، والأرجح أن تقتصر على جزيرتي بوبيان وورية)، لنجده قد وقع في تناقض جديد، من زاوية

جديدة، من كلامه عن حديث السفيرة أيريل جلاسبي مع صدام حسين! يقول ـ ضمن العوامل التي دعت إلى ذلك من وجهة النظر العراقية، والتي نوقشت في اجتماع لمجلس قيادة الثورة العراقي قبل ٤٨ ساعة من بدء الغزو!

«إذا تمكنت القوات العراقية من احتلال الكويت في ظرف ساعات، وهذا في مقدورها، وواجهت العالم بأمر واقع في الصباح ـ فما الذي تستطيع الولايات المتحدة عمله؟

«ـ هل تتدخل عسكريًا؟ وأين هي القاعدة التي تستطيع فيها إنزال وحشد قوات التدخل؟ وإذا كانت الكويت قد احتلت بالكامل، فأين تنزل هذه القوات؟

«وكان التقدير العراقي أنه لن توجد دولة في الخليج تسمح لقوات أمريكية بالنزول في أراضيها واستعمالها لشن حرب على العراق، خصوصًا بعد أن يكون احتلال الكويت قد أصبح حقيقة ماثلة أمام الجميع. وعلى أي حال فإن السعودية هي مفتاح الموقف بالنسبة لدول الخليج، والسعودية تقليديًا لا تقبل نزول قوات عسكرية أجنبية على أراضيها لأسباب تاريخية وسياسية ـ ثم إن العراق عقد اتفاقية عدم اعتداء مع السعودية وقعها الملك فهد مع الرئيس صدام حسين.

«والسؤال الذي يلي ذلك: هل الرأي العام الأمريكي مستعد بعد تجربة فيتنام لحرب برية واسعة في الشرق الأوسط، فالعراق ليس بناما، وليس جرانادا، وإنما هو قوة تسابق الإعلام الأمريكي نفسه في الدعاية لأسلحتها، وإذن فهي حرب برية طويلة في الصحارى، وإذا كان الرئيس الأمريكي رونالد ريجان لم يستطع استبقاء مشاة الأسطول الأمريكي في بيروت بعد هجوم فدائي أدى إلى مصرع مئات منهم، فكيف يستطيع بوش وهو الذي لا يملك تطرف ريجان وتشدده أن يقبل ما هو أوسع نطاقًا وأخطر؟

«وإذا كان الرأي العام في الولايات المتحدة ضد أي حرب بعيدة، فإن

الكونجرس سوف يعبر عن نفس الاتجاه ويعارض، وكذلك سوف تفعل بعض قطاعات الإعلام الأمريكي، إن الرئيس الأمريكي سعيد بانتصاره الضخم على الشيوعية في أوروبا، فهل يغامر بانتصاره أمام الاتحاد السوفيتي ويدخل في معركة عسكرية مع العراق؟!!

نتوقف هنا لنلاحظ أن الأستاذ هيكل قد صدع رؤوسنا في فصول سابقة من كتابه بالقول بإن انتصار الولايات المتحدة في الحرب الباردة على الاتحاد السوفيتي قد جعلها بحاجة إلى عدو جديد تحاربه! وهاهو يعود ليقول كلامًا مخالفًا بالمرة من أن أمريكا قد تخشى من ضياع انتصارها المذكور لو حاربت العراق! نعم إنه يقول إن ذلك بعض ما دار برؤوس العراقيين ـ استنتاجًا منه لا أكثر. فإذا كان يريد أن يقول بذلك إن حكام العراق كانوا أغبياء جدًا بحيث لا يدركون بعض ما أدركه هو في هذه المسألة فلا بأس! على أننا قد ناقشنا في فصول سابقة حكاية علاقة الانتصار الأمريكي في الحرب الباردة بما حدث في حرب الخليج (انظر الحلقة الخامسة من كتابنا هذا).

ونعود إلى بقية حديث هيكل في هذا الموضوع، يقول في ص ٣٥٢: «وصحيح أن الرئيس الأمريكي يتحتم أن يظهر عضلاته أمام الرأي العام الأمريكي وأمام الكونجرس، ولكنه بدون قاعدة صلبة يتدخل بواسطتها فليس أمامه إلا أن يلجأ إلى القوة الجوية يوجه بها ضربة إلى العراق مثلما فعل ريجان مع ليبيا ـ ومثل هذه الطريقة يستطيع العراق أن يستوعبها!

ونسأل الأستاذ هيكل عن حقيقة تصوره لدوافع حكام العراق في توسيع العملية العسكرية إلى حد احتلال الكويت كلها! هل هي نتيجة لإحساسهم بعجز أمريكا عن محاربتهم، أو ضربهم ضربًا مؤثرًا؟ أم نتيجة للإذن الذي أخذوه من سفيرتها ايريل جلاسبي، والذي أشرنا إليه فيما تقدم؟ ألم يلحظ الأستاذ هيكل أن بين العنصرين تناقضًا واضحًا؟

وعلى كل فقد أثبتت الولايات المتحدة الأمريكية قدرتها على محاربة العراق، بما في ذلك النزول بالأراضي السعودية لهذا الغرض، وطرد قواته من الكويت، بعد تدمير قدرة العراق العسكرية والاقتصادية، وسواء في ذلك أن تكون ايريل جلاسبي قد أعطت لطاغية العراق الإذن بأن يقدم على جريمته أو لم تعطه!

وإذا كان الأستاذ هيكل يحمل كل ما تقدم ذكره على لسانه من أوهام لدى الحكومة العراقية عن العجز الأمريكي عن محاربتهم على خطأ في الحسابات، فإنه قد صرح في نهاية تحليله لدوافعهم بالدافع الأصلي الحقيقي، وصوره في أشد الصور بذاءة، وذلك بقوله في ص ٣٥٣:

«وأخيرًا فإن كنز الكويت كان يساوي المخاطرة ـ خصوصًا إذا كانت محسوبة».

«فالكويت هي الدولة العربية الثالثة في حجم إنتاجها البترولي (بعد السعودية والعراق)».

«ثم إن فوائض أموالها في الخارج تقدر بما بين ١٥٠ و ٢٠٠ بليون دولار».

«وأخيراً فإن إنتاج الكويت مضافًا إلى إنتاج العراق يعني الإمساك بثلث إنتاج بترول الخليج كله، وهذا موقع فريد في التأثير على الإنتاج والأسعار».

وبالطبع فهذا الكلام يبدو وكأنه ليس كلامًا عن دولة لها مشاكل مع جاراتها الشقيقات العربيات.. وإنما هو كلام عن عصابة من اللصوص الطامعين في كنوز سواهم.. ولقد كان حكام العراق كذلك بالفعل، ولكن العالم لم يسمح لهم أن يفوزوا بغنيمتهم، أما «المخاطرة المحسوبة» ـ على حد قول الأستاذ هيكل ـ فكانت بشعب العراق ومقومات حياته ومستقبله، وبالعلاقات العربية ـ العربية ومستقبل هذه الأمة في مجموعها، وذلك هو جزء من نكبتها بأمثال هؤلاء الطغاة، وسياستهم في الانتحار القومي..

(١٢)

الانسحاب . . هل تمنعه إدانة؟!

بعد أن فرغ الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه «حرب الخليج» من استعراض العوامل التي دعت حكام بغداد إلى توسيع العملية العسكرية ضد الكويت إلى حد احتلالها بالكامل. وآخرها ـ كما تقدم ـ قوله «إن الكويت كنز يستحق المخاطرة» (!) يعلق على ذلك بقوله في ص ٣٥٤:

«هكذا كان إطار التفكير العراقي بالنسبة لقرار الغزو، وفي الواقع فإن احتمالات نجاحه كانت ظاهرة. وليس كل ما هو ظاهر حقيقي (كذا، والصواب: حقيقيًا)، فالشرق الأوسط كله عالم وحده يختلف ظاهره عن باطنه، وصحاريه اللانهائية مشهورة برمالها المتحركة وأيضًا بخدع السراب!»

ويغض النظر عن رنة التفلسف في هذه العبارات، فمن الصعب تصديق أن احتمالات نجاح المخطط العراقي كانت ظاهرة! إن الطبيعة الانتحارية لما أقدم عليه طغاة بغداد من اجتياح الكويت، كانت أظهر بكثير من احتمالات النجاح التي يزعمها الأستاذ هيكل، ولعل ما تردد ذكره كثيرًا في الحلقات السابقة من هذه الفصول، من أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح بالعبث في منطقة الخليج، التي تضم المخزون العالمي الأكبر من البترول، فيه الكفاية لتأكيد أن طغاة بغداد، كانوا يسوقون بلادهم، والأمة العربية بأسرها إلى كارثة، ولعل الأستاذ هيكل ذاته قد ردد مثل هذا المعنى فيما سبق من فصول كتابه، ولكنه ـ كالعادة ـ يكاد ينسى في كل موضع من كتابه

ما سبق له أن سطره في موضع آخر، ولا يبالي أن تجيء فصول الكتاب متناقضة يضرب بعضها بعضًا، كما سبق أن بينا في الفصول السابقة!

بل إن التناقض يمتد إلى القسم الرابع من الفصل الذي جاء فيه ما تقدم من قول الأستاذ هيكل! حيث يبدأ هذا القسم في ذات الصفحة بقوله:

«كانت وزارة الدفاع ترصد التحركات العسكرية العراقية، وكانت تقاريرها عن حجم القوات العراقية المحتشدة في منطقة البصرة وحولها ـ تقديرات دقيقة ـ كما اتضح فيما بعد. . إلى أن يقول في الصفحة ٣٥٥: «وكانت وكالة المخابرات المركزية تتابع أيضًا، ولعلها كانت أسرع من تنبه يوم ٢٨ يوليو ـ إلى أن الخطط العراقية تغيرت، وأن الذي يجري الإعداد له الآن هو عملية غزو كامل» . .

وينهي الأستاذ هيكل هذا الفصل بقوله في ص ٣٦٠: «فجر يوم ٢ أغسطس كانت القوات العراقية قد حققت مهامها العسكرية بنجاح، ولكن الأساس السياسي الذي قامت عليه الخطة لم ينجح، ذلك أن خروج أمير الكويت والنافذين من أفراد أسرته سالمين من الكويت فتح ثغرة كبيرة في الأساس السياسي للخطة العراقية.

«كان المفروض أن يتم أسر الأمير وأفراد عائلته الأقربين ـ على الأقل ـ حتى لا يظل هناك من يملك حقًا، أو ظل حق شرعي في طلب النجدة من القبائل، أو الدول الأخرى! . . إلى أن يقول: «وبلغت الأزمة ذروتها، وتفتحت أبوابها على احتمالات لم تكن في حساب أحد!!»

وتعليقنا على ما تقدم، أنه بغض النظر عن حكاية القبائل هذه، فإن المبالغة المسرحية في هذا الكلام ظاهرة للعيان، فإن الحق الشرعي للدول في البقاء، لا يتعلق بوجود هذا الفرد، أو تلك الأسرة مهما علت مكانتهم، ولو بقي طفل واحد في الكويت يصرخ مطالبًا بحق دولته في الوجود المستقل، لسمعه العالم، ولتدخل كما حصل، ولكن عدوى الأوهام البعثية التي دفعت طغاة بغداد إلى الإقدام على فعلتهم

النكراء، انتقلت للأسف الشديد إلى الأستاذ هيكل، وجعلته يصوغ بين حين وآخر من فصول كتابه، رواية هزلية أشد سخفًا من سابقتها!

ثم ينتقل الأستاذ هيكل بعد ذلك إلى الفصل الرابع من الباب الثاني من كتابه، وعنوانه «ساعات فاصلة»، وفي ثناياه يعقد مقارنة ما بين الموقف العربي والموقف الأمريكي بعد وقوع الغزو العراقي للكويت فيقول في ص ٣٦٥:

«في واشنطون كانت الصورة مختلفة بالكامل».

«لم تكن المفاجأة صاعقة، كما حدث في العواصم العربية، لأن واشنطون كانت تنتظر الضربة» إلى أن يقول:

«والواضح أنه ابتداء من يوم ٢٧ يوليو، وبينما العالم العربي مشغول بمحاولاته لاحتواء الأزمة، قررت وزارة الدفاع الأمريكية أن يكون الاستطلاع على منطقة الحشد العراقي كل ساعتين» ثم يقول في ص ٣٦٨:

«كانت أول إشارة عن بدء الغزو العراقي للكويت وصلت إلى واشنطون، رسالة من كلمتين بعث بها الأميرال «بيل أوينز» قائد الأسطول الأمريكي السادس في البحر الأبيض، وكان أوينز قد تولى منصبه حديثًا بعد فترة قضاها مساعدًا لوزير الدفاع الأمريكي «تشيني».

«كانت الرسالة موجهة إلى تشيني، وقد وصلت في المساء المبكر بتوقيت واشنطون ونصها: العراقيون اخترقوا» والقصد مفهوم: وهو أنهم اخترقوا حدود الكويت» إلى أن يقول:

«وفي الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق صدرت من مكتب الرئيس بوش مجموعة من القرارات أولها بيان باسم الرئيس يدين الغزو، ويطالب بسرعة الانسحاب، بلا قيد أو شرط ولا يقبل بديلاً عن ذلك بشيء».

ثم يقول هيكل في ص ٣٨١:

«وطبقًا لرواية الملك حسين»(في الحاشية يقول هيكل ما معناه أنـه سمع ذلـك من الملك حسين في عمان يـوم ٢٨ ابريـل ١٩٩١م في لقاء لمـدة ست ساعـات)، فإن الـرئيس بوش قـال له: إن غـزو الكويت عمـل من أعمال العـدوان لا يمكن أن تقبله الولايات المتحدة، وأنه أصدر أمس بيانًا بالمـوقف الرسمي للولايـات المتحدة، وقـال الملك: إنـه اطلع عليه، واستـطرد بوش بـأنه ثـابت في موقفـه، ثم أضـاف الـرئيس الأمريكي: «إن صدام يتحدى الولايات المتحدة، وأنه «بوش» قرر قبول التحدي».

ثم واصـل الرئيس بـوش كلامـه للملك حسين، فقـال: «إن الغـزو العـراقي تهـديد مبـاشر لأمن الولايـات المتحدة ومصـالحها. وأن الكـونجـرس والـرأي العـام ووسائل الإعلام الأمريكي كلها تطالبه بالتصرف بالفعل العسكري، وليس بقرارات الإدانة».

«وإنه في دهشة من موقف العالم العربي، فهو لم يسمع حتى الآن إدانات صريحة ضد العدوان العراقي، وقد فهم أن وزراء الخارجية العرب مازالوا يتكلمون».

ويقول هيكل في ص ٣٨٥:

«كان مجلس الأمن خلال ذلك قد دُعي إلى الاجتماع، وفوجيء العـالم بمشهد لم يسبق له مثيل، فقـد استطاع الـوفد الأمـريكي أن يسيطر عـلى الموقف تمـامًا في الأمم المتحدة، وأن يحول الجميع ـ بما فيهم الاتحـاد السوفيتي ـ إلى إصـدار القرار رقم ٦٦٠ ونصه:

«إن مجلس الأمن وقد استثاره قيام القوات العراقية بغـزو الكويت. . يقـرر أن هذا الغزو يمثل تهديدًا للسلام والأمن.

ويتصرف بمقتضى المواد ٣٩ و٤٠، من ميثاق الأمم المتحدة.

«ويدين غزو العراق للكويت.

«ويطلب من العراق إنسحابًا فوريًا وغير مشروط لقواته من الكويت، مما يعيد الموقف إلى ما كان عليه يوم ١ أغسطس.

«ويناشد كلًا من العراق والكويت أن يبدءا على الفور في مفاوضات تستهدف حل الخلافات بينهما، وهو يؤيد كل المساعي والجهود المبذولة لتحقيق هذا الهدف، وخصوصًا جهود جامعة الدول العربية».

«ويقرر أن يجتمع مرة أخرى ليتأكد من التزام جميع الأطراف بهذا القرار».

ثم يعود الأستاذ هيكل لرواية الملك حسين، فيقول في ص ٣٩٣:

«وطبقًا لرواية الملك فإنه عاد بالطائرة العراقية التي ذهب بها من مطار «هـ ٢» إلى بغداد، ثم استقل طائرته، وبينما هو في الطائرة وصلته إشارة من الرئيس صدام حسين تقول له: «إن مجلس قيادة الثورة وافق على وجهة نظرك في اجتماع عقد على عجل، وسوف يحضر العراق اجتماع جدة، وسوف يعلن انسحابه من الكويت، ولكن هناك شرطًا واحدًا وهو ألا يتخذ وزراء الخارجية العرب المجتمعون في القاهرة قرارًا مسيئًا أو عنيفًا ضد العراق»!!

وبالطبع لو صحت رواية هيكل عن الملك حسين، عن صدام، فإن «الكلام» الذي يمكن أن يصدر عن وزراء الخارجية العرب، وهم لا يملكون غيره، لا يمكن أن يكون أكثر إساءة وعنفاً للعراق، من الدبابات والمدافع التي اجتاحت الكويت وروعت أهلها، وقتلت منهم من قتلت، ويعلق وعده بالانسحاب على شرط عدم صدور مثل هذا «الكلام»!!

ونعود إلى رواية هيكل عن الملك حسين:

«ويقول الملك إنه كان يشعر أنه في سباق يائس مع الزمن، وأن اجتماع الساعة السادسة المقرر لوزراء الخارجية قد يتسرع باتخاذ قرار يفسد كل ما توصل إليه!

«لاحظ أن الملك لم يتوصل إلى شيء أكثر من هذا الوعد المشكوك فيه بالانسحاب، والمعلق على شرط عدم الكلام بما «يسيء» إلى صدام وجماعته!».

إلى أن يقول في نفس الصفحة ٣٩٣:

«وعندما وصل الملك إلى مطار عمان تلقى مفاجأة يصفها بأنها صدمة من أقسى الصدمات في حياته، فقد عرف أن مصر أصدرت بيانًا منفردًا بإدانة العراق في الساعة الرابعة والنصف، أي أنها لم تنتظر حتى اجتماع وزراء الخارجية العرب في الساعة السادسة، وتصرفت بمفردها، ثم إنها أيضًا لم تنتظر أن يبلغها بنتائج مهمته».

«إلى أن يقول «أي الملك حسين».

«كانت موافقة صدام حسين على الانسحاب معي، ولكن مصر تسرعت وأصدرت البيان قبل أن تسمع مني..»؟!!

ماذا يريد الملك من تلك الرواية التي نقلها عنه هيكل؟ أن صدور بيان إدانة من مصر قد منع العراق من الانسحاب من الكويت؟ أو لم ينقل الملك حسين إلى صدام حسين ما سمعه من الرئيس الأمريكي بوش ونقلناه آنفًا ـ من أن الولايات المتحدة تعتبر الغزو العراقي تهديدًا لمصالحها، وأن الدوائر السياسية في بلاده تطالبه بالفعل العسكري»؟!

ذلك أشد وأنكى، أم بيان الإدانة المصري، وبيان وزراء الخارجية العرب الذي يقرر هيكل في نفس الصفحة أنهم قد انقسموا حوله، أو بالأصح حول لغته، مع الاتفاق «على أن الغزو العراقي للكويت غير مقبول، ولا كان هناك خلاف حول ضرورة الانسحاب العراقي من الكويت؟».

نعم، إن هيكل روى عن الملك حسين أنه قال لصدام رأيًا ملخصه: «إنه وهو يعرف الغرب أكثر من غيره، يستطيع أن يؤكد أن الغرب سوف يتدخل عسكريًا، وأن رد صدام حسين عليه كان «لا ينبغي أن ندع الغرب يثير الفزع في قلوبنا!»

ص ٣٩٢، فهل يتصور أحد بعد ذلك الاستخفاف من جانب صدام حسين وعصابته بما ينتظرهم من الولايات المتحدة الأمريكية، أن صدور بيان الإدانة المصري كان هو السبب في منع صدام من الانسحاب من الكويت كما تصور الملك حسين، وكما يبدو الأستاذ هيكل وكأنه يصدقه في روايته! نقول ذلك لأن الأستاذ هيكل كعادته في كتابه هذا يتخلّى عمدًا عن التعليق حيث يجب التعليق!

ماذا كان ينتظر صدام حسين، أو الملك حسين، من مجلس وزراء الخارجية العرب، أو القمة العربية فيما بعد؟ أن يسكتوا عن العدوان العراقي على الكويت، وبالتالي تتمزق جامعة الدول العربية أيدي سبأ، وتفقد مصداقيتها تمامًا؟!!

لو سكتت جامعة الدول العربية على أي مستوى من مستوياتها عن إدانة الغزو، فقد كان من المؤكد أن تنسحب منها على الأقل الكويت والسعودية وسائر دول الخليج.

ولو سكتت عن الإدانة، التي صدر بها قرار من مجلس الأمن الدولي لكان معنى ذلك أن تفقد الجامعة العربية احترام الأمم المتحدة، وربما فقدت معه اعتراف هذه الأخيرة بها كمنظمة إقليمية، وهي التي نص قرار مجلس الأمن التابع لها (أي للأمم المتحدة) على توقع أن تقوم الجامعة العربية بعمل ما لإزالة الخلاف ما بين العراق والكويت في حالة تمام الانسحاب العراقي وعودة الشرعية إلى الكويت ـ وأخيرًا وليس آخرًا، فإن للعرب قضية مصيرية، كانت ولا تزال بحاجة إلى تأكيد مبدأ عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، وهي القضية الفلسطينية، وقد أصبح المطلب الأساسي فيها هو جلاء القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وجنوب لبنان طبقًا للقرارات الدولية الصادرة في هذا الخصوص، فكيف يطمع العرب، أو تطمع جامعة الدول العربية في أن يؤيدها المجتمع الدولي في هذه المطالب، لو قبلوا أو قبلت الجامعة العربية باحتلال أراضي

دولة عضو فيها، وهي الكويت، من جانب دولة أخرى عضو أيضًا - وهي العراق، فضلًا عما ذهب إليه حكام هذه الأخيرة، من محاولة إلغاء الوجود السياسي لتلك الدولة من أصله، بإعلان أنها جزء من العراق عاد إليه؟!!

لقد كان صدام حسين، وعصابته الحاكمة في بغداد ينصبون فخًا للأمة العربية وجامعتها، استخدموا فيه الملك حسين ووعدهم له بالانسحاب، لو لم تصدر قرارات بإدانة الغزو. . لقد كانت الطغمة الحاكمة في بغداد تريد للأمة العربية في مجموعها أن تنساق إلى ذات المسلك الانتحاري الذي انتهى بتدمير العراق، فامتناع مجلس جامعة الدول العربية على أي مستوى من إصدار قرار بإدانة فعلتهم الإجرامية، كان يساوي انتحارًا أدبيًا مؤكدًا لتلك المؤسسة، التي يعلق عليها العرب آمالهم، في أن يكون لهم يومًا ما كلمة موحدة، وكيان دولي يحافظ على حقوقهم، وينسق ما بين قواهم وجهودهم.

إن ذلك الانتحار هو توجه طغاة بغداد. . ومع ذلك يجدون من يدافع عنهم أو يلتمس لهم العذر في مواقفهم المشينة، جملة وتفصيلاً. .

* * *

إن كل دعاوى حزب البعث العراقي عن «العروبة» و«القومية العربية» قد تبخرت مع اجتياح قواته للأراضي الكويتية، ثم إعلانهم ضمها إلى العراق، وليس أدل على ذلك من الكلمة التي قالها طه ياسين رمضان، الرجل الثاني في العراق بعد صدام حسين، للرئيس مبارك يوم ٩ أغسطس ١٩٩٠م، وكان قد حضر إلى القاهرة على رأس وفد عراقي لحضور مؤتمر القمة العربي لمناقشة الغزو العراقي للكويت. وهذه الكلمة يرويها الأستاذ هيكل في كتابه في الفصل الثاني بعنوان «القطار الأمريكي يتحرك». . يقول في ص ٤١٨ :

«ويروي الرئيس مبارك أن السيد طه ياسين رمضان قال له في نهاية مناقشة طويلة: «إن ضم الكويت للعراق هو إجراء نهائي لا مراجعة فيه ولا عدول عنه، وأن العراق يعتبر هذا قرارًا وطنيًا لا يمكن طرحه للمناقشة عربيًا»!!

ومرة أخرى يمر الأستاذ هيكل على هذا الكلام مرور الكرام، وإن كان «الكرام» هنا مظلومين مع كل حالة «مرور» من هذا النوع! ودعونا نحن لا نمر:

* إن كلمة طه ياسين رمضان تعني أن العراق قد أصبحت مصالحه فوق كل مصالح الأمة العربية في مجموعها، وقراره فوق قرارها، وهذا يبطل كل دعوى «قومية» لهذا الحزب.

* وإذا كان ذلك شأن المصلحة الوطنية، وأنها فوق الصالح العربي العام، فلماذا تكون مراعاة المصلحة الوطنية حكرًا على العراق وحده؟ لماذا لم يكن من حق الكويت ـ مثلاً ـ أن تنتج ما تشاء من البترول وتبيعه بالثمن الذي تريد؟..

وأهم من ذلك وقد وقع الغزو فعلاً فبمثل هذا المنطق وسواه، أبطل طغاة العراق كل حجة «قومية» في الاعتراض على حق الكويت وقد ضاعت مصالحها الوطنية إلى حد إلغاء الدولة ذاتها ـ في أن تستعين بمن تشاء من قوى دولية لاسترداد حقها الضائع، بل وجودها الوطني ذاته، مادام البعث العراقي قد صادر مقدمًا على الحق العربي في أن يرد إليها حقها! أي مستنقع عقلي ونفسي «وقومي» انحدر إليه طغاه بغداد بإقدامهم على غزو الكويت، وأرادوا أن يجروا الأمة العربية كلها إليه؟

* * *

ومادمنا قد أتينا على ذكر لقاء طه ياسين رمضان مع الرئيس مبارك في القاهرة يوم ٩ أغسطس ١٩٩٠م، نخرج بعده إلى الفصل السادس من الجزء الثاني من كتاب الأستاذ هيكل وعنوانه «ضباب حول القمة»، يقول في أوله في ص ٤٢١:

«طلع فجر يوم ٩ أغسطس ليجد القاهرة، وهي أكبر عاصمة عربية، في حالـة من الترقب والانتظار، فقد كانت الشوارع متأهبة لمواكب سـوف تخترقهـا حاملة ملوك (صحتها ملوكًا) ورؤساء ووزراء قادمين من كل أنحاء العالم العربي ليشاركوا في مؤتمر قمة عربي لأول مرة في القاهرة منذ سنوات طويلة، وكـانت قصور الضيـافة والفنـادق الكبرى معبأة على آخرها بكبار الـزوار، كما أن أرتـال السيارات الجـديدة والفخمـة، وكلها سوداء، راحت تعطي العاصمة الكبيرة مـظهرًا من الأهميـة ضاعفت من تـأثيره أصوات سيارات الحراسة أو المقدمة التي تسبق المواكب الرسمية وتفسح لهـا الطريق. وكانت جماهير الشعب المصري تتابـع ما حـولها بمـزيج يختلط فيـه الضيق والكبريـاء، فهـذه المـواكب أربكت المـرور في عـاصمـة هي في الأصـل ضيقــة بمن فيهـا، ولكن إحساس المصريين بانتهاء عزلتهم عن العالم العربي، وبأن الأمة العربيـة كلها جـاءت الآن قاصدة إلى بلدهم في ساعة أزمة عنيفة كان يعطيهم إحساسًا غـامضًا بـأن موقـع الزعامة عائد إلى عاصمتهم بعد غياب طال».

وتعجب لمثل هذا الكلام:

* تعجب لانشغال الأستاذ هيكل بوصف أرتال السيارات وألـوانها في غمار الحـديث عن كارثة خانقة كالتي سببها الغزو العراقي للكويت!

* ويذكر لـك أن جماهـير الشعب المصري كانت تتـابع مـا حولهـا بمزيـج من الضيق والكـبريـاء، وتـظن للوهلة الأولى أن الضيق الـذي يقصـــده، هـو ضيق الشعب المصري بتلك المحنة ومضاعفاتها المنتظرة، فإذا بك تفاجأ بأن ضيق هذا الشعب، أو تلك الجماهير، هو بالزحام الـذي أضافـه أرتال السيـارات إلى الازدحام الـذي تعانيه القاهرة!!

إن الكلام على هذا النحو، فضلاً عن كونه هزلاً محضًا، فإنه ينطوي عـلى قدر كبير من الاستخفاف بالمشاعر الحقيقية للشعب المصري في محنة غزو الكويت، أو على

الأقل الجهل التام بها، وإن كنا نستبعد هذه الأخيرة، فقـد سبق للأستـاذ هيكل، أن ذكر في ص ٣٩٤ في حاشية يعلق بها، على قرار الإدانة الذي أصدرته مصر، والـذي اعتبره الملك حسين متسرعاً، وسبقت الإشارة إليه، وأن الرئيس مبـارك رد على الملك حسـين بأن صـدور هذا البيـان كان «تحت ضغط شـديد من الـرأي العام المصري». علق هيكل على هذا في حاشية بقوله:

«كان الرأي العام في مصر في تلك الساعات هائجاً بالفعل، وكان هنـاك إلحاح بضرورة أن تُظهر مصر موقفها باستنكار غزو الكويت بطريقة واضحة».

فإذا كان ذلك كذلك، فهل تغير شعور الشعب المصري في أسبـوع واحد، مـا بين يوم الغزو ويوم عقد مؤتمر القمة العربية في القاهرة لمناقشته، وأصبح كل ما يشغله هو الضيق بأرتال السيارات؟

بـل إنني أشك في حكـاية «الكـبرياء» التي مـزجهـا الأستـاذ هيكـل من عنـده بالضيق! إنني أعتقد أن شعور الشعب المصري بالحزن للكارثـة التي وقعت كان يَجُبُّ كل شعور بالكبرياء لعودة «الزعامة» كما صورها الأستاذ هيكل، بـل إن كان ولابـد، فقد امتزج حـزن الشعب المصري لما حـدث، بشعور الخجـل لما بـدا من عجز الأمـة العربية بما فيها مصر، عن صد عدوان من دولـة عربيـة كبيرة الحجم نسبيًـا على دولـة عربية أخرى تصغرها من هذه الزاوية بكثير!

وأغرب من ذلك قول الأستاذ هيكل في موضع آخر يلي ما تقدم بقليل:

وكـانت هذه الأجـواء، سواء منهـا عواطف العـاصمة المصريـة الـواضحـة في نشـوتها، أو مشـاعر بقيـة عواصم العـالم العربي الضـائعة في حـيرتها - تصب في قصر المؤتمرات في مدينة نصر. . . إلخ».

أي «نشوة» هذه تنسبها إلى العاصمة المصرية في ذلـك الحين يـا أستاذ هيكـل؟ بل أي «نشوة» كنت أنت تحت تأثيرها وأنت تكتب مثل هذا الكلام الغريب»؟

(١٣)

حكاية فوات الوقت!

في الفصل الخامس من الباب الثاني من كتاب حرب الخليج للأستاذ محمد حسنين هيكل، وعنوانه «القطار الأمريكي يتحرك»، يبدي المؤلف إصرارًا عجيبًا على أن «الوقت قد فات» لحل الأزمة منذ بدأت طلائع القوات الأمريكية في الوصول إلى أرض المملكة العربية السعودية، ولم يبدأ وصول تلك القوات طبعًا كما ذكره في ص ٤١٢، إلا في ٨ أغسطس ١٩٩٠م، بعد الغزو العراقي للكويت بستة أيام فقط.

ويقول في ص ٤١٣: «كان بوش على وشك أن يوجه خطابًا للأمة في التاسعة صباحًا يوم ٨ أغسطس، وقد أراد أن يتثبت من تشيني حتى لا يستعمل في خطابه أية عبارات يمكن أن تؤدي لحرج طرف من الأطراف. وفكر تشيني بسرعة، وقال للرئيس بوش إن النقطة التي يجب التركيز عليها طبقًا لما فهمته من فهد أن قواتنا ذهبت إلى المملكة العربية السعودية بناء على طلب سعودي، وأنها سوف تغادر المملكة فور أن تطلب منها الحكومة السعودية ذلك».

«وفي الساعة التاسعة صباحًا كان الرئيس بوش على كل شاشات التلفزيون في كل بيت ومكتب في الولايات المتحدة، وكانت نبرته حازمة وقاطعة بشكل لا مثيل له منذ بدأت الأزمة. وقد قصد أن تتطابق تعبيرات وجهه مع صرامة كلماته فقد قال: إننا نطلب انسحابًا فوريًا وكاملاً وغير مشروط لكل القوات العراقية الموجودة في الكويت. ثم قال: إن مهمة قواتنا التي ذهبت إلى السعودية مهمة دفاعية، ونأمل ألا

تدعو الحاجة إلى بقاء تلك القوات في الخليج طويلاً. إن هذه القوات مكلفة بالدفاع عن نفسها وعن المملكة العربية السعودية، وعن كل أصدقائنا في الخليج».

ويضيف الأستاذ هيكل بعد ذلك مباشرة قوله:

«كان الوقت متأخرًا جدًا، ومع ذلك فإن الرئيس مبارك راح يحاول».

ولا أدري كيف كان الوقت متأخرًا جدًا في ذلك الحين، ليعلن حكام العراق انسحابهم من الكويت، استجابة للقرارات الدولية بهذا الخصوص، وتجنبًا للحرب المحتملة مع القوات الأمريكية التي بدأت طلائعها في الوصول إلى المملكة السعودية؟!

يقول هيكل بعد ما تقدم:

«كان الرئيس مبارك قد استقبل السيد ياسر عرفات، ومعه نائبه الزعيم الفلسطيني أبو إياد (الشهيد فيما بعد) يوم ٦ أغسطس، وكان رأي السيد ياسر عرفات أن الفرصة لم تفت بعد لحل عربي، وأبدى الرئيس مبارك موافقته وقال إن سوريا وجهت الدعوة إلى مؤتمر قمة عربي، وأنه يفكر في توجيه دعوة مماثلة لقمة تعقد في القاهرة».

ولم يكن الرئيس مبارك في موقفه هذا يزايد على سوريا، ولكنه اختار أن يعقد مؤتمر القمة في القاهرة بدعوة منه، لعلمه بالأزمة المستحكمة في العلاقات ما بين سوريا والعراق.

ونتابع كلام هيكل، حيث يقول إن الرئيس مبارك «استدعى السفير نبيل نجم سفير العراق بالقاهرة في مقابلة يوم ٦ أغسطس، وطلب إليه أن يسافر فورًا إلى بغداد بطائرة مصرية سوف توضع تحت تصرفه لكي يحمل للرئيس صدام حسين رسالة منه يطلب فيها أن يعلن الرئيس صدام حسين استعداده للانسحاب من الكويت،

وسوف يقوم الرئيس مبارك من جانبه باتخاذ ما يلزم لمنع تعرض الرئيس صدام لأي حرج، والعمل على حفظ ماء وجهه». وبالفعل توجه السفير نبيل نجم إلى بغداد، وعاد في اليوم التالي إلى الاسكندرية ومعه في الطائرة السيد عزة إبراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي. وطبقًا للرئيس «مبارك» فإن السيد عزة إبراهيم قال له: «إن العراق يعتبر ضمه للكويت إجراء نهائيًا لا رجعة فيه ولا تفاوض ولا تنازل لأنها جزء من التراب الوطني العراقي!! وأبدى الرئيس دهشته لهذا الموقف المتعنت، وذكر أنه «إذا استمر هذا الموقف فسوف يستحيل إصلاح الخلل الخطير الذي نجم عن الاحتلال، ومن المقطوع به أن الموقف سوف يزداد سوءاً».

«ويروي السيد عزة إبراهيم أنه ذكر للرئيس مبارك أن بوادر التحشد الأمريكي ظاهرة، كما أن الرئيس بوش لا يخفي نواياه ضد العراق، وأن إعلان أي شيء عن الانسحاب الآن يعتبر تراجعًا أمام الضغط الأمريكي - وبما أن هناك تفكيرًا جديًّا في عقد مؤتمر قمة عربي في القاهرة، فقد يكون من المستحسن انتظار ما سوف يسفر عنه هذا المؤتمر».

«ولكن رواية السيد عزة إبراهيم تتعارض مع إعلان عراقي صدر قبل ساعات يعلن ضم العراق للكويت، واعتبارها الولاية(كذا) التاسعة عشرة».

«وكان تفسير العراقيين لهذا التعارض بين الروايات والتصرفات أنهم ابتداء من يوم ٦ أغسطس تأكدوا أن اتفاقًا قد تم بين الملك «فهد» ووزير الدفاع الأمريكي «ريتشارد تشيني»، وكان تقدير الرئيس صدام حسين أن جنود الجيش العراقي لن يعطوا أرواحهم دفاعًا عن الكويت حتى وإن كانت في وحدة مع العراق، وأما إذا كانت جزءًا لا يتجزأ من التراب العراقي فإن الأمر سيختلف».

ونقول: نعم، لقد اختلف الأمر تمامًا، ودفع الجنود العراقيون أرواحهم، ليس دفاعًا عن الكويت، ولكن دفاعًا عن أطماع طغاة العراق في الاستيلاء عليها، وأخيرًا

أجبروا على الانسحاب من الكويت، ألم يكن التراجع أمام «الضغط» الأمريكي - كما يسمونه - أفضل وأكرم من التراجع أمام «الضرب» الأمريكي؟!

نستأنف كلام الأستاذ هيكل بعد ما تقدم مباشرة ص ٤١٥، يقول:

«والشاهد أن هذه الحجج والمناقشات والآراء في العالم العربي - كانت في غير أوانها لأن الوقت قد فات، وذلك أن القطار الأمريكي كان قد تحرك في كامب ديفيد في اجتماع الرئيس بوش بمستشاريه يوم ٤ أغسطس، ثم نزلت أمامه العلامة الخضراء تعطيه الموافقة في جدة في اجتماع الملك فهد مع وزير الدفاع الأمريكي ريتشارد تشيني، ولم تعد هناك إلا معجزة إلهية توقف القطار قبل بلوغ محطته النهائية؟!».

معجزة إلهية «حتة واحدة» يا أستاذ هيكل؟ ألم تكن كلمة «الانسحاب» تكفي في ذلك الحين لكي يتجنب العراق حربًا مدمرة، وليقول الملك فهد «للقطار الأمريكي» عد من حيث أتيت، فلم تعد هناك حاجة إليك؟!

ولكن الأستاذ هيكل يصر على أن الوقت كان قد فات، حتى في ذلك الوقت المبكر جدًا لإصدار حكم من هذا النوع، لأنه يحاول عبثًا تأكيد «النظرية» التي أدار حولها كتابه كله، وهي أن إرادة الولايات المتحدة المسبقة كانت محاربة العراق، باعتباره عدوًا «مقدورًا» عليه، سواء فعل ما يستحق ذكره أم لم يفعل، وكأن حكام العراق أبرياء مما لحق بلادهم من دمار، بينما لم يكن هناك من سبب له إلا إقدامهم على غزو الكويت، وإصرارهم على عدم الانسحاب منها، بل وضمها وإعلانها المحافظة التاسعة عشرة في العراق!!

* * *

بعد ذلك وفي نفس الصفحة يقول الأستاذ هيكل:

«ويوم٨ أغسطس - أي في نفس اليوم الذي وجه فيه الرئيس بوش حديثه إلى الأمة الأمريكية، قرر الرئيس مبارك أن يوجه حديثًا إلى الأمة العربية، وكان الحديثان

في نفس اللحظة تقريبًا، فبوش كان يتحدث في الثالثة بعد الظهر بتوقيت القاهرة، وكان خطاب الرئيس مبارك دراميًا مؤثرًا، وكان أبرز ما قاله: «إن الصورة سوداء ومخيفة، وما لم يتدارك الموقف فورًا، فإن الحرب حتمية»، ثم راح الرئيس مبارك يرسم صورة مفزعة لدمار الحرب ونارها وجحيمها، وقال: «إن أحدًا لا يعرف مخاطر الحرب كما يعرفها هو، فقد مر في أزمات مماثلة، وبخبرته العسكرية السابقة فإنه يستطيع أن يقول إن الحرب المحتملة سوف تكون شيئًا رهيبًا وفظيعًا»، ثم أنهى خطابه بقوله: «ألا قد بلغت اللهم فاشهد»، ويعلق هيكل بعد ذلك بقوله: «ولقد راجت فيها بعد مقولة بأن الرئيس مبارك بالغ في كآبة الصورة قبل الأوان وأعطى الإيحاء بأن الضربة واقعة بعد أيام»، ويمضي قائلا:

«ولم تكن هذه المقولة تشخيصًا دقيقًا للمناخ الذي تحدث فيه الرئيس مبارك، والواضح أن اللهجة التي تحدث بها في ذلك الوقت كانت لجهة رجل أتاحت له ظروفه أن يطل بنظرة على الخطة «١٠٠٢ - ٩٠»، «من لقائه مع تشيني في اليوم السابق»، ولقد هاله ما رأى وتمنى لو أمكن توقيه مع علمه بسبق الإصرار عليه. وقد جرت الكلمات على لسانه، ولأن خطابه كان مرتجلًا فإن السر تسرب إلى اللفظ. لم يكن في حل من أن يفشي هذا السر فكتمه، ولكن البخار المكتوم سرى بالرغم من كل شيء وشاع في التعبيرات، ذلك أن الأمل ظل يراوده بأن المعجزة ممكنة إذا خرج العراق من الكويت فورًا وبلا قيد أو شرط».

ولنا على هذا الكلام أكثر من ملاحظة:

- القول بأن الرئيس مبارك بالغ في كآبة الصورة غير صحيح بالمرة، بدليل ما حدث بالفعل بعد نشوب الحرب، وأما الإيحاء بأن الضربة واقعة بعد أيام فذلك شأن من تصور ذلك، ولو صح وصفها لكان أولى بحكام العراق أن يبادروا بالانسحاب.

ـ أما قول الأستاذ هيكل إن ما تحدث به الرئيس مبارك كانت «لهجة رجل أتاحت له ظروفه أن يطل بنظرة على الخطة» رقم كذا (التي سميت فيها بعد «عاصفة الصحراء»كما يروي هيكل في ص ٤٢٤)، فإن الرئيس مبارك كرجل عسكري محترف، وخاصة في مجال الطيران، كان لديه من المعلومات ما يكفي لتصور ما يمكن أن يحدثه سلاح الطيران الأمريكي من دمار في العراق، ولم يكن بحاجة إلى أن يطلعه أحد على خطط معينة في هذا المجال.

ـ وبفرض أن تشيني قد أطلع الرئيس مبارك على الخطة الأمريكية، فهل كان ذلك مجرد ثرثرة من جانب تشيني؟ أم لإعطاء الرئيس مبارك مادة تتيح له تحذير العراق قبل أن تحل به الكارثة؟ إذا كان الأمر كذلك فهو ينفي ادعاء هيكل أن أمريكا كانت عازمة على محاربة العراق بأي ثمن، أم أن الأستاذ هيكل ـ وهذا أسوأ ما يمكن أن يعرض به في كلامه ـ يريد أن يقول إنه كان هناك تواطؤ ما بين تشيني والرئيس مبارك على الخطة التي أطلعه عليها؟ لو كان الأمر كذلك فلماذا يرهق الرئيس مبارك نفسه في تحذير العراق مما سيواجهه، أكثر من ثلاثين مرة كانت تلك أولاها؟!

ـ أما حكاية البخار المكتوم الذي تسرب، والمعجزة الإلهية، . . إلخ، فتلك من المبالغات اللفظية التي يعمد إليها هيكل في إثبات نظريته التي سبق مناقشتها كثيرًا عن «الصدام المحتوم» ما بين أمريكا والعراق، التماسًا للعذر لطغاة بغداد فيما أقدموا عليه!

* * *

في العاشر من أغسطس عام ١٩٩٠م عقد مؤتمر القمة العربية الطارىء في القاهرة، وكان أمام المؤتمر قرار ينص على التالي طبقًا لما جاء في ص ٤٢٨ من كتاب الأستاذ هيكل:

- إدانة العدوان العراقي على دولة الكويت الشقيقة وعدم الاعتراف بقرار العراق ضم الكويت إليه، ولا بأي نتائج أخرى مترتبة على غزو القوات العراقية للأراضي الكويتية، ومطالبة العراق بسحب قواته منها فورًا، وإعادتها إلى مواقعها السابقة على ١/٨/١٩٩٠م.

- تأكيد سيادة الكويت واستقلاله وسلامته الإقليمية باعتباره دولة عضوًا في جامعة الدول العربية، وفي الأمم المتحدة، والتمسك بعودة نظام الحكم الشرعي الذي كان قائمًا في الكويت قبل الغزو العراقي، وتأييده في كل ما يتخذه من إجراءات لتحرير أرضه وتحقيق سيادته.

وقد ألقى الرئيس حسني مبارك خطابًا افتتاحيًا، يقول هيكل في ص ٣٤١:

«ثم عد الرئيس مبارك مجموعة من النقاط اعتبرها ركيزة لحل يؤدي إلى مخرج من الأزمة:

«إما عمل عربي أو تدخل أجنبي.

«أن المظلة العربية هي المخرج الوحيد من المأزق.

«أن مبدأ استخدام القوة مرفوض داخل الأسرة الواحدة.

«أن الاستيلاء بالقوة على الأرض يشكل تهديدًا جسيمًا على الأمة.

«أن الأمن مطلب أساسي، ولا غنى عنه للوجود أو للتطور.

«أن الشعور بالأمن ينبغي أن يتوافر لدى كل شعوب المنطقة.

«أننا لابد أن نتحرك في إطار عالم اليوم، ونتحدث بلغته.

«ثم انتهى الرئيس مبارك إلى القول: إن لدينا من الصيغ ما يخرجنا من المأزق إذا خلصت النوايا وصحت العزائم».

ثم يعلق الأستاذ هيكل بقوله:

«كان مؤدى خطاب الرئيس مبارك أن الوقت لم يفت، وأن الفرصة لا تزال مفتوحة.

«وكـان البعض يعتقـدون ـ وبعضهم يعـرف ـ أن الـوقت فـات والفـرصـة أفلتت . . » .

ولم يقل لنا الأستاذ هيكل: لماذا؟ لقد ظلت الفرصة مفتوحة أمام حكام العراق ليعلنـوا انسحابهم من الكـويت، ولكن حكام العـراق هم الذين تـركوهـا تفلت من أيديهم المرة تلو الأخرى، إلى أن بدأت حرب الخليج .

من ذلك ما رواه الأستاذ هيكل في ص ٤٣٥ حيث قال:

«كـانت المشاورات التي تمت بـين الملوك والرؤسـاء قبل أن يـدخلوا إلى قـاعـة المؤتمرات قد ناقشت ضمن ما ناقشته اقتراحًا عرضه السيد ياسر عرفات يقضي بإرسال وفـد يضم ثلاثـة من الملوك والرؤسـاء إلى بغداد يحملون نـداء من القمة إلى الـرئيس صدام حسين يدعوه إلى الخروج من الكويت، وكان تقدير السيد يـاسر عرفـات، بل وتأكيده أن الرئيس صدام حسين سوف يستجيب لنـداء القمة، ويكـون ذلك مخـرجًا يتقبله الشعب العراقي»، ويضيف هيكل معقبًا بين قوسين:

(وكان هناك همس في الأروقة بأن هذا الاقتراح كان متفقًا عليه بين السيـد ياسر عرفات والرئيس صدام حسـين لتوفـير مخرج منـاسب يمهد لحـل) ثم يضيـف: «ولكن هذا الاقتراح لم يلق حماسة تـذكر أثنـاء المشاورات التي سبقت الجلسة الـرسمية . . » كذلك لم يوافق عليه في الجلسـة الرسميـة ولم يتحمس أحد من الـرؤساء للقيـام بتلك المهمة، واحتدمت المناقشات بينهم.

وانتهى الأمر كما يروي هيكل بأن «تدخـل الرئيس مبـارك (قائـلا): إن لدينـا مشروع قرار وزعناه في الصباح وسوف أطرحه الآن للتصـويت، وطلب من الموافقـين على مشروع القرار أن يرفعوا أيديهم، وعد الرئيس مبارك الأيدي المرفوعة أمامه وقال «حداشر» (أحد عشر) ـ أغلبية موافقة ـ ثم أضاف قائلا: ترفع الجلسة، إلى أن يقول الأستاذ هيكل في ص ٤٣٦ :

«كـان الوفـد العراقي قـد انسحب محتجًا عنـدما بـدأ التصـويت، فقـد اعتـبر أعضاؤه أن الوفد وقع في فخ نصب له، وخرجوا من قاعة المؤتمـر متوجهـين إلى المطار رأسًا. .».

ولا أدري أي فخ وقع فيه هؤلاء؟ ألِأن المؤتمر لم يـرسل وفـدًا من ثلاثـة رؤساء يلتمس من صـدام حسين أن ينسحب من الكـويت؟أم لأن مؤتمر القمـة قـد اتخـذت أغلبيته قرارًا يدين العدوان العـراقي عليها ويـطالب الحكومـة العراقيـة بالانسحـاب الفوري وعودة الشرعية إلى الكويت! من الذي أضاع الـوقت وأهدر الفـرص جميعًا، إلا حكام العراق.

ولكن هؤلاء كـان لهم خطط أخـرى خلاف الاستجـابـة لكـل النـداءات التي وجهت إليهم، والقرارات التي اتخذت بإدانة فعلهم، نستعـرضها من خـلال الفصل التالي من كتاب الأستاذ هيكل بعنوان «دبلوماسية الإشارات».

* * *

يقـــول في أول الفصـــل في ص ٤٣٩ : «ابتـــداء من يـوم ٥ أغســـطس لاحت إشارات تومىء إلى أن العراق بدأ يشعـر بشكل مـا أنه يـواجه خـطرًا داهمًا، وأن ردة الفعل التي وجدها أمامه بعد غزو الكويت كانت أخطر بكثـير مما حسب وقـدر»، إلى أن يقول في ص ٤٤١ :

«وقـرر الرئيس صـدام حسـين أن يقـوم بمـا يمكن تسميتـه بعمليـة جس نبض مباشرة مع الولايات المتحدة الأمريكية لا يعتمد فيها على أحد».

«وكان تصوره أنه مازال في مقدوره أن يشرح نواياه، وأن يطمئن إلى مقاصده، وأن يشير من طرف خفي إلى أن الباب مازال مفتوحًا لكل شيء».

«وهكذا دعا إلى مقابلته القائم بالأعمال الأمريكي جوزيف ويلسون (وقد بقي في بغداد بعد سفر ابريل جلاسبي في إجازتها السنوية، وقام بمهام السفير).

«وتمت المقابلة فعلاً في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ أغسطس ١٩٩٠م».

«ولعل دراسة محضر هذا الاجتماع الذي جرى بين الرئيس العراقي وبين القائم بالأعمال الأمريكي بعد أربعة أيام من الغزو العراقي للكويت تظهر مجموعة رسائل أراد بها الرئيس العراقي شرح نواياه والتطمين إلى مقاصده مباشرة للرئيس الأمريكي».

ونقول هنا إن معنى ذلك أن صدام حسين لم يكن يعتقد - كما يعتقد هيكل نيابة عنه! - أن أمريكا كانت مبيتة العزم على محاربة العراق وتدميره، بل كل ما هناك أنه كان عليها أن تطمئن إلى مقاصده!! ولنستعرض مع هيكل ما سماه رسائل صدام إلى الرئيس الأمريكي، يقول:

«وكان مؤدى الرسالة الأولى أن الرئيس صدام حسين على استعداده لأن يتفهم رد الفعل الأمريكي إزاء دخول العراق للكويت»، وعلى حد قوله كما أورده هيكل: «لسنا مستغربين أن تشجب أمريكا عملاً من هذا النوع، وخاصة عندما لا تكون طرفًا فيه...».

هل معنى ذلك أن صدام حسين لا يستغرب شجب أمريكا لعمله، ولكنه أو من يمثلونه يثورون ويغضبون لأن العرب بدورهم أو أغلبيتهم - قد شجبوا احتلال العراق للكويت؟!!

أما الرسالة الثانية فكما يرويها هيكل:

«وكان مؤدى الرسالة الثانية أن التدخل العسكري العراقي في الكويت عمل يقتصر على الكويت لظروف تاريخية خاصة، وهكذا كان قوله للقائم بالأعمال الأمريكي كما يلي:

«الكويت كانت ومازالت ضمن حدود غير معروفة، أي دولة بلا حدود، حتى حصل الذي حصل في زمن عبدالكريم قاسم، لماذا حصل هذا في ١٩٦١؟ كان عبدالكريم قاسم وكل العراقيين يعرفون جيدًا أن الكويت عراقية». . .

وينسى صدام ولا يذكره أحد أن العراق قد اعترف بالكويت بعد ذلك وأقام علاقات دبلوماسية معها، وكانت هناك دعوة منها لترسيم الحدود قبل أن يقدم على غزوها!

نعود إلى كلام هيكل:

«وكان مؤدى الرسالة الثالثة أن الرئيس العراقي يعرف حجم المصالح الأمريكية في السعودية، وأنه ليس واردًا بالنسبة إليه تهديدها».

«وكان مؤدى الرسالة الرابعة أن الرئيس صدام حريص على مصداقيته لأن الولايات المتحدة تتهمه بين ما تتهمه به أنه كذب على آخرين».

«وكان مؤدى الرسالة الخامسة أن العراق حريص على علاقة طيبة مع أمريكا».

«وكان مؤدى الرسالة السادسة أن الرئيس صدام يعرف الفارق في القوة بين العراق والولايات المتحدة، ولكنه يعتقد أن الولايات المتحدة قد تخسر الكثير في هذه الحرب. .».

«وكان مؤدى الرسالة السابعة أن العراق يريد صداقة الولايات المتحدة ويتفهم ويقدر حجم مصالحها، وهو في نفس الوقت على استعداد للدفاع عن نفسه في أي ميدان. . .».

إن مفهوم هذه الرسائل السبع، كما أوردها الأستاذ هيكل، أن صدام حسين كان يساوم الولايات المتحدة الأمريكية، على أن يحتفظ هو بالكويت، ويترك لها السعودية. . . وإلا فإنها سوف تتحمل خسائر كبيرة في الحرب!

وينقل الأستاذ هيكل هذا الكلام ولا يخطر بباله أن يحلله ويعلق عليه، ويستنتج منه الاستنتاج الصحيح، وهو أن المصائب التي جلبها حكام العراق عليه، لم تكن لأن الأمريكان كانوا يتطلعون إلى عدو بعد انتهاء الحرب الباردة بينهم وبين السوفيت، وأنهم وجدوا في صدام حسين «الوحش الأسود»، كما زعم هيكل، ومر بنا في فصول سابقة، بل لمجرد أنه أقدم على غزو الكويت، متحديًا بذلك الشرعية الدولية من ناحية، ومهددًا المصالح الأمريكية والغربية عمومًا في منطقة الخليج الغنية بالبترول من ناحية أخرى، وأنه لولا إقدامه على غزو الكويت، لما جاءت الجيوش الأمريكية وسائر جيوش التحالف الدولي إلى المنطقة استعدادًا لشن الحرب على العراق.

وبالرغم من انعدام وجوه الشبه بين الحالتين، فقد حاول صدام حسين في مساومته السوقية مع القائم بالأعمال الأمريكي كما رواها هيكل، أن يستغل ما أصبح يعرف بعقدة فيتنام عند الأمريكان، التي جعلتهم يضنون بأرواح الأفراد الأمريكيين في حروب أخرى، حتى ولو انتصروا فيها بفضل تفوقهم العسكري، ولكن فات طغاة بغداد أن المصالح الأمريكية في منطقة البترول كانت أكبر من أن يتركها الأمريكان تحت تهديد من النوع الذي مثله الغزو العراقي للكويت، وأن التكنولوجيا العسكرية الأمريكية قد تطورت بحيث تجعل كلفة الحرب من ناحية الخسائر البشرية تنزل على الجانب الأمريكي إلى أدنى الحدود...

وبذلك لم يدلل طغاة بغداد على جشعهم ودناءتهم فحسب، بل على غبائهم وجهلهم أيضًا!!

(١٤)

على أبواب الجحيم!

انتهينا في الفصل السابق إلى أن صدام حسين حاول في يوم السادس من أغسطس ١٩٩٠ بعد غزوه الكويت بأربعة أيام أن يساوم الولايات المتحدة الأمريكية على أن يترك السعودية ويحتفظ بالكويت وذلك في لقاء تم بينه وبين القائم بالأعمال الأمريكي، كما روى الأستاذ محمد حسنين هيكل في الفصل السابع من الباب الثاني من كتابه حرب الخليج، وإضافة إلى هذه المساومة التهديد بالخسائر الكبيرة التي سوف تلحق بالولايات المتحدة إذا قامت الحرب، محاولاً استخدام عقدة فيتنام لدى الشعب الأمريكي. وبعد أن فشلت تلك المحاولة، أرسل الملك حسين ملك الأردن لمقابلة الرئيس الأمريكي في الثالث عشر من أغسطس، كما يروي الأستاذ هيكل في الفصل المذكور ويصور الحوار الذي دار بين الرجلين على النحو التالي في ص ٤٥٦ :

«تدخل الملك ليقول للرئيس بوش: إنه على استعداد للانسحاب (يقصد صدام حسين)

«ورد بوش بصوت يحتمل كل تأويل: هـ. . م. . م»

«ثم استدرك بنبرة مثقلة بايحاءات شتى.

«الانسحاب بشروط؟ جاءتنا هذه الشروط ونحن نرفض كل شرط فيها: أن ينسحب طبقا لجدول يضعه هو، وأن ينسحب إلى المواقع المختلف عليها. حقل البترول المتنازع عليه. . والجزر. . فات أوان هذا الكلام. . وإذا كان يريد أن ينسحب فنحن لا نمسك به لنمنعه. . وينسحب فورًا وبلا قيد أو شرط، وتعود أسرة الصباح إلى الكويت. . ثم نرى بعد ذلك ما يمكن عمله».

ويضيف الأستاذ هيكل معلقًا على العبارة الأخيرة بين قوسين (وكان الرئيس بوش يشير بذلك إلى بنود جديدة أضافتها الولايات المتحدة إلى قائمة طلباتها، وهي تقضي بتحديد حجم الجيش العراقي، ونزع صواريخه، وفك منشآته الكيماوية والنووية).

ولا أدري من أين أتى الأستاذ هيكل بهذا الكلام؟ إن قائمة طلبات الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الحين على الأقل، لم تكن تتجاوز مطلب الانسحاب بدون شروط وعودة الشرعية إلى الكويت. ولماذا لم يفهم من قول الرئيس «ثم أرى بعد ذلك ما يمكن عمله» أنه يقصد التفاوض مثلاً على ترسيم الحدود، وعلى قضية الجزر وما إلى ذلك من المسائل المختلف عليها؟ إن التأويل الذي تطوع به الأستاذ هيكل هو استباق للأمور، في محاولة منه لافتعال أعذار لحكام العراق الذين تحولوا إلى مساومة جديدة مع الأمريكان حول الاحتفاظ بجزء من الأراضي الكويتية التي احتلوها، وهذا ما رفضه الرئيس الأمريكي في لقائه مع ملك الأردن.

وننتقل بعد ذلك إلى الفصل الذي أنشأه الأستاذ هيكل بعنوان «الأبواب المغلقة» ويقول فيه في ص ٤٦٤ .

«كانت بغداد تتابع ما يجري حولها، وكان ما تراه يدعوها إلى الإحساس بأن أبواب الحل كانت تنغلق بابًا بعد باب».

وهذا كلام عجيب، لقد كان باب الحل الوحيد مفتوحًا، وظل مفتوحاً إلى النهاية، وهو ببساطة أن تعود القوات العراقية من حيث أتت وتنسحب من الكويت دون شروط.

ويستعرض الأستاذ هيكل كل هذه الأبواب، فيقول عن الباب العربي إنه أصبح مغلقًا بالكامل! وذلك لأن مؤتمر القمة الذي عقد في القاهرة قد طالب العراق

بالانسحاب الكامل من الكويت!! وكذلك باب الأمم المتحدة التي طالبت بنفس المطلب. والباب السوفيتي كذلك، وأيضًا الباب الألماني ـ الياباني، أما الباب الفرنسي فمن وجهة نظر الأستاذ هيكل، وربما من وجهة نظر الحكومة العراقية كان «مواربًا» يقول في ذلك (ص ٤٦٦):

«ففرنسا تظهر أنها مستعدة للحركة إذا ظنت مقدمًا أن قرار الانسحاب في يدها. وفي نفس الوقت فإنها ليست على استعداد لأن تقدم ضماناً لما بعد الانسحاب، وخصوصًا فيما يتعلق بما يمكن أن تطلبه الولايات المتحدة زيادة على الانسحاب وما بعده».

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة لم تكن قد تقدمت بعد بطلبات جديدة سوى الانسحاب وعودة الشرعية، ففيم كان الافتراض الذي سبق أن ناقشناه بأن الولايات المتحدة كانت لها طلبات أخرى؟

أما عن الباب الأمريكي فيقول هيكل في (ص ٤٦٧):

«والباب الأمريكي من زاوية الكونجرس كان ينغلق درجة بعد درجة. وكانت بغداد تعيش على تجربة حرب فيتنام ومعارضة الكونجرس والرأي العام لاستمرارها وضيق الكل بوجهها اللاإنساني، وبما تكلفته من تضحيات في الأرواح والأموال».

ويقول الأستاذ هيكل في هذا الموضوع، إن الشعب الفيتنامي لم يكن يطلب إلا حريته ووحدته، لذلك ضاق الكل بحرب فيتنام كما يقول، أما حكام العراق، فكانوا هم المعتدين، ومطلبهم كان أن يسمح لهم العالم بضم الكويت أو أجزاء منها على الأقل، لذلك ضاق العالم بهم هم، وأيد الأمريكان في حربهم ضدهم!

وفي النهاية يختم الأستاذ هيكل حكاية الأبواب هذه «بالخيبة القوية» لطغاة بغداد وذلك بقوله (ص ٤٦٧):

«ولقد وصل الحرص على البحث عن باب مفتوح إلى حد أن بغداد طرقت الباب الإيراني ذاته رغم كل ما جرى بين البلدين في عقد الثمانينات كله. وأعلن الرئيس صدام حسين استجابة من طرف واحد لكل طلبات إيران».

ولا أدري أي «باب مفتوح» في قضية الغزو العراقي للكويت يلتمسه طغاة بغداد عند إيران؟ هل كانوا يتصورون مثلاً أن تشاركهم إيران في عدوانهم أو تدافع عنهم مقابل الاستجابة لكل طلباتها؟ لقد سخرت منهم واصطادت في الماء العكر، حينما لجأت الطائرات العراقية إليها فرارًا من قصف قوات التحالف الدولي، واستولت عليها كجزء من التعويضات المستحقة لها عن أضرار الحرب التي سبق أن شنها على إيران. . . أما الباب المفتوح «الحقيقي» فلم يكن عند إيران، كان هناك باب واحد فحسب لم يطرقوه، وهو الانسحاب من الكويت إلا بعد أن أجبروا عليه وهم صاغرون!

ثم يورد الأستاذ هيكل واقعة يعتبرها من وجهة نظره دليلاً على أن الهدف الأمريكي لم يعد تحرير الكويت وإنما طلب رأس العراق! يقول في ص ٤٦٨:

«في يوم ١٥ سبتمبر انفجر لغم، فقد أدلى الجنرال، «مايكل دوجان» رئيس هيئة أركان حرب الطيران الأمريكي، بتصريحات لجريدة «واشنطون بوست» الواسعة النفوذ، قال فيها: «إن خيار الحرب الجوية هو الخيار العملي المتاح للولايات المتحدة، فعليها أن توجه ضربات قاصمة لكل هدف عراقي عسكري أو مدني في العراق، وعليها أن تدك كل منشأة وكل مرفق.

ثم إن العراق تحت حكم رجل واحد، وهو صدام حسين، ولابد من التركيز عليه كهدف وقتله في بيته أو في مكتبه أو أي قيادة يكون فيها، ذلك لأن قطع الرأس يجعل الجسد بلا حراك. وأضاف الجنرال «دوجان» قائلا: «إن الكلام عن حرب برية لتحرير الكويت معناه تدمير الكويت تحت شعار إنقاذها لأنها مدينة واحدة، ولا يوجد شيء غيرها».

«وقال «دوجان»: لابد أن تكون حربنا صاعقة، وليس هناك داعٍ للتصعيد التدريجي، وإذا ما جاءت هذه اللحظة، فلا يجب علينا أن نضيع وقتاً في ضرب الأطراف، وإنما يجب أن نضرب حيث يكون الضرب موجعًا، أي في الداخل وفي القلب».

«إن السلاح الجوي لديه على مسرح العمليات قوة هائلة، ولابد أن نفكر بطريقة جريئة، أي نضرب وندمر ونقتل، وليس لكي نحرر مدنًا ونطهرها، هذه مهمة يمكن أن يقوم بها آخرون من حلفائنا، أما نحن فلدينا ما هو أهم، وبتضحيات إنسانية أقل».

«ثم قال «دوجان» إن الألف طائرة الأمريكية الجاهزة للعمل في العراق تستطيع أن تقذف به عائدًا مرة أخرى إلى العصر الحجري. ثم كان أخطر ما قاله «دوجان» هو: «إن إسرائيل أعطت للولايات المتحدة معلومات استخبارية كافية عن الأهداف العراقية».

وبالرغم من كون الرئيس الأمريكي قد أعفى دوجان من منصبه لأسباب من بينها إفشاء أسرار عمليات، والتحدث بدون تفويض باسم قيادة الأركان المشتركة، وإفشاء مخالفة القرار بعدم القيام باغتيالات فردية، إلا أن تصريحات دوجان كانت بمثابة تحذير مبكر لطغاة بغداد من الجحيم الذي انفتحت أبوابه ويوشك أن يبتلع بلادهم، فسيناريو العمليات التي تمت بالفعل لم يكن يخرج عن هذا الذي ذكره دوجان، فيما عدا عدم الحرص على قتل صدام حسين، وذلك لو كانوا يعقلون.

* * *

في موضع آخر من الفصل ذاته يقول الأستاذ هيكل (ص ٤٧٦):

«وكان العراق يرى نفسه في موقف صعب. فهو متردد في إعطاء تنازلات قد

تحسب عليه إلى أن يقول: «فالرئيس بوش في هذه الحالة سوف يتصاعد بشروطه فيطلب تحديد حجم القوات العراقية، وتدمير مصانع الصواريخ والأسلحة الكيماوية، وقد يصل إلى ما هو أبعد من ذلك». إن معنى ذلك أن الرئيس بوش لم يكن قد «تصاعد» بمطالبه بعد، وقد سبق أن ناقشنا استنتاجات هيكل الغريبة حول تصاعد المطالب الأمريكية وتجاوزها موضوع الانسحاب وعودة الشرعية، ولكنه هنا يضيف أن هذه المطالب قد تصل إلى أبعد من ذلك، ولم يقل لنا ما هي تلك الأبعد!!

ثم يقول هيكل:

«الحاصل أن بغداد في ذلك الوقت وجدت نفسها دون أن تقصد في نفس الموضع الذي يريد «بوش» أن يضعها فيه. فهو وكل الآخرين يطالبونها بالانسحاب، أما هي فقد امتنعت في تلك الفترة عن ذكر هذه الكلمة السحرية، وكان هذا ما يريده «بوش» تمامًا ليقنع كل الأطراف أنه لم يعد هناك بديل غير الحرب».

ولاشك أن مخاوف بغداد لو صحت، فلم تكن بالطبع لتوازي الآثار المدمرة للحرب. ولكن هيكل حرص على أن يصور الحرب بأنها إرادة بوش أولاً. وبما أن «الذئب الجائع» لابد له من فريسة، فكان على حكام بغداد أن يجعلوا من بلادهم «النعجة» التي يقع عليها الافتراس لأنه قدرها الذي لا مفر منه... **أي منطق هذا؟؟؟**

ونمضي مع هيكل فيما يرويه، يقول في الصفحة ذاتها:

«وفي ذلك الوقت أصدر حزب البعث العراقي تعميمًا إلى أعضائه طلب فيه إليهم الامتناع عن أية مناقشات حول ما إذا كان يتعين على العراق أن ينسحب أو لا ينسحب من الكويت»، إلى أن يقول:

«كان الجو في بغداد معبأ بالقلق على كل المستويات، بما في ذلك مستوى المثقفين، بل وحتى عامة الناس الذين كانت الأزمة تمسك بخناقهم، والنتائج المترتبة عليها تؤثر على حياتهم.

«كـان الحصار الاقتصـادي قد بـدأ يحدث مفعـولـه. وكـان الحصـار البحـري والجوي قد أحاط الناس جميعًا بطوق من الفولاذ يضيق أكثر وأكثر. وكان تقنين الوقود قد خفف كثيرًا من حركة السير في العاصمة. إلى أن يقول:

«ومـع ذلك كـان هنـاك الكثـيرون لم يمنعهم التعتيم بحـظر المنـاقشـات حـول الانسحاب من مناقشة ما جـرى وما يمكن أن يجـري.. وحتى على المستـوى الرسمي كانت هناك محاولات للبحث عن منفذ. بل إن المخابـرات العراقيـة نفسها أدارت في ذلك الوقت مناقشات حول تطور الأزمة، بما في ذلك جدوى أن ينسحب العـراق من الكويت. وقد قام السيد «سبعاوي التكريتي» وهو مديـر المخابـرات العراقيـة وشقيق الرئيس «صدام حسين» بدعوة ستة من أساتذة العلوم السياسية في جـامعات العـراق طالبًا إليهـم أن يديروا فيـما بينهم مناقشـة حرة حـول الخيارات المفتـوحة للخـروج من الأزمة.

وقد انهمكوا ثلاثة أيام اشترك فيها عدد من مستشاري «صدام حسـين». وكان الأساتذة الستة في بداية الأمر مترددين، ومع استمرار المناقشة وتكرار تأكيدات الأمان التي أعطيت لهم - فإنهم فتحوا عقولهم وقلوبهم لآراء صريحـة. وقد أشـار أربعة منهم في النهاية إلى ضرورة إنسحاب العراق من الكويت لأن الأخطار التي يواجهها داهمة. بل ووصل الأمـر بينهم إلى أن وضعوا بـأنفسهم «سينـاريـو» لإخراج قـرار الانسحاب يؤدي إليه دون أن يؤثر على كرامة العراق. وكان رأيهم أيضًا أنه ليس من المستبعد أن يحصل العراق على نوع من الضمانات إذا مـا كان قـراره بالانسحـاب واضحًا لا لبس فيه».

«ومـع ذلك فقـد كـان هنـاك رأي آخـر لا يـزال متمسكًـا بتشـدده وإصراره، وتقديره بأن الحرب ليست مؤكدة. وهذا الاتجـاه أظهر في دوائـر حزب البعث منـه في دوائر الحكم أو دوائر المثقفين».

إذن المصيبة كانت في دوائر الحكم، وتآمرها الإجرامي على مستقبل العراق والأمة العربية بأسرها، وهم قطيع من الجهلة لا صلة لهم بدوائر المثقفين، وحتى حينما استشاروا ستة من أساتذة العلوم السياسية ضربوا برأيهم السديد عرض الحائط، ويكفي أن هؤلاء الأساتذة وطبقًا لما رواه هيكل ـ كانوا في حاجة إلى «تكرار تأكيدات الأمان لهم» لكي يقولوا رأيهم الصريح في مسألة يتوقف عليها مصير العراق. الأمان من بطش السلطة الطائشة الغاشمة، التي لا تعقل ولا تريد لغيرها أن يعقل، وفي النهاية تأبى أن تستفيد مما ينصح به العاقلون!

.. هكذا يكون الطغيان.. وهكذا يقود أمته إلى الانتحار!

* * *

وحتى ٢١ ديسمبر ١٩٩٠م لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية تطالب طاغية العراق بأكثر من الانسحاب من الكويت وعودة الشرعية إليها، فقد كان يحتفظ بعدد من الرهائن الغربيين يهدد بوضعهم في الأماكن الاستراتيجية التي قد يصيبها القصف الجوي، وبمعنى آخر استخدامهم كدروع بشرية، ثم تخلى عن ذلك وأطلق سراحهم على دفعات لعل ذلك يخفف من سخط العالم عليه. وكانت آخر دفعة أطلق سراحها منهم بمناسبة أعياد الميلاد في العالم الغربي.

في ذلك اليوم ٢١ ديسمبر، ألقى الرئيس «بوش» بتصريحات مؤداها، كما جاء في كتاب الأستاذ هيكل في ص ٥٠٢، في الفصل الذي عنوانه «الدقيقة الأخيرة»، :

«بالنسبة لموضوع الرهائن، قال بوش إنه مع ترحيبه بإطلاق سراح الرهائن، فإن الافراج عنهم لم يفعل شيئًا إلا أنه صحح جريمة ارتكبها العراق حين احتجزهم في المقام الأول، وأن الإفراج عن الرهائن أزاح عن ضميره عبئًا معنوياً ثقيلاً».

ويعلق الأستاذ هيكل على ذلك بقوله: «وكان المعنى واضحًا، ومؤداه أنه يستطيع أن يضرب بلا تحرز أو تردد».

«وبالنسبة لموضوع احتلال الكويت قال بوش: إن انسحاب العراق من الكويت ليس كافيًا لحل الأزمة، وإنما يتحتم لحلها أن يتم نزع قوة العراق العسكرية وإزالة مصانع وقواعد صواريخه، وكافة منشآته النووية وكذلك يتعين على العراق أن يدفع تعويضات كاملة عن كل الأضرار التي لحقت بجميع الأطراف في المنطقة».

ويعلق هيكل على ذلك بقوله: «وهنا أيضًا كان المعنى واضحًا، ومؤداه أنه سوف يلاحق العراق ويطارده إلى النهاية».

وبالطبع فإن تصعيد المطالب الأمريكية على هذا النحو، كان مرتبطًا بالعناد الذي أبداه حكام العراق، ورفضهم الانصياع لكافة النداءات والقرارات الدولية التي تطالبهم بالانسحاب من الكويت، ولكن هذا التصعيد ذاته يدل على أن التصميم الأمريكي على إجبارهم على الانسحاب من الكويت لم تعُد فيه شبهة من نوع ما أشير إليه في الفقرات السابقة من اعتقاد دوائر الحكم في العراق أن الحرب ليست مؤكدة!

* * *

وقبل أسبوع من انتهاء المهلة التي حددها مجلس الأمن لكي تنسحب القوات العراقية من الكويت، دون قتال، وهي ١٥ يناير ١٩٩١م، عقد اجتماع في جنيف بين كل من جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي، وطارق عزيز وزير خارجية العراق يوم ٩ يناير، يقول الأستاذ هيكل في ص ٥١٥ واصفًا هذا الاجتماع:

«بدأ جيمس بيكر فأخرج من ملف معه مظروفًا ثم قال:

«إن الرئيس طلب أن أسلمك هذا الخطاب لكي تسلمه بدورك إلى رئيسك، وتناول طارق عزيز المظروف، وأراد أن يضعه أمامه على المائدة، ولكن بيكر طلب إليه أن يقرأه، وقال طارق عزيز: «فهمت منك أن الخطاب موجه من رئيسك إلى

رئيسي، فهل يحق لي أن أقرأه؟»، وقال بيكر بصوت حاول قدر ما يستطيع أن يجعل نبرته محايدة: «إنني أقترح أن تقرأه الآن، لأن ما سوف نتحدث عنه اليوم متصل بما فيه»، وفتح طارق عزيز المظروف وبدأ يقرأ، وكان نص الخطاب كما يلي:

«السيد الرئيس

«إننا نقف على حافة حرب بين العراق وبقية العالم، وهذه حرب بدأت بقيامكم بغزو الكويت، وهي حرب يمكن أن تنتهي فقط بانسحاب عراقي كامل، وغير مشروط وفق قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨.

«وأنا أكتب الآن مباشرة لك لأنني حريص على ألا تضيع هذه الفرصة لتجنيب شعب العراق مصائب معينة.. إلى أن يقول: «إننا نفضل الوصول إلى نتيجة سلمية، ولكن أي شيء أقل من التنفيذ الكامل لقرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ هو أمر غير مقبول بالنسبة لنا، ولن تكون هناك مكافآت لعدوان، ولن تكون هناك مفاوضات، لأن المبادىء ليست قابلة للمساومة».

«وعلى أي حال فإن العراق إذا قام بالتنفيذ الكامل للقرارات يستطيع أن ينضم إلى المجتمع العالمى، في المدى القريب، فإن البنيان العسكري العراقي يستطيع أن يهرب من التدمير، ولكن إذا لم تقم بالانسحاب من الكويت انسحابًا كاملاً غير مشروط، فإنك سوف تخسر ما هو أكثر من الكويت.. إن ما هو مطروح الآن ليس مستقبل الكويت، فالكويت سوف يتم تحريرها وحكومتها سوف تعود إليها، ولكن المطروح هو مستقبل العراق، وهو خيار يتوقف أمره عليك...» ويقول في موضع آخر:

«إن العراق بدأ يشعر فعلاً بآثار العقوبات التي قررتها الأمم المتحدة، وإذا جاءت الحرب بعد العقوبات، فستكون تلك مأساة أكبر لك ولشعبك، ودعني أنبهك إلى أن الولايات المتحدة لن تتسامح مع أي استخدام للأسلحة الكيماوية أو البيولوجية أو أي تدمير للمنشآت البترولية في الكويت..»

يقول هيكل ص ٥١٨ : «إن طارق عزيز طوى الرسالة بعد أن قرأها وأعادها إلى المظروف الذي كانت فيه، وقال بهدوء إنني لا أستطيع أن أقبل هذه الرسالة، ولا أستطيع أن أنقلها لرئيسي لأن اللهجة التي كتبت بها ليست مما يمكن أن يستعمل في توجيه خطاب من رئيس دولة إلى رئيس دولة آخر. . .».

(كأن اللهجة التي يخاطب بها صدام حسين كانت أهم من مستقبل العراق، ولكن ذلك جزء من الصلف الزائد الزائف عند هذا النوع من الطغاة عاجزي الرأي، الذين يقودون أممهم إلى الهلاك)!

ننتقل بعد ذلك إلى بقية ما دار في اجتماع بيكر مع طارق عزيز، يقول هيكل في ص ٥٢١ :

«قال بيكر . . دعني أعطيك صورة دقيقة عن قوة التحالف الموجودة أمامكم . .

«وراح بيكر يتحدث عن قوات درع الصحراء أو عاصفة الصحراء الموجودة تحت تصرف الجنرال شوارتزكوف، وقد بدأ بأسطول حاملات الطائرات الموجودة في البحر الأحمر وفي الخليج، وعددها ست حاملات طائرات على ظهرها مئات الطائرات وكل حاملة منها تقود مجموعة قتال من ٩ قطع بحرية مجهزة بصواريخ توماهوك.

«ثم انتقل بيكر إلى القوة الجوية فقال إن قيادة التحالف تحتفظ تحت امرتها بنطاق من القواعد محيط بالعراق، ويستطيع أن يطال أي جزء منه، وفي هذه القواعد تتمركز أكثر من ألفي طائرة، وليس المهم عددها، وإنما المهم هو نوع التكنولوجيا التي سوف تستخدمها قيادة التحالف في تنفيذ الأهداف المقررة لها داخل العراق، وأنتم لا تستطيعون أن تتصوروا نوع التكنولوجيا المتوافرة لهذه القوات الجوية.

«ثم وصل جيمس بيكر إلى القوات البرية للتحالف، فتحدث عن حجم الجيوش وعن نوعية سلاحها، وعن قوة النيران التي تملكها على أساس تكنولوجي لم يستعمل من قبل في أي حرب.

«ثم أضاف بيكر قائلا:

«إننا نعرف أن لديكم مخزونًا كبيرًا من الأسلحة الكيماوية، ونحن ننصحكم كما ذكر الرئيس بوش في رسالته إلى الرئيس صدام ألا تستعملوه في أي مرحلة من مراحل أي شيء يمكن أن يحدث بيننا، ونريد أن نلفت نظركم إلى أن استعمالكم الأسلحة الكيماوية ضد قوات التحالف سوف يستوجب من ناحيتنا ردًا من نفس النوع غير التقليدي»، ويضيف هيكل بين قوسين (وكانت الإشارة واضحة إلى الأسلحة النووية)، ويقول بعد ذلك:

«كان الصمت في القاعة كاملًا لا يقطعه إلا صوت بيكر يحصي الحاملات والبوارج والقواعد والطائرات وقاذفات الصواريخ والدبابات، إلى آخره. . .».

وأحس فيما يبدو أنه تجاوز الحد في صورة الهول الأكبر التي رسمها، فقد توقف ليصب لنفسه كوب ماء يشربه بينما القاعة غارقة في صمتها وفي كآبتها، وعاد بيكر إلى الحديث قائلا:

«هذا ما أردت قوله، ودعني أضيف عليه أنني حين قابلتك من قبل في مكتبي في واشنطون سمعت منك الكثير عن أمانيك لمستقبل العراق. . إلى أن يقول: وإنني لآسف أن أقول لك إن هذا المستقبل الذي كنت تتمناه لن يتحقق إذا لم تنفذ حكومتك قرارات مجلس الأمن كاملة. . .».

لقد كان التصرف الطبيعي، أن يتوجه طارق عزيز إلى أقرب هاتف ليبلغ رئيسه بمدى الهول الذي كان ينتظر العراق كما صوره له بيكر، ولينصحه بما ينبغي اتخاذه لإنقاذ العراق منه. . .

ولكن يبدو أن بيكر كان أكثر إشفاقًا على مستقبل العراق، من طارق عزيز، ومن رئيسه، ومن سائر العصابة التي تحكم العراق!

(١٥)

في أتون الكارثة

ثم نصل إلى الحلقة الأخيرة من كتابنا هذا «الطغيان والانتحار القومي.. ما لم يقله هيكل في حرب الخليج» تعليقا على الكتاب الذي أنشأه الأستاذ محمد حسنين هيكل، بعنوان «حرب الخليج أوهام القوة والنصر».. نصل في قراءتنا لكتاب الأستاذ هيكل إلى الفصول الأخيرة منه، والتي تدور حول نشوب الحرب بين قوات التحالف الدولي والقوات العراقية، وما أعقب تلك الحرب، وذلك بعد أن رفضت الحكومة العراقية الانصياع لقرارات مجلس الأمن الدولي بالإنسحاب من الكويت، وأعرضت عن كل نصيحة أو نداء لها بانجاز هذا الانسحاب قبل أن تقع الكارثة.

حتى بعد أن بدأت الحرب واستمر القصف الجوي للعراق أكثر من خمسة أسابيع، ظلت الحكومة العراقية على عنادها، رافضة الانسحاب من الكويت، منتظرة الحرب البرية، وكما يقول الأستاذ هيكل في ص ٥٥١:

«كان التقدير أن هذه الحرب قد تطول، وبمقدار ما تطول فإن خسائر الأرواح في القوات الأمريكية سوف تعيد إلى الوطن الأمريكي أشلاء جنود في أكياس من البلاستيك، وحينئذ يتكرر ما حدث في فيتنام أو شيء قريب منه، ويثور الرأي العام الأمريكي، ومعه الكونجرس، ويضغط على الرئيس الأمريكي لقبول حل وسط!»

ويبدو أن عقدة فيتنام قد تحولت من عقدة أمريكية إلى عقدة عراقية! جعلت طغاة بغداد يتصورون أن «أم المعارك» تنتظرهم، حينما تلتقي قواتهم البرية التي حشدوها في الكويت مع القوات الأمريكية، ولكن الذي حدث هو أن قوات

التحالف الدولي اخترقت الحدود العراقية بعيدا عن خط المواجهة في الكويت، وصولا الى الناصرية في قلب العراق، حيث أصبح في امكانها أن تعزل جنوب العراق كله عن شماله، وتمنع وصول المدد إلى القوات العراقية في الكويت، وهو الذي نقص بمقدار ٩٠٪ بسبب الضربات الجوية وحدها. كما يقرر الأستاذ هيكل في كتابه في ص ٥٦١.

ورغم الدمار الذي أصاب العراق في الغارات الجوية، «ولحق بشبكات المياه والصرف الصحي والكهرباء والتليفونات ووسائل النقل ومخازن المؤن»، كما ينقل الأستاذ هيكل في ص ٥٥٥، عن تقرير لصدر الدين آغا خان إلى السكرتير العام للأمم المتحدة.. رغم ذلك، وفي أتون الكارثة، رفض طغاة بغداد سحب قواتهم من الكويت لإيقاف الكارثة عند حد، وأعرضوا عن النصائح التي وجهت إليهم بعدم انتظار الحرب البرية، أو التعويل عليها، وأنها سوف تصيب بلادهم بمزيد من الدمار، حتى أجبرتهم تلك الحرب، وبالطريقة التي تمت بها على الانسحاب من الكويت، تحت أعنف الضربات وأقساها..

ولم يقل الأستاذ هيكل إن كل ما استطاعوا فعله هو إضافة جريمة جديدة، إلى جرائمهم، وهو اشعال النار في حقول النفط بالكويت، مسببين كارثة بيئية للمنطقة كلها، لم يسلم منها العراق ذاته.. امعانا في السياسة الاجرامية الانتحارية التي اتسم بها النظام العراقي.

ان كثيرا من ساسة الدول يفقدون مواقفهم، وربما حياتهم «لأخطاء» أقل بكثير مما ارتكبته الحكومة العراقية في حق شعبها، والأمة العربية، وإذا كان طغاة بغداد يجدون في أنفسهم هوى لمقارنة ما حاق ببلادهم وبالأمة العربية على أيديهم، بهزيمة ١٩٦٧ فقد أشرنا في حلقة سابقة إلى الفارق الرئيسي بين الموقفين من نص كلام الأستاذ هيكل، وهو أن حرب ١٩٦٧، كانت ضد اسرائيل، وكانت مصر تسعى

لدفع عدوان محتمل من جانب هذه على سوريا، أما «حرب الخليج ١٩٩٠»، فكان البادىء بالعدوان هو الحكومة العراقية بغزوها للكويت، لذلك أعرض معظم الرأي العام العربي عن تأييدها، أما بقية العالم فقد تحالف كله تقريبا ضدها. ومع ذلك فقد دفع حكام مصر عام ١٩٦٧ ثمن أخطائهم التي أدت إلى تلك الهزيمة، فقد أعلن جمال عبد الناصر استعداده للتنحي عن منصبه، بل قال بعض خاصته إنه فكر في الانتحار، وعمليا فقد توفى إلى رحمة ربه بعد ثلاث سنوات من تلك الهزيمة، تحت وطأة العناء النفسي والبدني الفادح للهزيمة وللجهود التي بذلها في أخريات عمره لإزالة آثار العدوان. أما المشير عبد الحكيم عامر فقد دفع حياته بالفعل، وذلك بصفته المسئول الأول عن النكسة، حيث كان هو القائد العام للقوات المسلحة، التي لم يكن تدريبها على مستوى ما كان تحت أيديها من أسلحة، ورفض تحذير عبد الناصر من أن الحرب قد تبدأ بضربة جوية في الخامس من يونيو، وأهم من ذلك أنه بحكم سيطرته على القوات المسلحة قد رفض فيما يبدو تنفيذ الفكرة التي كثيرا ما رددها جمال عبد الناصر في خطبه من أنه سوف يواجه التفوق في السلاح الاسرائيلي بوضع خمسة ملايين شاب مصري تحت السلاح. وسر هذا الرفض هو الخوف من التسليح على نطاق واسع لهذا العدد الكبير من أبناء الشعب المصري، مما يهدد السلطة المطلقة «للطغيان» الذي كان عبد الحكيم عامر من أخطر رموزه في الواقع، وكانت النتيجة أن القوات الاسرائيلية التي ألحقت الهزيمة بثلاث دول عربية في تلك الحرب واحتلت أجزاء شاسعة من أراضيها، لم تكن أكثر تفوقا في نوعية سلاحها ودرجة تدريبها عمليا فحسب، بل كانت بالفعل أكثر عددا من حيث الأفراد من كل القوات العربية التي واجهتها، كما تذكر بعض المصادر عن تلك الحرب، ومما ضاعف من مأساة ١٩٦٧ أيضا اقحام الجيش المصري في الحرب الأهلية في اليمن، وهو الذي قيل أيضا إن السبب الفعلي له، كان خوف المشير عامر وجماعته من إقدام هذا الجيش على القيام بانقلاب عسكري، بعد أن أجبر على العودة من سوريا بعد الانفصال. . وقد أدى ذلك إلى انهاك القوات المسلحة المصرية قبل المواجهة مع اسرائيل، وافساد معنوياتها

بما أغدقه عليها عبد الحكيم عامر، حتى تصورت الحروب مجرد غنائم، وعلى حد تعبير بعض الدوائر الأمريكية المؤيدة لاسرائيل في ذلك الحين: «دعه ينزف في اليمن». . علما منها بما سوف يؤدي إليه هذا التورط في حرب اليمن من اضعاف الجيش المصري.

ولست أدري، هل يقبل الأستاذ هيكل - رغم كونه يدرك الفوارق - دعوى العصابة الحاكمة في بغداد أنهم يشبهون حكام مصر في عام ١٩٦٧، لذلك يتعاطف معهم، ونراه حريصا في الفصول الأخيرة من كتابه على اظهار أن عدم نجاح قوات التحالف الدولي في اسقاط صدام حسين، أو قتله، هو جزء من «أوهام» النصر الأمريكي الذي لم يتحقق كاملا؟ لقد كان هدف الحرب كما هو معروف هو تحرير الكويت، وقد تحقق هذا الهدف، ويجري - طبقا لاتفاق وقف اطلاق النار تدمير أسلحة الدمار الشامل ووسائل صنعها لدى العراق. أما مسألة تغيير نظام الحكم في العراق فلا مفر من أن تترك للشعب العراقي وحده يقررها، وهي ه سألة وقت على كل حال.

فالنظام العراقي بصورته الراهنة لم يعد له مستقبل، فقد وصلت سياسته الانتحارية إلى أقصى مداها في إلحاق أبلغ الضرر بالشعب العراقي، وبالأمة العربية في مجموعها، دون أن يصاب رموز النظام أنفسهم بشيء حتى الآن. ولو بقوا، وبقيت معهم تصريحاتهم الخرقاء عن العودة الى الاستيلاء على الكويت من جديد، . . فإنهم لن يكسبوا لبلادهم سوى المزيد من العزلة العربية والدولية، إن لم تجرهم حماقاتهم إلى ضربات عسكرية جديدة يكون الشعب العراقي هو الخاسر الوحيد فيها، كما هي عادتهم معه!

وعلى ذكر المستقبل، فقد ألحق الأستاذ هيكل بكتابه مبحثاً صغيراً غير خاضع للتبويب الأصلي لكتابه بعنوان «البحث عن المستقبل»، ناقش فيه بعض التصورات

أو «السيناريوهات» عن مستقبل المنطقة العربية بعد حرب الخليج، وفي اطار المتغيرات والأوضاع الدولية الجديدة ولن نمضي في مناقشة تلك التصورات جميعا، فذلك أمر يخرج بنا عن موضوع هذا الكتاب، ولكن نكتفي ببعض الملاحظات.

* ونبدأ بملاحظة شكلية: فقد كتب الأستاذ هيكل يقول في ص ٦١٥ : «ثم إن ايران طرف فاعل في الحزام الشمالي الواقع فوق العالم العربي» وعاد ليكرر التعبير ذاته في ص ٦١٧ حيث يقول: «هناك بعد ذلك منطقة الحزام الشمالي فوق الشرق الأوسط» ولا أدري لماذا يختار الأستاذ هيكل أن يصف كل ما يقع جغرافيا شمال المنطقة العربية بأنه فوقه! هل لأن الأوروبيين يرسمون الخرائط الجغرافية والشمال منها فوق والجنوب تحت؟ وأظن أن الأستاذ هيكل لو أتيح له الاطلاع على خريطة رسمها الجغرافيون قديما، كالادريسي مثلا لوجد العكس، أن الجنوب هو الذي «فوق» والشمال هو الذي تحت! وعلى كل ليس هناك في الموضوع فوق ولا تحت، كل ما هناك شمال وجنوب. . ولكن لم يكن هناك داع لاستخدام هذا التعبير، الذي يوحي برفعة الشمال ودونية الجنوب دون مناسبة!

* ونخرج من الشكل إلى الموضوع: يقول الأستاذ هيكل في تتمة العبارة الثانية مما تقدم ذكره: «هناك بعد ذلك منطقة الحزام الشمالي «فوق» الشرق الأوسط، وهو الحزام الممتد من أفغانستان إلى الجمهوريات الاسلامية، مما كان الاتحاد السوفيتي سابقا (تادجيكستان ـ وأزباكستان ـ وأذربيجان ـ وكازاخستان)، ثم باكستان وايران وتركيا. وهذه منطقة ترتج بالزلازل وتفور بالبراكين، وتختلط فيها مواريث الاسلام بمؤثرات حضارية مختلفة عنه، إلى جانب قضايا هوية ثقافية وسياسية ومشكلات أمن ونمو وتيارات عنيفة تهب من الخارج في اتجاهات معاكسة».

* ونلاحظ هنا أنه أسقط ذكر اثنتين من الجمهوريات الاسلامية «السوفيتية سابقا» وهي تركمانستان وقرغيزيا، كما أنه كتب اسم الجمهورية الأول بطريقة أوروبية،

بالتاء في أولها، وأهلها يفضلون كتابتها طاجيكستان،لأنهم يعتبرون أنفسهم سلالة من قبيلة طيء العزبية نـزحت إلى تلك المناطق مـع الفتح الاسـلامي، وذلك ممـا سمعته في عاصمتها دوشنبي في احدى زياراتي لها من أحد قضاة الشرع المسلمـين بها.

ثم نعود لكلام الأستاذ هيكل حيث يقول بعد ما تقدم مبـاشرة: «وهذه منـطقة لعب فيهـا المال العـربي ـ أيضا ـ أدوارا يصعب فهمهـا» إلى أن يقول: «المـال العـربي ما زال يجرب حظه في الجمهوريات الاسلاميـة للاتحـاد السوفيتي السـابق، لأن بعض الدول العربية ترى أن ايران تتداخل بقوة التـأثير الـديني في هذه الـدول، وخصوصـاً أذربيجان بحكم أنها كانت حتى القرن التاسع عشر جزءا من ايران، كذلك تتداخـل تركيا بقوة التأثير الثقافي متمثـلا في أصول لغـوية وحضـارية، ويتصـور بعض العرب أنهم لا يستطيعون البقاء بعيدا، ثم يخطر ببالهم أن مزيجا من المال لبناء مسـاجد، مـع عدد من الشيوخ للوعظ والارشاد، كفيل بـأن يعطيهم دورا، والحـاصل أن المسـاجد تبنى والشيوخ يذهبون، لكن التأثـير الأكبر يحـدث حين يعتـلي المنابـر دعاة الأصـولية الاسلامية، ويحيط بالأعمدة أتباع الطرق الصوفية».

مرة أخرى يتناول الأستاذ هيكل قضية على الدرجة القصوى من الأهميـة بأكـبر قدر من الاستخفاف! والقضية في كل مرة تتعلـق بالتـطورات الهائلة التي حـدثت في المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفيتي السابقين.

في المرة الأولى كما رأينا في الفصل الخامس من كتابنا هذا أنزل التحول التاريخي الذي حدث في الاتحـاد السوفيتي والمعسكـر الاشتراكي، ومـا ترتب عليـه من الحرب الباردة إلى مستوى المقارنة مع انتصار العراق المزعوم على ايران!

وفي هذه المرة يسخر من العرب، جميع العرب، حينـما يقول: «ويتصـور بعض العرب أنهم لا يستطيعـون البقاء بعيـدا..»، بالمنـاسبة فـإن من بين هؤلاء العـرب،

وربما في مقدمة من يرون منهم أنهم لا يستطيعون البقاء بعيدا بلد الأستاذ هيكل وكاتب هذه السطور، أعني مصر، فساستها، ورجال الأزهر الشريف بها، وكثير من مفكريها. . يشعرون بالفعل بأنهم «لا يستطيعون البقاء بعيداً» عما حدث في الاتحاد السوفيتي، واستقلال الجمهوريات الاسلامية التي كانت جزءا من مكوناته.

ولنعد الى تصور الموضوع من أصوله، لنرى ان كانت تلك المناطق تستحق أن يقترب منها العرب أو يبقوا بعيدا.

إن تفكك الاتحاد السوفيتي وخروج الجمهوريات الاسلامية منه حدث لا يقل خطورة - إن لم يزد - عن تحوله من الديكتاتورية الشيوعية إلى الديمقراطية، وحاليا الى اقتصاد السوق أو الرأسمالية.

ويكفي أن نسترجع في هذا الصدد قول الرئيس الأمريكي السابق «ريتشارد نيكسون» في كتابه الأخير بعنوان «انتهزوا الفرصة» حيث يقول «إن الاتحاد السوفيتي لو بقي على وحدته الى القرن الحادي والعشرين لأصبحت الأغلبية فيه اسلامية».

وذلك أمر ظل يؤرق قادة الاتحاد السوفيتي السابق، والفكر الغربي بصفة عامة منذ السبعينات، حينما كانت الصحف السوفيتية تنشر نداءات متكررة للنساء في المناطق الأوروبية من الاتحاد السوفيتي بالعمل على زيادة انجاب الأطفال، حيث لوحظ أن المرأة الروسية أو الأوكرانية مثلا تميل إلى انجاب طفل واحد فقط في المعدل العام لتقضي بقية أمسيتها في السهرات، والتمتع بالتردد على المراقص والملاهي . . الخ، بينما المرأة الآسيوية المسلمة تقبع عادة في عقر دارها، وغالبا لا تقرب الخمر والتدخين، بحيث أصبح معدل المواليد في الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي، هو ثمانية أطفال لكل أسرة! وكان من طبيعة الأمور أن ينعكس هذا الوضع على تركيبة الدولة السوفيتية بأسرها، حيث بلغ عدد المسلمين في الجيش السوفيتي أكثر من ثلث وفي بعض التقديرات تجاوز أربعين في المائة من عدد أفراده، وكان من

آخر المحاولات اليائسة لجورباتشوف لانقاذ الاتحاد السوفيتي من التفكك تعيين نائب مسلم له، أي لرئيس الاتحاد السوفيتي، وهو مطليبوف رئيس أذربيجان، وقد رفض نور سلطان نزاربايف رئيس كازاخستان هذا المنصب، حينما أصبح تفكك الاتحاد السوفيتي أمرا لا فكاك منه.

وكما هو معروف، فإن الذي شرع في تمزيق الاتحاد السوفيتي، هم السلاف الأوروبيون، في كل من جمهورية روسيا الاتحادية وأوكرانيا، وروسيا البيضاء، حينما اجتمع رؤساء تلك الجمهوريات وعلى رأسهم بوريس يلتسين، وقرروا انشاء الكومنولث «السلافي» بين تلك الجمهوريات السوفيتية الثلاث، وانضمت سائر الجمهوريات السابقة إليه بحكم المصالح التي ما تزال متشابكة، ولكن أوضاع هذا «الكومنولث» في مجموعها تشير إلى كونه رابطة واهية في طريقها المحتوم إلى التفكك. وعلى كل فقد توقفت عملية بناء «المواطنة» أو «القومية» السوفيتية، التي كانت على وشك أن يصبح المسلمون أغلبية فيها، ولعل انشطار الاتحاد السوفيتي على هذا النحو يمثل ظاهرة تحدث لأول مرة في التاريخ، إذ تتخلى «امبراطورية» من تلقاء ذاتها عن «أتباعها»، بينما يصر هؤلاء «الأتباع» أو بعضهم على الأقل على الاحتفاظ بروابطهم مع الدولة الكبرى التي سبق لها الاستيلاء على بلادهم.. لعلمهم بأن المستقبل سوف يكون لهم!

ولم يكن «السلاف» من أبناء الجمهوريات السوفيتية وحدهم مدار هذا الانشطار، ولكن الغرب بالتأكيد كان معهم، هو والعالم المسيحي بأسره، ولذلك قبلوا التضحية بجورباتشوف، الذي كان أثيرا عندهم.

والذي يعنينا هنا، هو أن الجمهوريات الاسلامية التي استقلت حديثًا قد أصبحت واقعا جغرافيا ـ سياسيا لا يمكن تجاهله، أثار اهتمام العالم كله فيما عدا الأستاذ هيكل فيما يبدو!

فقد سبق منذ شهور أن نشرت «الأهرام» القاهرية تقريرا لمراسلها في موسكو

عبد الملك خليل، لخص فيه رأي المخابرات البريطانية في التحول المذكور، وفيه تحذير من قيام «كومنولث» يضم العرب إلى الجمهوريات الاسلامية السوفيتية السابقة، حيث يمكن أن يتكامل الفريقان في تشكيل قوة دولية جديدة هائلة:

***فالعرب من جانبهم يحتاجون إلى الخبرة التكنولوجية التي تملكها تلك الجمهوريات التي كانت، بالرغم من كل شيء، جزءا من احدى القوتين العظميين في العالم، بما في ذلك، وفي مقدمة ذلك التكنولوجيا العسكرية، ويكفي في هذا الصدد أن اثنتين من تلك الجمهوريات وهما كازاخستان وقرغيزيا، تملكان صواريخ عابرة للقارات تحمل رؤوسا نووية!**

* أما هذه الجمهوريات الاسلامية، فتحتاج إلى المال العربي للمساعدة في النهوض باقتصادياتها من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى المنابع الأصلية للثقافة العربية الاسلامية لاسترداد هويتها الحضارية المفقودة سواء تحت الحكم الروسي القيصري، أو الحكم الشيوعي، وذلك مالا يستطيع تقديمه إلا العرب..

هل يمكن بعد ذلك أن نبقى بعيداً يا أستاذ هيكل؟!

ومن الغريب أن الأستاذ هيكل قد تطرق في بحثه عن المستقبل الى ما سماه «السيناريو الاسلامي»!، وفيه يقول في ص ٦٢٦:

«والدين وحده هو الأرضية التي تمنح أصحابها ذلك اليقين النهائي الضروري حتى لمجرد البقاء».

«والاسلام ليس غريبا عن السلطة، فمعظم التاريخ العربي جرى تحت ظله أو تحت اسمه».

«وفي العصر الحديث، ورغم أفكار وتطورات وتجارب، فإن الاسلام أثبت حيويته وقدرته على التوجيه والتعبئة».

ولكن الأستاذ هيكل لا يربط بين الظاهرتين، أى بين «الصحوة الاسلامية»، التي تجتاح العالم العربي على أشكال متفاوتة، بعضها مقبول، وبعضها يجنح إلى تطرف غير معقول، وبين ما حدث في الاتحاد السوفيتي، وتغيرت معه خريطة العالم، وبالأخص عالمنا العربي الاسلامي.

ولعلنا نعود عند هذه النقطة الى مسألة الحزب العراقي الحاكم، وما ينتظره هو وما يحيط به أو ينتمي اليه من «أيديولوجيات» «وعقائديات» طالما تغنى بها الأستاذ هيكل في كتابه.

لقد سبق أن قلنا في الفصول الأولى من هذا الكتاب إن نظم الطغيان والاستبداد، التي تقوم على دعاوى التقدمية والاشتراكية.. الخ، قد افتضح أمرها بما حدث في شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي، وقد آن أن يكنسها التاريخ بما فيها الحزب الحاكم في العراق الذي رأينا كيف أنه قد جمع إلى طغيانه نزعة للانتحار القومي، تصيب الشعب المبتلي بحكم هذا الحزب، قبل أن تصيب الحكام الذي يرتعون في الغنائم التي تتيحها لهم السلطة المستبدة.

وقد آن أيضا أن تخرج من التاريخ فكرة «القومية» المجردة المفصولة فصلا تعفسيا عن الدين، ولو باعتباره الهوية الحضارية للأمة.

ان عالمنا العربي لن يعود بعد الأن عالما وحيدا بتلك الصفة، وخاصة بعد التطورات التي حدثت في الاتحاد السوفيتي، بل لا مفر من أن يعود عالما عربيا اسلامياً لا سبيل الى الفصل بين صفتيه هاتين اللتين كانتا تمثلان عبر التاريخ وجهين لعملة واحدة.

اننا نواجه حضاريا، الغزوة الصهيونية، التي اتخذت من الدين أساسا لقومية مفتعلة تغتصب بها جزءا غاليا من بلادنا، وقد سبق لنا في بعض فصول هذا الكتاب مناقشة مقدار «علم» الأستاذ هيكل بها!

ونواجه في «البوسنة والهرسك» مذبحة يشنها السلاف الصربيون ضد أبناء جلدتهم من السلاف المسلمين من أهالي البوسنة والهرسك، لمجرد اختلافهم عنهم في الدين، وتأتيهم ـ أي تأتي الصرب ـ رغم قرارات الأمم المتحدة بالحصار الاقتصادي ـ المساعدات التي يقدم الجانب الأكبر منها، التجمع السلافي الأكبر في جمهورية روسيا الاتحادية!

أم ترى يسخر الأستاذ هيكل أيضا من المعونات الانسانية التي يقدمها المال العربي من الكويت والسعودية، وخلافهما من الأقطار العربية إلى المنكوبين من أهالي «البوسنة والهرسك».

إننا بحاجة إلى إعادة فهم هذا العالم من جديد، وتبين موقعنا منه عن بصيرة، وعن غير هوى مصدره الولاء لألوان شاذة من الطغيان وجدت فرصتها في التحكم في بلادنا في مرحلة من مراحل تحولها من العهد الاستعماري القديم إلى عهود أخرى، وقادت بلادنا إلى الخسران المبين، كان آخرها العمل الاجرامي الانتحاري لطغيان الحكم العراقي حينما أقدم على غزو الكويت.

ولعلي أنهي هذه الصفحات، بالإشارة إلى عبارة وردت في أواخر الكتاب الأستاذ هيكل المسمى «حرب الخليج»، حيث يقول في ص ٦٣٥:

«على أن هناك حقيقة أخيرة لا مفر من مواجهتها، وتلك هي أن أزمة وحرب الخليج لم تكن حتمية أو ضرورية، ولم تكن مفيدة في بداياتها، ولا في نهاياتها..»

أي أن الصدام لم يكن «محققا» كما زعمت في أول كتابك يا أستاذ هيكل، ففيم اذن كان كل ذلك؟!

وفيم ألفت هذا الكتاب؟!

فهرس الكتاب

طباعة - المطبعة العصرية - الكويت

Tyranny and National Suicide

Whate Heikal did not Say in Illusions of Triumph

by
Abdul-Rahman Shaker

Center for Research and Studies on Kuwait

Kuwait, 1992.